



مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ  
وَالَّذِيْنَ مَعَهُ

١٢

عَزْوَةٌ بَدْرِيَّةٌ

عَبْدُ الْمُحَمَّدِ جَوْدَةُ السَّخَّارِ

السيرة النبوية

محمد رسول الله  
والذي بعثه

غزوة بدر

عبد الحميد حوزة النوار



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« ولقد نصركم الله ييدر وأنتم أذلة . فاتقوا الله لعلكم تشكرون .  
إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من  
الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا  
يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله  
إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله  
العزیز الحكيم . »

(قرآن كريم)

مدينة الرسول تنبض بالحياة . المهاجرون والأنصار في عدة القتال فقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلا في غير قريش من الشام ، فتدب المسلمين إليهم وقال :  
 - هذه غير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .

فانتدب الناس فحفف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي حربا . حتى إن كان الرجل ليساهم أباه في الخروج ، فكان ممن ساهم أباه سعد بن خيثمة فقال سعد لأبيه :

- إنه لو كان غير الخنة آثرتك به ، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا .

فقال خيثمة :

- آثرتي وقرمع نسائك .

فأبى سعد فقال أبوه :

- إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم .

فاستهيأ فخرج سهم سعد .

وأبطأ عن النبي صلى الله عليه وسلم وآله بشر كثير من أصحابه وكرهوا خروجه ، وتخلف بعضهم من أهل النيات

والبصائر لم يظنوا أنه يكون قتال إنما هو خروج للفتيمة ، وبنو  
ظنوا أنه يكون قتال لما تخلفوا منهم أسيد بن حضير .

وبقي عثمان بن عفان إلى جوار زوجته رقية بنت محمد عليه  
السلام فقد اشتد بها المرض وطاف بها شيخ الموت .

وراح عثمان يرنو إلى وجه رقية الذابل فينص حلقه بالدموع  
وتثال على رأسه الذكريات ، فغدا يرى نفسه وهو يحنو على بنت  
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن هاجرا إلى الحبشة فرارا  
بدينهما وهما على قرب عهدهما بالزواج . وسرعان ما احتل  
أقطار رأسه وجه رقية المشرق الصبوح وقد زاده الانفعال جمالا  
لما كانت تصنى إلى جعفر بن أبي طالب وهو يحاور النجاشي  
وأصحابه يوم أن جاء عمرو بن العاص يدبر لغنره . ورن في  
أغواره صوت رقية الرصين وهي تحدث المهاجرات حديثا يريح  
النفوس . ويبعث في الصدور الآمال ، فحرك أشجانه وزاد في  
مخاوفه فهو يحب زوجه حبا ملك عليه كل حواسه . ولكن كان  
أخشى ما يخشاه أن تموت رقية فينقطع نسه لرسول الله عليه  
السلام .

وتذكر عثمان يوم أن جاء الناعي ينعي الطاهرة أم المؤمنين .  
إنه حزن لموت خديجة حاضنة الإسلام حزنا كادت أن تنفطر له  
كبده ، ولكن حزن رقية على أمها كان ثقيلا هزه من الأعماق ،  
إنه ما انفك يواسيها وإن كانت نياط قلبه تتمزق ، وإن كان على  
بيته من فداحة المصاب ، كان يكفكف دموعها بينا العبرات  
تبلى روحه وتسيل في قلبه على سيدة نساء قريش ، وعلى رقية

التي كانت تضطرب من الأسى كريشة في مهب الرياح .  
ورأى عثمان بعين خياله يوم أن ركب البحر مع رقية والزبير  
ابن العوام وعبد الله بن جحش وأبو سلمة وامرأته هند بنت أبي  
أمية زاد الركب ، إنها كانت مستبشرة تهلل وجهها الجميل بالفرح  
دون أن تكترث بالموج ، فقد كانت في طريقها إلى مكة ،  
إلى أبيها الحبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي طال إليه  
الشوق وهوى إليه القواد .

إن عثمان لا يستطيع أن ينسى تلك اللحظة النابضة بأنبيل  
مشاعر البشرية ، ساعة أن ارتمت رقية في أحضان أبيها وهو يغمرها  
بتييلات الحنان . إنه استشعر أن الكون كله يخفق بالرقعة حتى  
إنه لم يستطع أن يحبس دموعه التي جرت من شدة الانفعال .  
ورنا عثمان إلى وجه زوجه الذابل الذي علاه الاصفار  
فقرت سكينته ولفه حزن شديد امتزج بخوف قاتل ، فالأنفاس  
المضطربة التي كانت تلتقطها رقية في جهد كانت على الرغم من  
خفتها تعلق بأعلى صوت فناء صاحبها ، وأنها تسرى في نفس  
الطريق الذي سرت فيه أم المؤمنين من قبل ، سبيل الخلود في  
ملكوت الله .

إنه حملها إلى يثرب بعد أن أذن رسول الله صلى الله عليه  
وسلم لأصحابه بالهجرة إلى المدينة وهو يمتلئ النفس بحياة مستقرة  
سعيدة يعمل فيها لآخرته ودنياه . وقد كانت أول أيامه بالمدينة  
مشرقة بالآمال فقد وضعت رقية طفلها عبد الله بن عثمان فكاد  
يطير من الفرحة أن صار له ولد جده رسول الله عليه السلام ،

وإنها لغناء الدنيا وسعادة الأبد أن يكون له ذرية من نسل خير  
البشر عليه صلوات الله .

وغمر الدار استبشار وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يغمر حفيده بفيض من حنانه ورقته ، وتوجت الشفاه بسمات  
فسروره عليه السلام كان يسر المهاجرين والأنصار ، ولكن هذه  
البهجة سرعان ما غاضت فقد تقر ديك عبد الله بن عثمان فمات ،  
فذاقت رقية مرارة الشكل ، ولما كانت مرهفة الحس فقد سقطت  
صريعة الحمى .

وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور ابنته التي تحملت  
في سبيل دينها كل الآلام وصنوف العذاب ، وكان يرى الغناء  
يدب فيها فيتلوى ألما ، وود أن يتي إلى جوارها يخفف عنها بعض  
ما تقاسى فهو يحبها بكل عواطفه ، ولكن ما إن سمع بأبي سفيان  
مقبلا من الشام بعير قريش حتى نذب المسلمين للخروج ، فحبه الله  
كان يفوق كل حب .

كان رسول الله قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن  
عمرو بن نفيل قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسان خبر  
العير ، فنزلا في كشد الجهني بالموضع المعروف بالتحيار من  
وراء ذي المرة على الساحل ، فاجارهما وأنزلهما فلم يزالا مقيمين  
في خباء وبر حتى مرت العير فرفعهما على نثر من الأرض ،  
فنظر إلى القوم وإلى ما تحمل العير وجعل أهل العير يقولون  
لكشد :

... يا كشد هل رأيت أحدا من عيون محمد ؟

- أعود بالله ! وأنى لمحمد عيون بالتخييار ؟  
فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا وخرج معهما  
كشد خضرا حتى أوردهما ذا المروة ، وساحت العير فأسرعت  
ومار بها أصحابها ليلا ونهارا فرقا من الطلب .

وجاء إلى رسول الله عبد الله بن عمرو بن حزام فقال :  
- يا رسول الله لقد سرقى منزلك هذا وعرضك فيه أصحابك  
وتفألت به ، إن هذا منزلنا بنى سلمة حيث كان بيننا وبين أهل  
حسيكة ما كان ، فعرضنا يا رسول الله ها هنا أصبحنا فأجزنا  
من كان يطيق السلاح ورددنا من صغر عن حمل السلاح ،  
ثم سرنا إلى يهود حسيكة وهم أعز يهود كانوا يومئذ فقتلناهم كيف  
شئنا فذلت لنا سائر يهود إلى اليوم . وأنا أرجو يا رسول الله أن نلتقى  
نحن وقريش فيقر الله عينك منهم .

وكان خلاد بن عمرو بن الجموح لما كان من النهار رجع  
إلى أهله بخرباء فقال له أبوه عمرو بن الجموح :  
- ما ظننت إلا أنكم قد سرتم .

- إن رسول الله ( ص ) يعرض الناس بالبعق .  
- نعم القال ! والله إنى لأرجو أن تغتمسوا وأن تظفروا  
عشرى قريش . إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى الحسيكة .

وانطلق رسول الله عليه السلام وأمامه رايتان سوداوان إحناهما  
مع علي بن أبي طالب وهي العقاب وكانت من مرط لعائشة ،  
وكان علي ابن عشرين سنة تتألق الشجاعة في عينيه ويشع التقي  
من وجهه ولا غرو فهو ربيب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ،

والثانية مع سعد بن معاذ . وسلم عليه السلام اللواء إلى مصعب بن عمير . وسار جيش المسلمين حتى انتهى إلى المكان المعروف بالبقع ، وهي بيوت السقيا وهي متصلة ببيوت المدينة ، فكان عبده رباح يستقي له من بئر غرس مرة ومن بيوت السقيا مرة .

وتأهب المسلمون للسير وقد لبس رسول الله دوعه ذات الفضول وتقلد سيفه العضب ، وأمر صلى الله عليه وسلم حين فصل من بيوت السقيا أن تعد المسلمون ، فوقف لهم عند بئر أبي عتبة وهي على ميل من المدينة فعدوا ، فعرض أصحابه ورد من استصفر ، وكان ممن رده عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت .

ورأى سعد بن أبي وقاص أخاه عمير بن أبي وقاص يتوارى فقال له :

— مالك يا أخي ؟

— إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وآله فيستصفرني فيردني ، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة .

فعرض على رسول الله ( ص ) فاستصفره فقال :

— ارجع .

فبكى عمير فرق له فأجازه .

وحين فصل صلى الله عليه وسلم من بيوت السقيا قال :

— اللهم إنهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع

فأشعبهم ، وعالة فأغنهم من فضلك .

ودعا لأهل المدينة فقال :

— اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة ،  
وإني محمد عبدك ونبيك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم في  
صاعهم ومدهم وثمارهم ، اللهم حبب إلينا المدينة واجعل ما بها  
من الوباء نجح (١) . اللهم إني حرمت ما بين لابتقها كما حرم  
إبراهيم خليلك مكة .

ثم خرج عليه السلام في خمسة وثلاثمائة رجل : من المهاجرين  
أربعة وستون وباقيهم من الأنصار ، بعد أن رد أبا لبابة واستعمله  
على المدينة . واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس في  
المدينة ، وخلف عاصم بن عدي على أهل قباء وأهل العالية بعد  
أن أصبحت تلك البقاع مسرحا للمنافقين وأعداء الإسلام .

وخرج حبيب بن يساف نجدة لقومه من الخزرج طالبا للغيمة ،  
وكان ذا بأس ونجدة ولم يكن أسلم ، ففرح المسلمون بخروجه معهم  
ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستبشر بخروجه فقال له :  
— لا يصحبنا إلا من كان على ديننا . ارجع فانا لانستعين  
بمشرك .

وراح حبيب يزين لرسول الله صلى الله عليه وسلم خروجه  
معهم والتي عليه السلام يؤكد أن المسلمين لا ينتصرون بأهل  
الشرك على أهل الشرك ، فلما رأى حبيب صدق رسول الله  
عليه السلام مع مبادئه قال :

---

(١) خم : على ميلين من الجعفة .

— توأمن بالله ورسوله .

— نعم .

فأسلم وسار مع المهاجرين والأنصار بعد أن أشرق قلبه  
بنور اليقين ، وقد وطئ النفس على الجهاد في سبيل الله .  
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ، فلما رأى ما يتحمل  
المسلمون من جهد في السير أفطر ونادى مناديه :  
— أفطروا .

فلم يقطروا ، فعاد مناديه يتنادى :

— يا معشر العصاة إني مفطر فأفطروا .

وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين  
بعيراً فاعتقبوها كل ثلاثة يعتقبون بعيراً ، فكان رسول الله عليه  
السلام وعلى بن أبي طالب ومرثد يعتقبون بعيراً ، فكان إذا  
كانت عقبه النبي صلى الله عليه وسلم قال له رفيقاه :  
— اركب حتى تمشي معك .

فيقول عليه السلام :

— ما أئتما أقوى مني على المشي ، وما أنا بأغني عن الأجر

منكما .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون  
بعيراً ، ورفاعة وغلاد ابنا رافع وعبيد بن يزيد الأنصاري يعتقبون  
بعيراً ، وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبي كبشة يعتقبون بعيراً ،  
وكان سعد بن أبي وقاص من أعظم أصحاب النبي عليه السلام  
عنه غناء وأكثرهم قوة على المشي وأرمامهم لهم ، لم يركب خطوة

ذاهبا ولا واجما ، وكان يعتمد لأخيه عمير بن أبي وقاص حمائل  
صيفه من صفره .

وغدت الأجراس المملقة في أعناق الإبل تصلصل فأمر رسول  
الله عليه السلام بالأجراس أن تقطع حتى لا ترشد أصواتها أعداءه  
إلى مطلقه .

ولم يكن في الجيش إلا فرسان : فرس المقداد بن الأسود  
ويقال له سبحة ، وفرس الزبير بن العوام ويقال له العيسوب ،  
ولكن كانت بين الجوانح قلوب عامرة باليقين نابضة بحب الله .  
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيوت السقيا حتى  
سلك بطن العقيق ثم سلك طريق المكيم حتى خرج على بطن  
ابن أزر فزل تحت شجرة هناك ، فقام أبو بكر إلى حجارة  
هناك فبنى منها مسجدا فصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
وأصبح يوم الاثنين وهو هناك ، ثم صار إلى بطن ملل وتربان  
بين الحفيرة وملل :

فلما كانوا بتربان قال رسول الله عليه السلام لسعد بن  
أبي وقاص :

- انظر إلى الظبي .

فصوب سعد سهمه إلى الظبي وقد وضع رسول الله عليه  
السلام رأسه بين منكب سعد وأذنه ، ثم قال :

- اللهم سدده رميته .

- فبما أخطأ سهم سعد عن نحر الظبي .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج سعد يعلو

فأخذ الظبي وبه رمق فذبحه ، فحملوه حتى نزلوا قريبا ، فأمر به رسول الله عليه السلام فقسم بين أصحابه .  
وفي أثناء الطريق بعرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده خبرا ، فقال له أصحاب الرسول عليه السلام :

— سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
قال :

— أفيكم رسول الله ؟

— نعم :

فسلم عليه ثم قال :

— إن كنت رسول الله فأخبرني بما في بطن ناقتي هذه .  
فقال له سلامة بن سلامة بن وقش :

— لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . أقبل على أنا أخبرك عن ذلك : تزوت عليها فني بطنها منك سخلة .  
فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
— مه ! أفحشت على الرجل .

ثم أعرض عن سلامة فقد كان عليه السلام يكره فحش القول .  
وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يرقب عودة طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد فقد بعثهما يتحسان خير غير أبي سفيان . حتى إذا ما نزل المسلمون بواد يقال له ذفران أتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم . فقال لأصحابه :  
— إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول

فما تقولون ؟ العبر أحب إليكم من النضير ؟  
إنه بخير هم بين الغنيمة والحرب فقالت طائفة منهم :  
- بلى . العبر أحب إلينا من لقاء العدو .  
وارتفعت أصوات تقول :  
- هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ؟ إنا خرجنا للعبر .  
- يارسول الله عليك بالعبر ودع العدو .  
فتغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم وأوحى الله إليه :  
كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين  
لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى  
الموت وهم ينظرون . وإذا يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم  
وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق  
الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل  
ولو كره المجرمون .  
وقام أبو بكر فقال وأحسن : ثم عمر فقال وأحسن ، ثم  
قام المقداد فقال :  
- يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول  
لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا  
إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما  
مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (١)  
لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

(١) موضع بناحية البحر .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له به ،  
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
- أشيروا على أيها الناس .

وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين  
بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من ذمامك حتى  
تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمنعك مما  
نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا من دهمه بالمدينة  
من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى علو من بلادهم ،  
فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ :  
- والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

- أجل .

- فقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق  
وأعطيناك على ذلك عهدنا وموائقتنا على السمع والطاعة ،  
فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك . فوالذي بعثك بالحق  
لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل  
واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبر في الحرب صدق  
في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .  
وأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه  
ذلك ، ثم قال عليه السلام :

- سيروا وأبشروا فإن الله تعالى وعدي إحدى الطائفتين ،

والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم .

لحقت قريش بالشام في غيرها ، وكانت العير ألف بعير وكان فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به في العير حتى إن المرأة لتبعث بالشئ التافه ، وإن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأبي أحيحة إما بمال لم أو مال مع قوم قراض على النصف . وكان لبني مخزوم فيها مائتا بعير وخمسة آلاف مثقال ذهبا ، وللحارث بن عامر ابن نوفل فيها ألفا مثقال ، وإن في القافلة لخمسين ألف دينار .

ولما لحقت قريش بالشام أدركهم رجل من جذام فأخبرهم أن محمدا عليه السلام قد كان عرض لعيرهم في بدأتهم وأنه تركه مقيما ينتظر رجعتهم قد حالف عليهم أهل الطريق ووادعهم . ولما كانوا بالزرقاء وهم منحدرون إلى مكة لقوا رجلا فقال لهم :

— قد كان عرض محمد لكم في بدأتكم في أصحابه .

— ما شعرنا .

— بلى . فأقام شهرا ثم رجع إلى يثرب وأتم يوم عرض محمد لكم مخزون فهو الآن أخرى أن يعرض لكم ، إنما يعد لكم الأيام عدا فاحذروا على عيركم وارثوا آراءكم ، فوالله ما أرى عددا ولا كراء ولا حلقة ( سلاح ) .

فأجمع القوم أمرهم فبعثوا ضمضم بن عمرو وكان في العير ،  
وقد كانت قريش مرت به وهو بالساحل معه بكران فاستأجروه  
بعشرين مثقالا ، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشا أن محمدا قد  
عرض لبعيرهم .

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث  
ليال قد رأت رؤيا أفزعته فقصتها على أخيها العباس والتمست  
منه أن يكتمها ، ولكن العباس قصها على صديقه الوليد بن  
عتبة بن ربيعة واستكتمه إياها . فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا  
الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش في أنديتها .

وسخر أبو جهل بالعباس وبني عبد المطلب وهزى برؤيا  
عاتكة . فلم تملك العباس إلا أن ينكر أن تكون عاتكة رأت  
شيئا . فلما جاء المساء غدت نساء عبد المطلب يلمن العباس لئنه  
مع أبي جهل . ففندا في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وهو حديد  
ففضب فدخل المسجد فرأى أبا جهل . وفيما هو يشتد إليه إذا  
بصوت ضمضم بن عمرو الغفصاري يصرخ بيطن الوادي واقفا  
على بعيره قد جدع بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو  
يقول :

— يامعشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي  
سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها . الغوث  
الغوث !

واقشعرت جلود أهل مكة . نزلت بأفئدتهم رهبة . كانوا  
يسخرون من رؤيا عاتكة لما قالت إنها رأت راسبا أقبل عنى بعير

له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا  
يا لغدر لمصارعكم في ثلاث ، وأن الناس اجتمعوا إليه ، ثم  
دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله قام به بعيره على  
ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها ؛ ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم في  
ثلاث . ثم قام به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها ، ثم  
أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى اذا كانت بأسفل الجبل  
تفتت فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقه .  
فاذا بالروية التي جعلت من رجال بني عبد المطلب ونسأهم  
هدفا للسخرية تلبو لكأنا كما كانت نبوءة ، فقد جاء ضمضم مكة  
بعد ثلاث ليال من تلك الرؤيا ، وكادت الهزيمة أن تشيع في  
نفوس الرجال فيقعدها عن الخروج لولا ذلك الحقد الذي يملأ  
قلوب أبي جهل وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث على محمد  
ابن عبد الله ، فراحوا يحثون القوم على الخروج لاستئصال شاة  
ابن أبي كبشة الذي فر من القتل يوم أن حاصروه في داره في مكة  
ليفتكوا به ، ويؤكدون أن الفرصة مواتية للقضاء عليه قبل أن  
يستفحل أمره في المدينة ويقطع عليهم تجارتهم مع الشام .

وقام سهيل بن عمرو في رجال من قريش فقال :

- يامعشر قريش ، هذا محمد والصبابة من شبانكم وأهل  
يثرب قد عرضوا لعيركم ولعظيمتكم (١) ، فمن أراد ظهورا فهلما  
ظهر ، ومن أراد قوة فهذه قوة .

(١) التجارة : وقيل العير خاصة .

وقام زمعة بن الأسود فقال :

- إنه واللات والعزى ما نزل بكم من أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرضوا لعيركم فيها خزائنكم ، فأوعبوا ( فاستعدوا ) ولا يتخلف منكم أحد ، ومن كان لاقوة له فهذه قوة ، والله لئن أصابها محمد وأصحابه لا يروءكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم .

وقال طعيمة بن عدى :

- يامعشر قريش والله ما نزل بكم أمر أجل من هذه ! أن يستباح عيركم ولطيمة قريش فيها أموالكم وخزائنكم . والله لا أعرف رجلا ولا امرأة من بني عبد مناف له نسي ( وزن نواة من ذهب ) فصاعدا إلا وهو في هذه العير ، فمن كان لاقوة به فعندنا قوة نحمله وتقويه .

وقام حنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فحضا الناس على الخروج ولم يدعوا إلى قوة ولا حملان . فقيل لهما :

- ألا تدعوان إلى ما دعا إليه قومكما من الحملان ؟

- والله مالنا مال ، وما المال إلا لأبي سفيان .

ومشت قريش إلى أبي لب فقالوا له :

- إنك سيد من سادات قريش وإنك إن أنت تخلقت عن

النصير يعتبر بك غيرك من قومك . فانخرج أو ابعث رجلا .

- واللات والعزى لا أنخرج .

فقال له أبو جهل :

— أقم يا أبا عتبة : فوالله ما أخرجنا إلا غضبا لدينك ودين  
آبائك .

كان أبو لهب يشفق من رؤيا عاتكة فبعث مكانه العاص بن  
هشام وكان قد استرقه لدين في الميسر .

كان أناس قد أجمعوا على القعود فكان أبو جهل وعقبة  
والنضر يسخرون منهم . يقولون لبعضهم : اقعد فانما أنت من  
النساء . ويشيرون في البعض النخوة والأحقاد فخرج كثير من  
الناس وهم كارهون ، وقد خرج العباس بن عبد المطلب وبعض  
بنى المطلب وهاشم وهم يمنون النفس بالألا يكون قتال بين الفريقين ،  
فقد أخرجوا كرها ولولا خشيتهم من الناس ما تجهزوا وما أجمعوا  
الميسر .

وتأهبوا للخروج إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخذوا بأستار  
الكعبة وقالوا :

— اللهم انصر أعلى الجنديين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين  
وأفضل الدينين . اللهم لانعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه  
بالحق .

وساروا : أبو جهل ينهش صدره الحقد ويأكل قلبه الحسد ،  
وعقبة بن أبي معيط يتلطف على اللقاء ليسفك دم ابن عبد الله  
الذي توعدده بالقتل إن اتى به خارج مكة . والنضر بن الحارث  
يتلمظ تلمظ الحيات قد استولى على ذهنه رسول الله عليه السلام  
وكان طيفه هدفا لسيفه وكل ما في جعبته من سهام . فهو لا يستطيع  
أن ينسى الآيات التي نزلت فيه تسخر منه وتتوعدده بعذاب النار .

وكان عتبة بن ربيعة على جمل أحمر . إنه قد ألقى سمعه كثيرا إلى محمد عليه السلام وكان رأيته أن يخلى بينه وبين القبائل فان قتلوه كفؤهم دمه وثأر بني هاشم . وإن ظهر كان ذلك لقريش . ولولا عناد أبي جهل وحقده على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان عتبة من أتباع رسول الإسلام .

إنه خارج للقتال وهو كاره . فان كان حليفة ابن الحضرمي قد قتله واقد بن عبد الله التميمي في الشهر الحرام لما بعث محمد ابن عبد الله ابن عمته عبد الله بن جحش على رأس سرية في شهر رجب . فهو على استعداد لأن يدفع دية حليفته وأن يحقن الدماء لولا إصرار ابن الخنظلية أبي جهل بن هشام على قطع دابر محمد وأصحابه ليخلو له وجه قريش .

وكان حكيم بن حزام على بعيره شارد اللب يستشعر عدم راحة لذلك الخروج الذي دفعهم إليه ابن الخنظلية دفعا . إنه صاحب دار الندوة وله رأى نافذ في شئون مكة . ولكن الأحداث قد جعلته يتقاد إلى أبي جهل دون تدبير ويخرج لقتال المسلمين الذين انطلقوا ليستولوا على أموالهم التي مع أبي سفيان .

إنه لا يستطيع أن ينسى أيام أن حصروا بني هاشم في الشعب . كانت عمته خديجة فيهم وكان قلبه يكاد يتمزق لما يفكر أنه يأكل بينا عمته الحبيبة تتلوى من الجوع ، فكان يسوق العير التي تأتيه من الشام تحمل الخنطة إلى الشعب ثم يضرب أعجازها فتدخل عندهم فيأمنون ما عندها من العير . وهو لا يستطيع أن ينسى أن الطاهرة سيدة نساء قريش قد ماتت وهي على الدين الذي

جاء به زوجها محمد بن عبد الله . إنه لو أطاع مشاعره للوى عتق  
بعيره وانقلب إلى أهله لولا خشيته من الناس !  
إنه ما توجه وجهها قط كان أكره إليه من مسيره إلى بلر ،  
وما بان له في وجه قط ما بان له قبل أن يخرج ، إنه استقسم  
بالأزلام فكان في كل مرة يخرج ما يكره ، ولولا ابن الحنظلية  
ما مضى لوجهه .

وأطلق أبو البخري بن هشام بن الحارث بن أسد لحياه  
العنان فاذا به يذكر قيامه في نقض الصحيفة التي كتبها قريش  
وتعاهدت فيها أن لا تتبع لبني هاشم ولا تتباع منهم وأن لا تزوجهم  
وآلا تزوج فيهم . إنه قال لأن جهل في المسجد : لا نرضى ما كتب  
فيها ولا نقر به . وما زال مع أصحابه حتى أخرج بني هاشم من  
الشعب وحطم ما ضرب حولهم من حصار : فان كان القضاء  
على محمد بن عبد الله وصحبه هو الهدف فقيم كان قيامه في نقض  
الصحيفة ؟ !

وما كان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث  
ابن عامر فانه قال :

— ليت قريشا تعزم على التعمود وأن مالي في العير تلف ومال  
بني عبد مناف أيضا .

— إنك سيد من ساداتها أفلا تردعها عن الخروج ؟

— إنى أرى قريشا قد أزمعت على الخروج ولا أرى أحدا  
به طريق ( قوة ) تخلف إلا عن علة ، وأنا أكره خلافها وما أحب  
أن تعلم قريش ما أقول ، على أن ابن الحنظلية رجل مشوم على

قومه ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب .

وجاء ضمضم بن عمرو وكانت للحارث عنده أباد فقال :  
- أبا عامر إني رأيت رؤيا كرهتها وإني لكاليقظان على  
راحتي ، وأراكم أن واديبكم يسيل دما من أسفله إلى أعلاه .  
فقال الحارث :

- ما خرج أحد وجهها من الوجوه أكره له من وجهي  
هذا .

- والله إني لأرى لك أن تجلس .

- لو سمعت هذا منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة ،  
فاطو هذا الخبر عن قريش فأنها تتهم كل من عوقها عن المسير .  
وكان الأنخس بن شريق مع بني زهرة أخوال محمد بن  
عبد الله ، إنهم خرجوا كارهين كما خرج العباس وبنو المطلب  
وبنو هاشم ، ولولا الملامة لقتلوا مع القاعدين . ولولا عقبة بن  
أبي معيط والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام ما خرج منهم  
أحد لقتال ابن أمية زهرة بني زهرة ، ولو وجدوا سبيلاً للنكوص  
لقتلوا راجعين .

وكان أمية بن خلف يرتجف من الخوف . إنه رأى رؤيا  
أفزعته فكان قلبه كقلب الطير كلما خفت الريح خفق معها ،  
وجعل يرمق عقبة بن أبي معيط في غيظ فهو الذي قال له لما  
أراد أن يقعد : يا أبا علي استجمر . فأما أنت من النساء .  
فأحنته ذلك القول حتى قال : قبحك الله وقبح ماجنت به .  
ثم تجهز ليخرج مع الناس .

دفع شياطين قريش : أبو جهل بن هشام وعقبة بن أبي معيط  
والنضر بن الحارث الناس للخروج ليشفوا مرض قلوبهم . وكان  
كثير من الخارجين كارهين للقتال يتمنون أن تفلت العير من  
أيدي المسلمين حتى يجلبوا عنرا للعودة بسلام ، فرويا عاتكة  
وإن سخرها منها كانت تزلزل الأرض تحت أقدامهم .

ونزلوا بحر الظهران فتحرم لهم أبو جهل بن هشام عشر جزائر ،  
وراحت القيان يضررن بالدقوف وعكفوا على الشراب ثم نهضوا  
يستأنفون الرحلة ، حتى إذا بلغوا عسفان حطوا الرحال ونحروهم  
سفيان بن أمية تسع جزائر . ونحروهم سهيل بن عمرو بقديد بعد  
أن طافوا باللات عشر جزائر . وساروا من قديد فصلوا بها  
ثم أصبحوا بالححفة فتحرم لهم عتبة بن ربيعة عشر جزائر .

وجلس عند الثنية البيضاء عداس غلام عتبة وشيبة الذي قبل  
رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن لقي من سفهاء الطائف  
أشد ألوان الاضطهاد : وراح الناس بمرون ، إذ مر عليه عتبة وشيبة  
ابناربيعة فوثب إليهما فأخذ بأرجلهما في غرزهما وهو يقول :  
- يا بني أنتما وأمي ! والله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم  
وما تساقان إلا إلى مصارعكما !

وإن عينه لتسيلان دما على خديه . ومر به العاص بن منبه  
بن الحجاج فوقف عليه حين ولي عتبة وشيبة فقال :  
- مايكيك ؟

- ييكيتي سيدا أهل الوادي برحان إلى مصارعهما ويقاثلان  
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

— وإن محمدا لرسول الله !

فانتفض عداس انتفاضة واقشعر جلده ثم بكى وقال :

— إى والله ، إنه لرسول الله إلى الناس كافة .

وكان مع قريش رجل من بنى المطلب بن عبد مناف يقال له

جهم بن الصلت ، فوضع رأسه فأغنى ثم قام فرعا فقال لأصحابه :

— هل رأيتم الفارس الذى وقف على ؟

— لا .

فقال وهو مبهور الأنفاس :

— قد وقف على فارس فقال : قتل أبو جهل وعتية وشيبة

وزمعة وأبو البخترى وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو .

ثم رأيت ذلك الفارس ضرب فى لبة بعيره ثم أرسله فى العسكر

فما من نجاء من أخية العسكر إلا أصابه من دمه .

فقال له أصحابه :

— إنما لعب بك الشيطان .

وشاعت هذه الرويا فى المعسكر فاذا بالخوف ينزل بالقلوب .

وإذا برويا عاتكة تستولى على النفوس فتشعر الجلود ، وإذا

برهبة من المجهول تجثم على الأفتنة ، وبلغت الرويا أبا جهل

فصجرت غضبه ورأى أن خير ما يفعله أن يسفه صاحبها ليحيد

الطمأنينة إلى القلوب الواجفة وإلى النفوس التى ذهبت شعاعا فقال :

— قد جثم بكذب بنى عبد المطلب مع كذب بنى هاشم .

هذا نبي آخر من بنى عبد المطلب سيعلم غدا من المقتول نحن

أو محمد وأصحابه .

ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذفران حتى نزل قريبا من بدر ، فركب عليه السلام هو وأبو بكر رضي الله عنه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ :

— لا أخبر كما حتى تخبراني من أنتما .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— إذا أخبرتنا أخبرناك .

فقال الشيخ :

— ذاك بذاك ؟

— نعم .

— فانه قد بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ،

فان كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

وذكر المكان الذي نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأصحابه وقال :

— وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فان كان الذي

أخبرني به صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

المكان الذي نزلت به قريش ، فلما فرغ من خبره قال :

— من أنتما ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— نحن من ماء .

ثم انصرفا عنه فقال الشيخ :

— من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

ثم رجع رسول الله عليه السلام إلى أصحابه وهو يفكر في قريش ، ورجع صوت عمر يتردد في نفسه : « يا رسول الله إنها قريش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت — والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهيت وأعدد لذلك عدته » . وراح صدى صوت سعد بن معاذ يسرى في ذاكرته عليه السلام :

« إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطعن حيث شئت ، وصل جبل من شئت ، واقطع جبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا فنحن تبع لأمرك : فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك » .

فرفت ابتسامة رضا على شفقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أمسى عليه السلام بعث على بن أبي طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى بدر يئتمون الخبر فأصابوا إبلا لقريش تحمل الماء معها غلام لبني الحجاج وغلام لبني العاص ، فأتوا بهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي فقالوا :

— لمن أنتما ؟

وظنوا أنهما لأبي سفيان فقالا :

- نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء .  
فصربوهما فلما أوجعوهما ضربا قالا :  
— نحن لأنى سفيان .  
فتركوهما ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه و  
صلاته قال :  
— إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركه  
صدقا والله إنهما لقريش .  
والتفت عليه السلام إلى الغلامين وقال :  
— أخبراني عن قريش .  
— هم وراء هذا الكتيب بالعدوة القصوى (جانب  
المرتفع) .  
— كم القوم ؟  
— هم والله كثير عددهم شديد بأسهم .  
— ما عدتهم ؟  
— لا ندرى .  
وجهد النبي عليه السلام أن يجبراه كم هم قأبيا  
صلى الله عليه وسلم :  
— كم تنحرون كل يوم ؟  
— يوما تسعا ويوما عشرا .  
فقال صلى الله عليه وسلم :  
— القوم ما بين التسعمائة والألف .  
ثم قال للغلامين :

- فمن فيهم من أشرف قريش ؟

- عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البخري بن هشام  
وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل  
وطعيمة بن عدى بن نوفل والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود  
وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونيبه ومته أبنا الحجاج  
وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدود .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال :

- هذه منكم قد ألفت إليكم بأفلاذ كبدها .

وأقلت من الأسر عجير فكان أول من جاء قريشا بنجر النبي  
صلى الله عليه وسلم ، فنادى :

- يا آل غالب ! هذا ابن أبي كبشة وأصحابه وقد أخفوا  
سقاءكم .

فماج المسكر ، وكان حكيم بن حزام وصحبه في خباء لهم  
على جزور يشوون من لحمها ، فما هو إلا أن سمعوا الخبر  
فامتنعوا عن الطعام ، ولقى بعضهم بعضا ولقى حكيم عتبة  
فقال عتبة :

- يا أبا خالد ما أعلم أحدا يسير أعجب من مسيرنا ، إن  
عبرنا قد نجت وإنا جئنا إلى قوم في بلادهم بغيا عليهم .

- أراه لأمر محم ولا رأى لمن لا يطاق ! هذا شويم ابن  
الحنظلية .

- يا أبا خالد أتخاف أن نبيتنا القوم ؟

- لأنت آمن من ذلك .

— فما رأى يا أبا خالد ؟

— تتحارس حتى تصبح وترون رأيكم .

— هذا الرأي .

فتحارسوا حتى أصبحوا ، فقال أبو جهل في سخرية :

— هنا عن أمر عتبة كره قتال محمد وأصحابه ، إن هنا

هو العجب . أتظنون أن عمدا وأصحابه يعرضون لجمعكم !

والله لأنتحن ناحية بقومي فلا يجرسنا أحد .

فتنحى أبو جهل ناحية وإن السماء لتمطر عليه ، فقال عتبة :

— إن هذا هو النكد .

ثم مضى رجلان من الصحابة إلى ماء بدر فتزلا قريبا منه

عند تل هناك ، ثم أخذتا شتا لهما ( قربة ) يستقيان فيه ، وإذا

بشخص على الماء ، وإذا جاريتان تتخاصمان وتمسك إحداهما

الأخرى على الماء تطلب منها ما عليها من دين ، فتقول المدينة

لصاحبتها :

— إنما يأتي العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك

الذي لك .

وإذا بالشخص الذي كان على الماء يقول :

— صلقت .

ثم خلص بينهما والرجلان من الصحابة يصغيان إلى ذلك

الحوار الدائر بين الجاريتين وذلك الرجل الذي على الماء ، فجلسا

على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأخبراه بما سمعا .

— هو على ما تقول ، أفرجع من بين أهل العسكر ؟

فجاء أبو جهل بن الحنظلية فقال :

— ما تريدان ؟

— الرجوع : ألا ترى إلى رؤيا عاتكة وإلى رؤيا جهم بن الصلت

مع قول عداس لنا ؟

— تخذلان والله قومكما وتقطعان بهم .

— هلكت والله وأهلكت قومك !

وبلغ أبا سفيان إصرار أبي جهل على أن يقيم بيذر ثلاثة أيام ينحر

الجنذور ويطعم الطعام ويسقى الخمر ، فلم يستصوب رأيه وقال :

— هذا بغى والبغى منقصة وشؤم . والله لمن أصاب محمد النفير

ذلنا إلى أن يدخل مكة علينا .

وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال :

— لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

وانطلق أبو جهل وكفار قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى قريبا من

الماء ، ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون بعيدا من الماء بينهم وبين

الماء رحلة . فظمى المسلمون وأصابهم ضيق شديد وراح الشيطان

يوسوس في صدورهم : « تزعمون أنكم أولياء الله وأنكم على الحق

وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عطاش ، فإذا

قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى

مكة . . . فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا ، وكان الوادى لنا كثير التراب

تسيخ فيه الأقدام فإذا بالمطر ينهمر من السماء ، فانطلق المسلمون

تحت الشجر والجحف يستظلون تحتها من المطر وما كان فيهم قائم

إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة ويكثر فى سجوده أن يقول :  
— يا حى . يا قيوم .

وأصاب المسلمين نعاس شديد أمنة من الله ، واستمر عليه السلام  
فى قيام وسجود وابتهاال طوال الليل حتى أصبح ، فإذا المطر أطفأ  
الغبار ولبد الأرض وطهر المسلمين وشربوا منه وملئوا الأسقية وسقوا  
الركائب . وأصاب قريشا منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا منه ويصلوا  
إلى الماء فكان المطر نعمة للمؤمنين ونقمة على المشركين .  
وطلع الفجر فنادى رسول الله ﷺ :  
— الصلاة عباد الله .

فجاء الناس من تحت الشجر والجحف فصلى بهم رسول الله ﷺ  
وحرص على القتال فى خطبة خطبها ، ثم خرج عليه السلام يسابق  
قريشا إلى الماء فسبقهم عليه حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به ﷺ  
فقال له الحباب بن المنذر :

— يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمزول أنزلكه الله تعالى ليس لنا  
أن نتقدمه ولا تتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟  
فقال رسول الله عليه السلام فى بساطة :  
— بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

لو كان وحيا للزم المنذر الصمت ، وما دام رسول الله عليه السلام  
قد قال إنه الرأى فإن للمنذر رأيا أفضل ، وإن الدين النصيحة ، وما  
طالما نزل رسول الله ﷺ على رأى أصحابه إذا ما ظهرت فيه مصلحة  
أو خير ، فقال المنذر :

— يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى

أدنى ماء من القوم فإني أعرف غزارة مائه وكثرته بحيث لا يتزح  
فتنزله ، ثم تغور ما عداه من القلب ثم تبنى عليه حوضا فتملأه ماء  
فنشرب ولا يشربون .

قال رسول الله ﷺ في رضا :

لقد أشرت بالرأى .

كان رأيا ضائبا فقبله عليه السلام وإن كان معارضا لرأيه ، فنهض  
رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم  
فنزول عليه ثم أمر بالقلب فقورت وبني ﷺ حوضا على القلب الذي  
نزل به فملأه ماء ثم قذفوا فيه الآنية .

وخطب رسول الله ﷺ المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :  
... أما بعد فإني أحثكم على ما حثكم الله عليه وأنهاكم عما نهاكم  
الله عنه ، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطي على  
الخير أهله على منازلهم عنده ، به يذكرون وبه يتفاضلون ، وإنكم  
أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به  
وجهه . وإن الصبر في البأس مما يفرج الله به الهم وينجي به من الغم ،  
تدركون به النجاة في الآخرة فيكم ينسى الله يحذركم ويأمركم  
فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه فإنه تعالى  
يقول : « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم » انظروا إلى الذي أمركم  
به من كتابه وأراكم من آياته وما أعزكم به بعد الذلة فاستمسكوا به  
يرض ربكم عنكم ، وابلوا ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا به  
الذي وعدكم من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق وقوله صدق وعقابه  
شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم إليه ألقانا ظهورنا وبه اعتصمنا

( غزوة بدر )

وعليه توكلنا وإليه المصير ، ويغفر الله لى وللمسلمين .  
كان الليل قد انتصف وكان الجهد قد نال من المسلمين فأسلموا  
جنوبهم للرقاد ، حتى إذا ما تنفس الصبح جاء سعيد بن معاذ إلى رسول  
الله ﷺ وقال :

— يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟  
ثم تلقى عدونا فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا . كان ذلك ما  
أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن  
وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم  
ولا أطوع لك منهم ، لهم رغبة في الجهاد ونية . ولو ظنوا أنك تلقى  
حربا ما تخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير . يمنعك الله بهم ويناصحونك  
ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير وقال :  
— أو يقضى الله خيرا من ذلك يا سعد .

كان رسول الله عليه السلام على ثقة من نصر الله فقد وعده إحدى  
الطائفتين ، فإذا كانت العير قد أفلتت فلن تفلت قريش فقد رأى  
مصارع القوم .

وبنى العريش لرسول الله ﷺ فوق تل مشرف على المعركة ، وقال  
المسلمون :

— من مع رسول الله ﷺ ؟

كانوا يخشون أن يهوى إليه عليه السلام أحد من المشركين ، فلم  
يدن منهم أحد إلا أبو بكر شاهرا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ  
قائلا :

— لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه .

ووقف أبو بكر وسعد بن معاذ على باب العريش في نفر من الأنصار ، فلما كان الصباح أقبلت قريش من الكتيب . ولما رأى رسول الله ﷺ قريشا وقد أقبلت بالدروع الساترة والجموع الوافرة والأسلحة الشاكية قال :

— اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وعجبها وفخرها تحادك وتخالف أمرك وتكذب رسولك ، فنصرك الذي وعدتني .  
اللهم إنك أنزلت على الكتاب وأمرتني بالثبات ووعدتني بالبطانة والبطانة لا تخلف الميعاد . اللهم احشهم الغداة .  
واطمأنت قريش فأرسلوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا :  
— احرز لنا أصحاب محمد .

فخرج عمير لينظر عدة جيش المسلمين فاستجال بفريسه حول عسكر النبي ﷺ ، ثم رحل إليهم فقال :  
— ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كمينا أو مددا .

فذهب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئا ثم رجع إليهم وقال :  
— ما رأيت شيئا ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا (١) تحمل المنايا ، ألا ترونهم خرسا لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعى لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم ، والله ما نرى أن تقتل منهم رجلا حتى

---

(١) التوق تبرك على قبر صاحبها فلا تطف ولا تسقى حتى تموت ويقصد الإبل تحمل الموت .

يقتل رجل منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟

وصادف ذلك القول هوى في نفس حكيم بن حزام فهو يكره قتال زوج عمته الطاهرة سيدة نساء قريش ، وإن خرج كارها لينقذ نفسه من تقرير ابن الحنظلية أبي جهل بن هشام ، فمشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال :

— يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها إلى آخر الدهر ؟  
— وما ذاك يا حكيم ؟  
— ترجع بالناس .

فقام عتبة خطيبا على جمل أحمر ، فقال رسول الله عليه السلام :  
— إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر .  
وقال عتبة :

— يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن لا يزال رجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله ورجلا من عشيرته ، أرجعوا واخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك أكفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

يا قوم اعصبوها اليوم برأسى ( أي اجعلوا عارها متعلقا بي ) وقولوا جين عتبة وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم .  
وولدت على الشفاء همسات :

— ودم ابن الحضرمي ؟

فخف حكيم بن حزام إلى عتبة وقال له :  
— تجير بين الناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي وتحمل  
ما أصاب محمد من تلك العير .  
فقال عتبة :

— نعم قد فعلت ، ونعم ما قلت ونعم ما دعوت إليه .  
وصار عتبة يجيل جملة في صفوف قريش يقول :  
— يا قوم ! أطيعوني فإنكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمي وما  
أخذ من العير وقد تحملت ذلك . يا معشر قريش أنشدكم الله في هذه  
الوجوه التي تضيء ضياء المصاييح أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التي  
كأنها عيون الحياة .

كان عتبة بن ربيعة الرجل الذي حنكته السنون يضيق بقريش أن  
تلقى أقواما ليس لهم ملجأ إلا سيوفهم فجعل يزين لهم الرجوع ، فلما  
رأى رسول الله عليه السلام راكب الجمل الأحمر يجيله في صفوف  
قريش قال :  
— يا علي ، ناد حمزة .

وكان حمزة أقربهم للمشركين ، فلما منع نداء علي أتجه إلى ابن  
أخيه رسول الله عليه السلام وفي وجهه إجلال وتوقير ، فقال له صلى الله عليه وسلم :  
— من صاحب الجمل الأحمر ؟ وماذا يقول لهم ؟  
— هو عتبة بن ربيعة ينهي عن القتال .

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام :  
— انطلق لابن الحنظلية فقل له هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن  
ابن عمك ؟

فجاءه حكيم فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه ، وإذا بعامر  
ابن الحضرمي واقف على رأسه . إنه أخو عمرو بن الحضرمي الذي قتله  
واقد بن عبد الله في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة ، وهو لا يرى إلا  
الحرب ليشفى غليل نفسه وهو يقول :

— قد فسخت عقدي من عبد شمس وعقدي إلى بني مخزوم .  
كان يهدد بفسخ ما بينه وبين عتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام إذا  
لم تتأرقريش من قتلة أخيه ، فلم يعرفه حكيم التفاتاً بل قال لأبي جهل :  
— يقول لك عتبة بن ربيعة هل لك أن ترجع بالناس عن ابن عمك  
بمن معك ؟

فقال أبو جهل في غضب :

— أما وجد رسولاً غيرك ؟

— لا ، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره .

ثم قتل حكيم بن حزام بن خويلد راجعاً إلى عتبة لئلا يفوته من الخير  
شيء ، وعتبة متكئ على إيماء بن رخصة الغفاري وقد أهدى إلى  
المشركين عشر جزائر ، فطالع أبو جهل الشر في وجهه فقال لعتبة :  
— انتفخ بسحرك (١) ؟

قال له عتبة : ستعلم .

فسل أبو جهل سيفه فضرب به متن فرسه ، فقال إيماء بن رخصة :  
— بس الفأل هذا .

---

(١) السحر : الرثة فيقال للجبان انتفخ سحره ، لأن انتفاخه يرفع القلب إلى  
الحلقوم وهو مثل لشدة الخوف .

٤

دب الشقاق في معسكر قريش قبل أن ينشب القتال ، فقد تبادل  
عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام وأبو جهل بن هشام أفحش السباب ،  
قال أبو جهل لعتبة :

— أنت تقول ارجع بالناس عن ابن عمك بمن معك ؟ والله لو غيرك  
يقول هذا لأعضضته ( أى قلت له : اعضض على بظر أمك ) ، أن قد  
ملأت رثلك خوفاك رهبا . كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين  
محمد .

والتفت إلى حكيم بن حزام وقال :  
— ما بعبة ما قال : ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور  
وفيهم ابنه أبو حذيفة فقد تخوفكم عليه .

وأعجبت الفكرة قائلها فقام أبو جهل في الناس فقال :  
— يا معشر قريش إنما يشير عليكم عتبة بهذا لأن ابنه مع محمد ،  
ومحمد ابن عمه فهو كره أن تقتلوا ابنه وابن عمه .

فغضب عتبة وسب أبا جهل وقال :  
— سيعلم أننا أقصد لقومه .

وحسب أبو جهل أنه يقلب القوم على رأى عتبة لما ذكر أن ابنه في  
صفوف المسلمين ، وما دار بخلده أنه أيقظ الذكريات الرقيقة من  
مضاجعها وحرك أنبل ما في الإنسان من مشاعر ، وشائج القربى

والصدقات ، فإذا بكل من في عسكر قريش يذكر الأقارب والخلان  
في عسكر رسول الله ﷺ ، فاحتلت رأس عبد الرحمن بن أبي بكر  
صورة أبيه الشيخ الجليل ، وإذا بالعباس بن عبد المطلب يفكر في ابن  
أخيه نبي الله الذي خرج معه ليلا إلى العقبة ليستوثق له من الخزرج أن  
يمنعوه ما دام قد أبي إلا الانحياز إليهم . إنه كان يبغي سلامته في تلك  
الليلة الفاصلة أفيحاربه اليوم ليسفك دمه ١٩

وتذكر أخاه حمزة وابن أخيه علي بن أبي طالب وكل من في  
صنفوف المسلمين من بنى المطلب وبنى هاشم ، فإذا به يتمنى من كل  
قلبه ألا يكون قتال ، ولولا خشيته من نشوب حرب بين أبي جهل  
ورمطه وبين بنى هاشم لقفل راجعا كما رجع الأخنس بيني زهرة .  
وتذكر أمية بن خلف رفيق العمر عبد الرحمن بن عوف ، إنه  
صديقه العزيز الذي فرق بينهما الإسلام . ترى لو اختلط الجمعان  
والتقى هو والصديق الحبيب وجها لوجه أيستطيع أحدهما أن يهوى  
بسيفه ليقضى على حبيه ١٩ .

وتذكر رجال بنى تيمم الأحبة من بنى تيمم الذين يقفون مع رسول الله  
عند ماء بدر ، وفكر بنو مخزوم في إخوانهم المسلمين من بنى  
مخزوم ، وإذا بكل قبيلة من قريش تشفق على أبنائها الذين أبوا إلا  
الإسلام ، ف وقعت الهزيمة في قلوبهم قبل أن يشهروا السيوف ويدور  
القتال .

كان العقل يقضى بأن يعود أبو جهل بمن معه بعد أن أقلت أبو  
سفيان بالعبير ، ولكن الله قد بندد ذلك الصوت لأن الله أراد أمرا ليوطد  
لدينه في الأرض ، فجعل أبا جهل يركب رأسه وينقاد لغروره ويصر

على خوض غمار القتال ويقول دون وعى منه : كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد !

والتفت المشركون إلى عسكر المسلمين فجعلهم الله في أعينهم قليلا ليستدرجهم إلى مصارعهم ، وجعل الله المشركين في أعين المسلمين قليلا ليقوى جأشهم على مقاتلتهم حتى إن عبد الله بن مسعود التفت إلى رجل بجواره وقال :

— أترأهم سبعين ؟

— أراهم مائة .

وأنزل الله تعالى : ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم . إذ يريكم الله في منامك قليلا ولو أراكم كثيرا لفشلتم ولتنازعتكم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقتلكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .

وكان قباث بن أشيم فى صفوف المشركين ، فلما ألقى نظرة على عسكر المسلمين هجس فى قلبه : ﴿ لو خرجت نساء قريش بأكتمتها لردت محمدا وأصحابه . ﴾

وأراد رسول الله ﷺ أن يستنفذ كل وسائل الصلح قبل أن يخوض القتال ، فما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فبعث إليهم عمر بن الخطاب سفيرهم فى الجاهلية ليقول لهم :  
— ارجعوا فإنه أن يلى هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه

منى .

فتلقفها حكيم بن حزام فقال :

— قد عرض نصفاً فأقبلوه ، فوالله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من

النصف .

وصوبت العيون إلى أبي جهل الطاغية الذي فرض إرادته على

الجميع ، فإذا به يقول :

— والله لا نرجع بعد أن مكنتنا الله منهم .

وخشى أبو جهل أن تنصر رغبة السلام على القتال فبعث إلى عامر

ابن الحضرمي أخى المقتول وقال :

— هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ويخذل عن القتال وقد تحمل

دية أخيك من ماله ويزعم أنك قبلتها . ألا تستحى أن تقبل الدية من مال

عته وقد رأيت تأرك بعينيك ؟ فقم فأذكر مقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمي فاكشف إسته وخشا عليه الشراب ثم

صرخ :

— واعمره ! واعمره !

فشارت نفوس قريش بينا كان أخوه العلاء بن الحضرمي في صفوف

المسلمين ينظر وقد ملئ أسى على ما يفعل أخوه من إثارة الأحقاد ،

ورأى الأسود بن أبي سلمة المخزومي وكان رجلاً سيء الخلق شديد

العداوة لرسول الله ﷺ أن يشعل نار الحرب قبل أن تلعب بالرعوس

دعوة السلام فقال :

— أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه .

وخرج الرجل الشرس ليقتحم عنسكر المسلمين فخرج إليه حمزة

بن عبد المطلب يلعب بسيفه ، فلما التقيا ضربه حمزة فقطع قدمه  
بنصف ساقه ، فطارت وهو دون الحوض فوق على ظهره تشجب  
رجله دما . ولم يجزع لما أصابه بل غدا يحبو إلى الحوض حتى اقتحمه  
وهدمه برجله الصحيحة يريد أن تبر يمينه ، فأتبعه حمزة فضربه حتى  
قتله في الحوض .

وقضى مقتل الأسود بن أبي سلمة المخزومي على آخر أمل في  
السلام ، فراح عتبة بن ربيعة يلتمس خوذة ليدخلها في رأسه فما وجد  
في الجيش بيضة تسع رأسه لعظمه فتعمم يرد له . ولم يجعل تحت  
لحيته من العمامة شيئا .

ورأى حكيم بن حزام عتبة يعمد إلى القتال فقال له حكيم :

— مهلا مهلا يا أبا الوليد ! لا تنه عن شيء وتكون أوله .

كان عتبة يحاول أن يقنع ابن الحنظلية بالرجوع ، وأما وقد أخفق  
ونشب القتال فلا بد أن يكون أول من يخوض غماره ، فخرج بين أخيه  
شبية وابنه الوليد حتى فصل من الصف ودعا للمبارزة ، فخرج إليه فتية  
من الأنصار ثلاثة إخوة أشقاء هم : معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء ،  
فقال عتبة :

— من أنتم ؟

— رهط من الأنصار .

— ما لنا بكم من حاجة .

فأمرهم عليه السلام بالرجوع فرجعوا إلى مصافهم وقال لهم خيرا ،

ونادى منادى عتبة وشبية والوليد :

— يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومننا .

فقال النبي ﷺ :

— قوموا يا بني هاشم فقاتلوا بحقكم الذي بعث به نبيكم إذ جاءوا  
ببطلانهم ليطفثوا نور الله .

قم يا عبيدة بن الحرث ، قم يا حمزة ، قم يا علي .  
فلما قاموا ودنوا قالوا لهم :

— من أنتم ؟

كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح ، قال عبيدة :  
— عبيدة بن الحرث .

وقال حمزة :

— أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله .

وقال علي :

— أنا علي بن أبي طالب .

— نعم . أكفاء كرام .

ومشى عبيدة وكان أسن الثلاثة إلى عتبة ، واتجه حمزة إلى شيبة ،  
وبارز علي الوليد ، ومد الجيشان الأبصار وقد حبست الأنفاس ،  
فالجولة الأولى كانت بين أبناء العم سادات عبد شمس وصناديد بني  
هاشم . وغدت الدعوات ترف علي شفاه المهاجرين والأنصار بعد أن  
ابتهلت بها الأفتدة التي عمرت بأنوار اليقين ، فلو قتل عبيدة وحمزة  
وعلي في أول لقاء لكانت فاجعة رسول الله ﷺ فيهم تعز عن العزاء .  
وكان أبو بكر ينظر خافق القلب وقد لفته رهبة ، بينما كان عمر  
يختلس النظرات إلى وجه رسول الله ﷺ وهو يرصد القتال فيستشعر  
ثقل مرور اللحظات ويتمنى من كل وجدانه أن يتصر رجال بني هاشم

ليسعد عليه السلام بنصر المسلمين ونجاة الأحياب .  
وكان في عسكر المشركين رجال يرجون أن يظهر عبيدة وحمزة  
وعلى وإن كانوا على غير دينهم ، فوشائج القربى كانت أقوى مما  
يربط بينهم وبين السماء .

ولم يمهل حمزة أن قتل شية فأشرقت وجوه المسلمين بالأمل  
وبسرت وجوه الكافرين ، وسرعان ما قتل على الوليد فندت من شفاه  
المسلمين صيحات فرح بينا غامت وجوه المشركين بالأسى ،  
واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وقعت  
الضربة في ركة عبيدة فأصاحت رجله وصار مخ ساقه يسيل ، ثم مال  
حمزة وعلى على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فجراه إلى أصحابه  
فأضجعوه إلى جانب موقفه فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه ، فوضع خده  
عليها وقال لرسول الله عليه السلام :

— أأنت شهيدا يا رسول الله ؟

— أشهد أنك شهيد .

وعدل رسول الله ﷺ — صفوف أصحابه بسهم في يده ، فمر  
بسواد بن غزية حليف بنى النجار وهو خارج من الصف ، فطعنه في  
بطنه بالسهم الذي لا نصل له ولا ريش وقال :

— استويا سواد .

— يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقذني من

نفسك .

كان سواد يطلب القصاص من رسول الله عليه السلام ، فلم يغضب  
عليه السلام بل كشف عن بطنه وقال :

— استقد .

فاعتقه سواد وقبل بطنه فقال ﷺ :

— ما حملك علي هذا يا سواد ؟

قال سواد في انفعال :

— حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي

جلدك .

ولما عدل عليه السلام الصفوف قال لهم :

— إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل ، واستبقوا نبلكم

ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم .

إنه نصحهم بأن يدفعوا عنهم أعداءهم بالنبل ثم استبقوا نبلهم ولا

يرموه على بعد ، فالرمى على البعد يخطيء فيضيع النبل بلا فائدة ، ثم

رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره ، وسعد بن

معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع نفر من الأنصار في خوف

على رسول الله ﷺ — كرة العدو ، والركائب مهياًة لرسول الله

عليه السلام إن احتاج إليها ركبها .

ولما اصطف الناس للقتال رمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفيين

وقال :

— لا أفر إلا إن فر هذا الحجر .

وكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب

قتله عامر بن الحضرمي بسهم أرسله إليه ، وأصاب حارثة بن سراقه

سهم غرب وهو يشرب من الحوض ، فإذا برسول الله ﷺ —

يتذكر ما كان بينه وبين حارثة . إنه عليه السلام قال لحارثة يوما وقد

استقبله :

— كيف أصبحت يا حارثة ؟

— أصبحت مؤمنا بالله حقا .

— انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة .

— يا رسول الله ، عزلت نفسي من الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت

نهارى ، فكأنى بعرش ربي بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون

فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتعاورون فيها .

— أبصرت فالزم ، أنت عبد بنر الله الإيمان في قلبه .

— ادع الله لى بالشهادة .

— فدعا له رسول الله — ﷺ — بذلك .

كان رسول الله عليه السلام وأبو بكر الصديق فى العرش ، وطقق

— ﷺ — يناشد ربه ويقول :

— اللهم لا تودع منى ولا تخذلى ، أنشدك ما وعدتني ، اللهم

أنشدك عهدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد .

وما زال يدعو ربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن

منكبه ، وشق على أبى بكر تعب النبى — ﷺ — فى إلحاحه بالدعاء

فأخذ أبو بكر رداؤه عليه السلام وألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه

وقال :

— كفاك تناشد ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

كان الصديق فى مقام الرجاء والنبى — ﷺ — فى مقام الخوف ،

فإذا به يخفق خفقة وهو فى العرش ثم يتبه ويقول :

— أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس

يقوده على ثناياه النقع .  
ثم خرج رسول الله ﷺ — إلى الناس فحرضهم وقال :  
— والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا  
محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .  
فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن :  
— بخ بخ ! أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء !  
ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وانطلق ليحارب حتى يقتل فى  
سبيل الله .  
ورأى المسلمون القتال قد نشب فعجوا بالدعاء إلى الله تعالى ،  
فأنزل الله تعالى عند ذلك : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى  
ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ (١) .

وعدل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صفوف أصحابه  
يسهم في يده ، فمر بسواد بن غزوة حليف بني النجار وهو خارج  
من الصف : فطعنه في بطنه بالسهم الذي لا تصل له ولا ريش  
وقال :

- استويا سواد .

- يارسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل ،  
فأقتدني من نفسك .

كان سواد يطلب القصاص من رسول الله عليه السلام ،  
فلم يغضب عليه السلام بل كشف عن بطنه وقال :

- استقد .

فاعتقه سواد وقبل بطنه فقال - صلى الله عليه وسلم :

- ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال سواد في انفعال :

- حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس

جلدي جلديك .

ولما عدل عليه السلام الصفوف قال لهم :

- إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل ، واستبقوا

نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم .

إنه نصحهم بأن يدفعوا عنهم أعداءهم بالنبل ثم يستبقوا

نبلهم ولا يرموه على بعد ، فالرمي على البعد يخطئ فيضيع النبل

بلا فائدة ، ثم رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه

غيره ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع

( غزوة بدر )

تفر من الأنصار في خوف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
كثرة العدو ، والركائب مهيأة لرسول الله عليه السلام إن احتاج  
إليها ركبها .

ولما اصطف الناس للقتال رمى قطبة بن عامر حجرا بين  
الصفين وقال :

- لا أفر إلا إن فر هذا الحجر .

وكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن  
الخطاب فقتله عامر بن الحضرمي بسهم أرسله إليه ، وأصاب  
حارثة بن سراقه سهم غرب وهو يشرب من الخوض ، فاذا  
برسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتذكر ما كان بينه وبين  
حارثة . إنه عليه السلام قال لحارثة يوما وقد استقبله :

- كيف أصبحت يا حارثة ؟

- أصبحت مؤمنا بالله حقا .

- انظر ما تقول . فان لكل قول حقيقة .

- يا رسول الله : عزلت نفسي من الدنيا فأسهرت ليلي  
وأظلمات نهارى : فكأني بعرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل  
الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاونون فيها .  
- أبصرت فالزم ، أنت صيد بئر الله الإيمان في قلبه .  
- ادع الله لي بالشهادة .

فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذلك .

كان رسول الله عليه السلام وأبو بكر الصديق في العريش ،  
وضئق - صلى الله عليه وسلم - يناشدر به ويقول :

— اللهم لا تودع مني ولا تحذلي ، أنشدك ما وعدتني ،  
اللهم أنشدك عهدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد .  
وما زال يدعو ربه ماذا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه  
عن منكبه ، وشق على أنى بكر تعب النبي — صلى الله عليه وسلم —  
في إلحاحه بالدعاء فأخذ أبو بكر رداؤه عليه السلام وألقاه على  
منكبه ثم التزمه من ورائه وقال :

— كفاك تناشد ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك .  
كان الصديق في مقام الرجاء والنبي — صلى الله عليه وسلم — في  
مقام الخوف ، فاذا به يحقق خفقة وهو في العريش ثم ينتبه ويقول :  
— أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان  
فرس يقوده على ثناباه التقع .

ثم خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الناس فحرضهم وقال :  
— والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل  
صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .

فقال عمر بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن :  
— بخ بخ ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء !  
ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وانطلق ليحارب حتى  
يقتل في سبيل الله .

ورأى المسلمون القتال قد نشب فعجوا بالدعاء إلى الله تعالى ،  
فأنزل الله تعالى عند ذلك : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم  
أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين » . (١)

راح المؤمنون والمشركون يقتتلون ، ونظر سراقه بن مالك إلى المسلمين فاذا به يرى الموت يطل من أسياهم وهم يتلمظون تلمظ الحيات ، فأنخلع قلبه وتذكر يوم أن خرج في أثر الرسول عليه السلام وهو في هجرته إلى المدينة فرارا من قريش وما كان من سقوطه عن ظهر جواده كلما دنا من نبي الله ، فوقع في نفسه أنه يقاتل في سبيل الضلال فنكص على عقبيه ، فقال رجل لسراقه :

— ياسراقه ، أترعم أنك لنا جار !

— إني برى منكم ، إني أرى ما لا تزرون ، إني أخاف الله والله شديد العقاب .

فتشبث به الخثر بن هشام أخو أبي جهل وقال له :

— والله لا أرى إلا خفافيش يثرب .

وإذا بضربة تصوب إلى صدره فيسقط وينفلت سراقه وبعض من معه خارجين من المعركة .

وخشى أبو جهل أن يفت ذلك في عضد المشركين فقال :

— يامعشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقه فانه كان على

ميعاد من محمد ، ولا يهمنكم قتل عقبة وشيبة والوليد فأنهم

قد عجلوا ، واللوات والعزى لا ترجع حتى تقرن محمدا وأصحابه

بالحبال .

لا تقتلوهم ، خفوهم باليد .

وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه :  
- إنكم قد عزقتم أن رجلا من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا  
إكراها لا حاجة لهم بقتالنا . فمن لى العباس بن عبد المطلب  
فلا يقتله . ومن لى أبا البختري فلا يقتله .

كان أبو البختري ممن نهض في تزييق الضخيمة الظالمة ورفع  
الحصار الذي ضربته قريش على بني المطلب وبني هاشم لمناصرتهم  
رسول الله عليه السلام . فلماذا ذكر العباس دون غيره من بني  
هاشم ؟ أكان العباس قد أسلم وكم إسلامه ليكون عينا له على  
قريش . أكان قلم مخبراته عليه السلام ! ؟  
فقال أبو حذيفة :

- أقتل آباؤنا وأبناؤنا وإخواننا وعشيرتنا وبترك العباس ؟  
لئن لقيته لألحمتة السيف .

رأى أبو حذيفة مقتل أبيه عتبة بن ربيعة وعمه شيبة وأخيه  
الوليد فهزته المأساة على الرغم من صدق إيمانه فقال مقالته :  
فلما بلغت رسول الله عليه السلام قال لعمر :

- يا أبا حنص . أياضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟  
كان ذلك أول يوم كناه فيه رسول - الله صلى الله عليه وسلم -  
بأبي حنص . فقال عمر في تأثر وانفعال :  
- يا رسول الله . دعني أضرب عنقه بالسيف فوالله لقد  
نافق .

ولم يدعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يضرب عنق أبي

حذيفة ، فقد بلغ الرسول أربه باعلان أنه لن يرضى عن قاتل  
العباس ، ولو كان العباس كافرا ما اهتم به رسول الله صلى الله عليه  
وسلم الذي بعث بالحق والعدل كل هذا الاهتمام ، ولكنه كان  
عليه السلام يخشى أن يقتل مظلوما وأن يتقدم قلم مخابراته في  
مكة .

ودنا عوف بن الحرث بن عفران من رسول الله عليه السلام  
وقال :

— يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟  
كان عوف يريد أن يرضى ربه غاية الرضا ، فقال له رسول  
الله — صلى الله عليه وسلم :  
— غمه يده في العدو حاسرا .

فزرع درعا كانت عليه فقلدها . ثم أخذ سيفه ليقاتل حتى  
يقتل .

وقاتل معبد بن وهب زوج هريرة بنت زمعة أخت أم  
المؤمنين سودة بنت زمعة بسيفين . ثم أخذ رسول الله — عليه  
صلوات الله وسلامه — جفنة من الحصاء فاستقبل بها قريشا ثم  
قال :

— شامت الوجوه ! اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم .  
وكان على ميمنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أبو بكر . وكان  
علي ميسرته علي بن أبي طالب ، وكان علي ميمنة قريش الحارث  
بن عامر بن نوفل . وعلي ميسرتهم زمعة بن الأسود . وعلي خيل  
المشركين الحارث بن هاشم .

وتصاف المسلمون وتزاحفوا وهم لا يسلون السيوف  
ولكنهم قد انتصوا القسي ، فقد أمرهم رسول الله عليه السلام  
ألا يسلوا السيوف حتى يفتشواهم ، وغدا المسلمون يهتفون -  
بشعارهم : يا منصور أمت .. يا منصور أمت . فإذا بالأرض ترتزل  
تحت أقدام أعدائهم .

ولتى الزبير بن العوام عيلة بن سعيد بن العاص على فرس  
عليه لأمة (١) كاملة لا يرى منه إلا عيناه ، وهو يقول :  
- أنا أبو ذات الكرش .

فقد كانت له صيبة ضفيرة ، وكان لها بطين وكانت في يد  
الزبير عنزة ( شبيه العكاز . أطول من العصا وأقصر من الرمح  
لما زج في أسفلها ) ، فطعن بها في عينه فوق وراح الزبير يطأه  
برجله على خده حتى أخرج العنزة متعقفة (٢) وأخرج حلقته .  
وأقبل عاصم بن أبي عوف السهمي لما جال الناس واختلطوا  
وكانه ذئب وهو يقول :

- يا معشر قريش عليكم بالقواطع مفرق الجماعة الآتي بما  
لا يعرف محمد . لا تجوت إن نجا !

فاعترضه أبو دجانة فاختلعا ضربتين . فضربه أبو دجانة  
فقتله ووقف على سلبه يسلبه ، فمربه عمر بن الخطاب فقال :  
- دع سلبه حتى يجفض العدو وأنا أشهد لك به .

وأقبل معبد بن وهب أحد بني عامر بن لؤي فضرب أبو  
دجانة ضربة برك منها أبو دجانة كما برك الحمل . ثم انتفض

(٢) عليها الدم .

(١) اللرع .

وأقبل على معبد فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئا حتى يقع  
معبد في حضرة أمامه لا يراها ، وتزل أبو دجاجة عليه فذبحه ذبحا  
وأخذ سلبه .

وراح عقبة بن أبي معيط يتقدم ليس له هدف إلا أن يصل  
إلى رسول الله عليه السلام ، فقد بدت العداوة من فمه لما قال  
يوم أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أراك الناقة القصواء هاجرتنا

عما قليل تراني راكب الفرس

أعسل رعى فيكم ثم أتتهله

والسيف يأخذ منكم كل ملتبس

إنه قال ذلك وقد بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو  
يخارب ليحقق ما قاله في شعره ، فغاية أمانه أن يسدد رمحاً إلى  
قلب رسول الله عليه السلام .

ورأت بنو مخزوم مقتل من قتل فقالت :

- أبو الحكم لا يخلص إليه ، فان ابني ربيعة عجلا وبطرا

ولم تخام عنهما عشيرتهما .

فاجتمعت بنو مخزوم فأحدقوا به فجعلوه في مثل الحرجة ،  
وأجمعوا أن يلبسوا لأمة أبي جهل رجلا منهم فألبسوها عبد الله  
ابن المنذر ، فصمد له على فقتله وهو يراه أبا جهل ، ومضى عنه  
وهو يقول :

- أنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة فكر عليه حمزة

وقد لبس ريشة معلمة وهو يراه أبا جهل ، فضربه فقتله وهو يقول :

— خذها وأنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها حرملة بن عمرو فصمد له على عليه السلام فقتله ، ثم أرادوا أن يلبسوها خالداً بن الأعلم فأبى أن يلبسها .

وراح عبد الرحمن بن عوف يخوض في صفوف الكافرين فإذا بغلامين ليس منهما واحد إلا وقد ربطت حمائل سيفه في عنقه لصغره ، فالتفت إليه أحدهما فقال :

— يا عم ، أيهم أبو جهل ؟

— وما تصنع به يا ابن أخي ؟

— بلغني أنه يسب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وآله فحلفت لئن رأيت لأقتله أو لأموتن دونه .

فأشار عبد الرحمن بن عوف إليه وقال :

— من أنتما ؟

— ابنا عنراء .

فخرج يعدو إليه كأنه سبع ولحقه أخوه ، وغلوا يضطربون بالسيوف فإذا بأبي جهل يسقط وهو يخيطن في دمه .

وتقدم عمر بن الخطاب فإذا به أمام خاله العاص بن هاشم ابن المغيرة ، فرفع عمر سيفه وهوى به على خاله فإذا به كأمس الدبابر ، ثم تركه وتقدم يخوض المعركة لإعلاء كلمة الله .

وراح نوفل بن خويلد الأسدي ابن العديوية يصيح بصوت له زجل ، رافعا عقيرته :

- يامعشر قريش ، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفعة .  
وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :  
- اللهم اكفني نوفل بن العديوة .  
ورأى نوفل قتل أصحابه . فأقبل يصيح وهو مرعوب :  
- ما حاجتكم إلى دمائنا ؟ أما ترون من تقتلون ؟ أما لكم  
في اللين من حاجة !  
كان يرمز إلى الفداء ، إلى النوق الحلوب . فأسره جبار بن  
صخر فهو يسوقه أمامه ، فجعل نوفل يقول لجبار ورأى عليا  
عليه السلام مقبلا نحوه :  
- يا أبا الأنصار ، من هذا واللوات والعزى ؟ إنى لأرى  
رجلا ، إنه ليريدنى !  
- هذا على بن أبى طالب .  
- تالله ما رأيت كاليوم رجلا أسرع في قومه !  
فصمد له على عليه السلام فضربه فغشبه سيف على في ترسه  
ساعة ، ثم نزعه فضرب به ساقيه ودرعه مشتمرة فقطعهما ،  
ثم أجهز عليه فقتله .  
وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث عن القتال فالتقى  
مخزوما على عليه السلام ، وقتله على .  
وخرج على في أثر المشركين ، فاذا برجل منهم على كتيب  
وعمل يقاتل سعد بن خيشمة ، فقتل المشرك سعد بن خيشمة والمشرك  
مقنع في الحديد وكان فارسا ، فاقتحم عن فرسه فنادى :  
- هلم يا بن أبى طالب إلى البراز .

فمطف على عليه السلام عليه ؛ فأنحط الرجل إليه مقبلاً  
وكان على رجلاً قصيراً ، فأنحط راجعاً لكي ينزل إليه ؛ كره  
أن يعلوه فقال :

- يابن أبي طالب فررت !

- قريباً مقر ابن الشراء .

فلما استقرت قدما على وثبت ؛ أقبل ابن الشراء فلما دنا  
من على ضربه ؛ فالتقى على الضربة بالدرقة فوق سيف ابن  
الشراء ؛ فضربه على عليه السلام على عاتقه وهو دارع فارتعش ؛  
ولقد قط سيف على درعه فظن على أن سيفه سيقتله . فاذا  
بريق سيف من ورائه فطأطأ على رأسه ويقع السيف فيطن  
بحف رأس ابن الشراء بالبيضة . وإذا بصوت يقول :

- خذها وأنا ابن عبد المطلب .

والتفت على من ورائه فاذا هو حمزة عمه ؛ والمقتول طعيمة  
ابن عدي .

فالتفت على إلى طعيمة وقال :

- والله لا نخاصمنا في الله بعد اليوم أبدا .

وكان فتية من قريش خمسة قد أسلموا فاحتبسهم آباؤهم ؛  
قيس بن الوليد بن المغيرة . وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة .  
والخارث بن زمعة بن الأسود . وعلى بن أمية بن خلف ؛ وللمعاص  
ابن منبه بن الحجاج . فلما قدموا بدرا ورأوا قلة أصحاب النبي  
صلى الله عليه وسلم وآله قالوا :

- غر هؤلاء دينهم .

وقال عبد الرحمن :  
— والله أن لا بد منه . ألا نجمل رجلا إن متنا كفاتنا ما خلقنا من  
عيالنا وإن عشنا حملنا كلنا ؟  
فتزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج فحملاه فكانوا يتعاقبون الجمل .  
وانهزم قياث بن أشيم الكنانى فيمن انهزم وغدا ينظر فإذا المشركون فى  
كل وجه ، فجعل يقول فى نفسه :  
— ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه النساء !  
وصاحبه رجل فيينا هو يسير معه إذ لحقهما من خلفهما ، فقال  
لصاحبه :

— أبك نهوض ؟

— لا والله ما بى .

ولحق بصاحبه المسلمون فقتلوه ، وراح يشتد ويجرى فى الدروب  
ولم يسلك المحاج خوفا من الطلب .  
وأسر من بنى هاشم العباس بن عبد المطلب أسره أبو اليسر كعب  
بن عمرو ، وعقيل بن أبى طالب أسره عبيد بن أوس الظفرى ، ونوفل  
بن الحارث ، ومن بنى عبد شمس عقبه بن أبى معيط ، ومن بنى أمية  
عمرو بن أبى سفيان أسره على بن أبى طالب .  
وأسر خراش بن الصمة أبا العاص بن الربيع . وراح المسلمون  
يضعون أيديهم على من غرهم أبو جهل وزين لهم القتال ليطلقوا نور  
الله .

وألقى الذين ولوا الأدبار دروعهم ليتخفوا منها فراح المسلمون  
يجمعونها ، فيينا عبد الرحمن بن عوف يجمع أدرعا فإذا أمية بن خلف

فقال له :

- إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وآله نهانا عن قتلك .  
وكان مع أبي البخترى زميل له خرج معه من مكة يقال له  
جنادة بن مليحة فقال أبو البخترى :

- وزميلي ؟

- والله ما نحن بتاركى زميلك . ما نهانا رسول الله - صلى  
الله عليه وسلم - إلا عنك وحدك .

- إذا والله لأموتن أنا وهو جميعا ، لا نتحدث عنى نساء  
أهل مكة أتى تركت زميلي حرصا على الحياة .

فنازله المجند روار تجز أبو البخترى فقال :

لن يسلم ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سيئه  
ثم اقتلوا فقتله المجندر .

كان أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم - في جيش قريش . إنه خرج كارها القتال ،  
فلما دفع أبو جهل بقريش دفعا إلى خوض غمار المعركة امتشق  
أبو العاص سيفه وهو يرجو ألا يلقى محمدا عليه السلام ، فإ طالما  
زاره في بيت خاله خديجة قبل أن يتزوج زينب وأتى إليه سمعه  
وأعجب بمنطقه وحسن خلقه . وما أكثر ما اجتمع به بعد زواج  
ابنته وكان له خير أسوة لولا ذلك الدين الذي جاء به ابن  
عبد الله .

وراح على بن أبي طالب يفعل بقريش الأفاعيل ، فما من  
رهط من بيوت شرف قريش إلا وقد قتل منه رئيسا . إنه ترك

حنظلة بن أبي سفيان مجذلاً بسيفه فأوغر عليه صدور الأمويين ،  
وقتل الوليد بن عتبة بن ربيعة فقلب عليه بنو عبد شمس ،  
واشترك مع عمه في القضاء على طعيمة بن عدى ، وترك الحارث  
ابن زمعة بن الأسود كأمس الدابر فأصبح هدف أحقاد بني  
أسد ، وزاد في حقهم أنه ثبي بنوقل بن خويلد بن أسد ، وأضاف  
إلى الأحقاد أحقاد بني تيم لما صرع عمير بن عثمان بن عمرو  
بن كعب بن سعد بن تيم بضربة من حسامه .

وقطع عليه السلام رأس أبي قيس بن الوليد أخى خالد بن  
الوليد فاكتسب عداوة بني المغيرة وبني مخزوم ، وأضاف إليه  
مسعود بن أبي أمية بن المغيرة وحاجز بن السائب المخزومي ،  
فكانت قلوب بني المغيرة وبني مخزوم كلها عليه .

وقتل من بني سهم خيرة رجالهم : جدل منبه بن الحجاج  
ونبيه بن الحجاج والعاص بن منبه بن الحجاج وأبا العاص بن  
قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، فكان عليه السلام فتى بلر  
أطاح برعوس أبناء الشرف في قريش في سبيل الله ، فبذر الغل  
في الصدور وراح يقامى مرارة الأحقاد على مر الأيام وإن جاء  
الإسلام ، حتى آخر الأنفاس !

وكان حمزة أسد الله ورسوله يمشى إلى الكفار وقد أطل  
من سيفه المنون ، فما إن يرى صناديدهم ريشة النعام التي في  
صدره حتى تتخلع قلوبهم ، فقد قتل سيدهم عتبة بن ربيعة  
وفارسهم عقيل بن الأسود بن المطلب وأبا قيس بن الفاكه بن  
المغيرة ، والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن

مخزوم . إن صوته يجلجل بعد كل ضربة : « خذها وأنا ابن  
عبد المطلب » ، فتخلع لها القلوب .  
وارتفعت أصوات المسلمين من كل جانب .  
— يامنصور أمت .

فاذا من بقي على قيد الحياة من المشركين لا يدرون أين  
المقر . وراح حكيم بن حزام يسعى ويقول :  
— قاتل الله ابن الخنظلية ! يزعم أن النهار قد ذهب ، والله  
إن النهار لكما هو .

كان حكيم متلهفا على أن يأتي الليل فيقصر عنه طلب التوم .  
وفيما هو يهرول وقد ولي الأدبار قد أدرك عيب الله وغبد الرحمن  
ابني العوام على جمل لهما ، فقال عبد الرحمن لأخيه :  
— انزل فاحمل أبا خالد .

وكان عيب الله رجلا أعرج لا قوة له على المشي ، فقال  
عيب الله .

— إنه لا رجلة ( قوة ) بي كما ترى .

وقال عبد الرحمن :

— والله أن لا بد منه . ألا نحمل رجلا إن متنا كفانا ما خلفنا

من عيالنا وإن عشنا حملنا كلنا ؟

فنزله عبد الرحمن وأخوه الأعرج فحملاه فكانوا يتعاقبون  
الحمل . وانهمز قباث بن أشيم الكتاني فيمن انهزم وغدا ينظر  
فاذا المشركون في كل وجه ، فجعل يقول في نفسه :  
— ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه النساء !

وصاحبه رجل فينا هو يسير معه إذ لحقا من خلفهما ،  
فقال لصاحبه :

- أبك نهوض ؟

- لا والله ما بي .

ولحق بصاحبه المسلمون فقتلوه ، وراح يشتد ويجرى في  
الدروب ولم يسلك المحاج خوفا من الطلب .

وأسر من بني هاشم العباس بن عبد المطلب أسره أبو اليسر  
كعب بن عمرو ، وعقيل بن أبي طالب أسره عبيد بن أوس  
الظفري ، ونوفل بن الحارث ، ومن بني عبد شمس عقبة بن أبي  
معيط ، ومن بني أمية عمرو بن أبي سفيان أسره علي بن  
أبي طالب .

وأسر خراش بن الصمة أبا العاص بن الربيع . وراح المسلمون  
يضعون أيديهم على من غرهم أبو جهل وزين لهم القتال ليطفثوا  
تور الله .

وآلتي الذين ولوا الأدبار دروعهم ليتخففوا منها فراح  
المسلمون يجمعونها ، فيينا عبد الرحمن بن عوف يجمع أدرعا  
فاذا أمية بن خلف صديقه في الجاهلية يساق كأنه جمل ومعه  
ابنه علي ، فوقعت عينا أمية عليه فنادى :

- يا عبد الإله .

فأجابه عبد الرحمن فقال له أمية :

- أما لكم حاجة في اللين ؟ نحن خير لك من أدرعك هذه ؟

- امضيا .

— الحمد لله الذى أعز الإسلام . الحمد لله الذى أعز الإسلام .  
الحمد لله الذى أعز الإسلام .  
وخر ساجدا شكرا لله .  
وراح على يقول :

— اختلفت أنا والوليد بن عتبة ضربتين فأخطأتني ضربته ، وأضربه  
فاتقانى بيده اليسرى فأبانها السيف فكأننى أنظر إلى وميض خاتم فى  
شماله ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته فرأيت به الردع  
( الزعفران ) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .  
وجاء المجنر إلى رسول الله ﷺ — يعتذر عن قتل أبى البخترى  
بعد أن نهى عليه السلام عن قتله لأنه لبس السلاح يوم أن نقض صحيفة  
قريش الجائزة وقال : « لا يعرض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وضعت  
فيه السلاح ، فجعل يقص على النبى عليه السلام ما كان بينه وبين أبى  
البخترى ثم قال :

— والذى بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فأتيك به فأبى إلا  
القتال ، فقاتلته فقتلته .

وبان الأسى فى وجه رسول الله ﷺ — فقد كان من صفاته  
الوفاء لكل من قدم إليه حسنة وإن كان على غير دينه .  
وغدا رسول الله ﷺ — يتفقد القتلى فوقف على مصرع ابنى  
عفراء فقال :

— يرحم الله ابنى عفراء فإنهما قد شركا فى قتل فرعون هذه الأمة .  
ورأى عليه السلام الحارث بن زمة بن الأسود بن عبد المطلب بن  
أسد ، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وعلى بن أمية بن خلف ، وأبا  
( غزوة بلر )

قيس بن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن منبه بن الحجاج وقد هبرتهم  
أسياف المسلمين وتركتهم كأمس الدابر . إنهم كانوا أسلموا ورسول  
الله ﷺ — بمكة ، فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة حبسهم  
آبائهم وعشائرتهم بمكة وفتنهم فافتتوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر  
فلما رأوا المسلمين قلة قالوا هازئين :

— غر هؤلاء دينهم .

فأنزل الله فيهم : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم  
قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن  
أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا .  
إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا  
يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا  
غفورا » (١) .

وأمر رسول الله ﷺ — بالقتلى أن يطرحوا في القليب ( البئر )  
فطرحوا فيه ، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ في درعه فملاها ،  
فذهبوا ليحركوه ففرق لحمه فأقروه وألقوا عليه ما غيبه من التراب  
والحجارة .

وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، فنظر ﷺ — في وجه  
أبي حذيفة بن عتبة فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال :

— يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أهلك شيء ؟

فقال أبو حذيفة في صوت خافت فيه رنة أسي :

— لا والله يا رسول الله ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزنتنى ذلك .

فدعا له رسول الله — ﷺ — بخير وقال له خيرا .

وجاء رجل من المدينة يسعى ، إنه يحمل أنباء استدخل السرور على قلوب المسلمين ، أنباء انتصار الروم على فارس وقد كانت آيات الله البينات تلوى بين جنبيه دويا فتجعله يود لو أن راحلته تطير ليزف البشرى إلى رسول الله — ﷺ — وكانت كل خوالجه ترتل : « ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » .

وكان الرجل يحسب أن فرح المؤمنين بنصر الله إنما سيكون لغلبة الروم على الفرس وحسب . فما كان يبرى أن المؤمنين قد انتصروا نصرهم الكبير على الكافرين فى بدر وأن الفرح قد ملأ أفئدتهم وأن نبأ انتصار الروم على فارس تحقيقا لوعد الله إنما سيزيد فى استبشارهم ويثبت إيمانهم .

إن كسرى الثانى قد اضطهد أشراف قومه وسامهم سوء العذاب وساعد على تدهور الدين حتى فسدت الأخلاق والعقيدة وعبادات

— لله ولرسوله .

فأقلع بيضته عن قفاه وقال ابن مسعود :  
— إني قاتلك .

— لست بأول عبد قتل سيده ، أما إن أشد ما لقيته اليوم  
لقتلك إياي ، ألا يكون وليّ قتلى رجل من الأحلاف أو من  
المطيّبين !

فضربه عبد الله ضربة وقع رأسه بين يديه ، ثم قفل عائدا  
إلى رسول الله عليه السلام وعنده عقيل بن أبي طالب أسيرا ،  
فقال وهو يتהלّل بالفرح :

— قتلت أبا جهل .

فقال له عقيل :

— كذبت ما قتلته :

فقال ابن مسعود :

— بل أنت الكذاب الآثم ياعدو الله ، قد والله قتلته .

وقال ابن مسعود إنه قطع رقبته ، فبعث عليه السلام رجلا  
يلتمسونه في القتلى وقال :

— إن نخي عليكم انظروا إلى أثر جرح في رقبته ، فاني  
ازدحمت يوما أنا وهو على مائدة لعبد الله بن جدعان ونحن  
غلامان وكنت أسن منه يسرا ، فدفعته فوق علي رقبته فجحش  
على إحديهما جحشا لم يزل أثره به .

فغدوا يطلبونه فوجدوا ذلك الأثر فعادوا إلى رسول الله —

صلى الله عليه وسلم — وقالوا :

- أبشر يا نبي الله بقتل عدو الله أبي جهل .  
فقال - صلى الله عليه وسلم - وقد ترقرقت في عينيه الدموع :  
- الحمد لله الذي أعز الإسلام . الحمد لله الذي أعز الإسلام .  
الحمد لله الذي أعز الإسلام .  
وخر ساجدا شكرا لله .  
وراح على يقول :

- اختلفت أنا والوليد بن عتبة ضربتين فأخطأني ضربته ،  
وأضربه فاتقاني بيده اليسرى فأبانها السيف فكأني أنظر إلى  
وميض خاتم في شأله ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته فرأيت  
به الردع ( الزعفران ) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد  
بعرس .

وجاء المجذر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتذر عن  
قتل أبي البختری بعد أن نبى عليه السلام عن قتله لأنه لبس السلاح  
يوم أن نقض صحيفة قريش الحائرة وقال : « لا يعرض اليوم  
أحد لمحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح ، فجعل يقص على  
النبي عليه السلام ما كان بينه وبين أبي البختری ثم قال :  
- والذي بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فأتيك به  
فأني إلا القتال ، فقاتلته فقتلته .

وبان الأسي في وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد كان  
من صفاته الرفاء لكل من قدم إليه حسنة وإن كان على غير دينه .  
وغدا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتفقد القتلى فوقف  
على مصرع ابني عفراء فقال :

فدع عنك التذكر كل يوم  
ورد حرارة الصدر الكسب  
وخبر بالسدى لا عيب فيه  
بصدق غير أخبار الكذوب  
بما صنع المليك غداة بدر  
لنا فى المشركين من النصيب  
غداة كأن جمعهم حراء<sup>(١)</sup>  
بدت أركانه جنح الغروب  
فلاقيناهم منا بجمع  
كأمد الغاب مرّدان وشيب  
أمام محمد قد وازروه  
على الأعداء فى لفتح الحروب  
بأيديهم صوارم مرهفات  
وكل مخرب خاظي<sup>(٢)</sup> الكعوب<sup>(٣)</sup>  
بنو الأوس الغطارف وازرتها  
بنو النجار فى الدين الصليب<sup>(٤)</sup>

---

(١) حراء : جبل بمكة .

(٢) الخاظي : المكتنز .

(٣) الكعوب : عقد القناة .

(٤) الصليب : الشديد .

فمادرننا أبا جهل صريعا  
وعتيسة قد تركنا بالجسوب  
وشية قد تركنا في رجال  
دوى حسب إذا نبسوا حيب  
يناديهم رسول الله لمبا  
قنغناهم كباكب (١) في القلبيب  
ألم تجلدوا كلامي كان حقا  
وأمر الله يأخذ بالقلوب ؟  
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا :  
صدقت وكبنت ذا رأى مصيب

---

(١) كباكب : جماعات .

٧

نزل رسول الله ﷺ — الأثيل فعرض عليه الأسرى ، فالتق بصره ببصر عمه العباس فإذا بمشاعر رقيقة تكتفه وقد التمعت عيناه سرورا أن أطاعه المسلمون في العباس فلم يقتلوه . وقد اكتفى بأسره أبو اليسر كعب بن عمرو وكان موقفه عليه السلام من العباس يثير كثيرا من التساؤل ، فلماذا أعلن على الملأ الأمان لعمه ؟ ألوشائج القرى التي بينهما ؟ إذا كان ذلك هو السبب فلماذا لم يعلن الأمان لعقيل بن أبي طالب وسادات بني هاشم وبني المطلب ؟ أولو كان أبو لهب في صفوف قريش أكان محمد عليه السلام يؤمن حياته ؟ إن أبا لهب قد بعث عوضا عنه العاص بن هشام بن المغيرة وكان قد قامره في عشر من الإبل فغلبه ثم في عشر قمره ثم في عشر قمره إلى أن خلعه من ماله فلم يبق له شيء ، ثم قامره على أن من غلب يصبح عبدا لصاحبه ، وقد غلب العاص وصار لأبي لهب عبدا . فلما خرج المشركون إلى بدر كان من لم يخرج بخير بدبلا . وكان أبو لهب عليلا فأخرجه وقعد على أنه إن عاد إليه أعتقه ، فقتله على بن أبي طالب . لو كان أبو لهب أسيرا لأمر عليه السلام بضرب عنقه ، فلماذا أحيا العباس ؟ أكان العباس مسلما وقد كتم إسلامه ليكون عينا لرسول الله عليه السلام في مكة ؟ ليكون قلم مخابراته ؟ ! أكنتم عليه السلام سر عمه وتحمل في صبر ما رفرق على بعض الشفاه من إنكار لذلك التحيز الظاهر في سبيل

على الفرس ، وهاهو ذا وعد الله قد تحقق ، ولكن أين أمية بن خلف ليسوق إلى أبي بكر الرهان ؟ إنه غارق في خزيه تحت التراب والحجارة . وأين أبو جهل والمكذبون ؟ إنهم في القليب نهاية كل الطغاة المتعجرفين ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وبقي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة أيام يبلى ، وفي الليل أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة القليب وجعل يقول :

— يا عتبة بن ربيعة ويا شية بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام ، بئس عشيرة النبي كنتم . كذبتُموني وصدقتي الناس ، وأخرجتُموني وآواني الناس ، وقاتلتُموني ونصرتي الناس . هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقا . فقال عمر :

— يا رسول الله كيف تكلم أجسادا قد جيئفوا ؟

— ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .

وسار المؤمنون يحملون الغنائم ويسوقون الأسرى ، وراح حسان بن ثابت شاعر الرسول يقول :

عرفت ديار زينب بالكثيب      كخط الوحي (١) في الورق القشيب  
تداولها الرياح وكل ججون (٢)      من الوسمى (٣) منهمر سكوب

(١) الوحي : الكتابة .

(٢) الججون : الأبيض والأسود .

(٣) الوسمى : مطر الخريف .

كذا وكذا .

— يا مصعب فليجعلني كأحد أصحابي ، إن قتلوا قتلتي وإن منّ عليهم منّ علي .

— إنك كنت تعذب أصحابه .

— أما والله لو أسرتك قريش ما قتلتي أبدا وأنا حي .

قال مصعب :

— والله إنني لأراك صادقا ولكن لست مثلك ، قطع الإسلام

المهود .

وقال عليه السلام :

— اضربوا عنقه .

فقال المقداد :

— أسيري يا رسول الله !

— اللهم أغن المقداد من فضلك ، قم يا علي فاضرب عنقه .

فقام علي فاضرب عنقه ، وإذا بخوف قاتل يذشر الأسرى جميعا ،

وكان سهيل بن عمرو يرتجف من الرأس إلى المقدم فقد رماه سعد بن

أبي وقاص بسهم فقطع نساءه ، فاتبع أثر الدم حتى وجده قد أخذه مالك

ابن الدخشم وهو ممسك بناصيته فقال سعد :

— أسيري رميته .

فقال مالك :

— أسيري أخذته .

فأتيا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فأخذه منهما

جميعا ، وراه عمر فقال لرسول الله ﷺ :

— انزع ثنيتيه يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا .

فقال رسول الله ﷺ :

— لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نيبا ، ولعله يقوم مقاما لا

تكرهه .

كان ذلك قبل أن يسوق المسلمون الأسرى . أما وقد أمر رسول الله عليه السلام بقتل النضر بن الحارث صبيرا ، فلم يعد سهيل بن عمرو يأمن على حياته فراح يتحين الفرص للهرب .

ونظر عليه السلام إلى عقبة بن أبي معيط نظرة ارتجفت لها فرائصه . إن عقبة قد داس على رقة رسول الله وهو ساجد في الحرم حتى كادت عيناه الشريقتان أن تخرجا من محاجرهما ، وقد قال له عليه السلام وقتئذ : لأقتلنك إن التقيت بك خارج مكة . وما هو ذا عليه السلام ينظر إليه وهما في الأثيل نظرة كاد من هولها أن ينهار ، ولكن رسول الله — ﷺ — قد شغل عنه بالنظر إلى أبي العاص بن الربيع زوج ابنته الحبيبة زينب .

مر رسول الله — ﷺ — بالأثيل قبل الغروب فنزل به ، وبات به وبأصحابه جراح ليست بالكثيرة ، فلما انتهى من إلقاء نظرة على الأسرى قال :

— من رجل يحفظنا الليلة ؟

فسكت القوم ، فقام رجل فقال :

— من أنت ؟

— ذكوان بن عبد قيس .

— اجلس .

ثم سكت ساعة وأعاد القول ، فقام رجل فقال عليه السلام :  
— من أنت ؟

— ابن عبد قيس .  
— اجلس .

ثم مكث ساعة وأعاد القول فقام رجل فقال عليه السلام :  
— من أنت ؟  
— أبو سبيع .

فسكت ثم مكث ساعة وقال :  
— قوموا ثلاثكم .

فقام ذكوان بن عبد قيس وحده ، فقال له عليه السلام :  
— وأين صاحبك ؟  
— يا رسول الله أنا الذي كنت أجيبك الليلة .  
— فحفظك الله !

فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة وأمسى القوم والأسارى  
محبوسون فى الوثاق ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له  
أصحابه :

— مالك لا تنام يا رسول الله ؟  
— سمعت أنين العباس (١) من وثاقه .

---

(١) روى عكرمة مولى ابن عباس عن أبي رافع قال : كنت غلاما للعباس بن  
عبد المطلب ، وكان الإسلام قد فشا فبنا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم  
الفضل وزوجه . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتنم إسلامه .

أكرم عليه السلام سر عمه وتحمل في صبر ما رفر ف على بعض  
الشفاه من إنكار لذلك التحيز الظاهر في سبيل نصره قضية الإسلام؟  
إن سر العباس بن عبد المطلب كان في صدرين لائث لها :  
صدر رسول الله عليه السلام ، وصدر عمه الذي خرج معه ليقف  
إلى جواره في بيعة العقبة وليأخذ على الأنصار المواثيق لحماية  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

ورأى عقيل بن أبي طالب أحب أبناء عمه إلى قلب الشيخ  
في الأسر ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وقد أسره جبار بن  
صخر ، فتجاوزهما ثم نظر إلى النضر بن الحارث وقد أسره  
المقداد فاذا في مثل لمح البصر يتذكر رسول الله عليه السلام كل  
ما كان يفعل النضر من هزمه وبآيات الله . فيا طالما قال :  
« قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير  
الأولين (١) » . « إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة  
من السماء (٢) » ، وارتجف النضر واقشعر جلده من نظرتة عليه  
السلام فقال لرجل إلى جنبه :

— محمد والله قاتلي ! لقد نظر إلى بعينين فيهما الموت !

فقال الذي إلى جانبه :

— والله ما هذا منك إلا رعب .

فقال النضر لمصعب بن عمير :

— يا مصعب أنت أقرب من ها هنا بي رحما ، كلم

صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابي ، هو والله قاتلي إن لم تفعل .

قال مصعب :

- إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا وكذا وتقول في نبيه كذا وكذا .

- يا مصعب فليجعلني كأحد أصحابي ، إن قتلوا قتلتي وإن من عليهم من علي .

- إنك كنت تعذب أصحابه .

- أما والله لو أسرتك قريش ما قتلنا أبدا وأنا حي .

قال مصعب :

- والله إني لأراك صادقاً ولكن لست مثلك ، قطع الإسلام العهود .

وقال عليه السلام :

- اضربوا عنقه .

فقال المقداد :

- أسيري يا رسول الله !

- اللهم أغن المقداد من فضلك ، قم يا علي فاضرب عنقه .

فقام على فاضرب عنقه ، وإذا بخوف قاتل يدثر الأسرى

جميعاً ، وكان سهيل بن عمرو يرتجف من الرأس إلى القدم فقد

رماه سعد بن أبي وقاص بسهم فقطع نساءه ، فاتبع أثر الدم

حتى وجده قد أخذه مالك بن الدخشم وهو ممسك بناصيته

فقال سعد :

- أسيري رميته .

فقال مالك :

- أسيري أخذته .

فأثيا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأخذته منهما  
جسيعا ، ورآه عسر فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :  
- انزع ثنيتيه يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا .  
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
- لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيا ، ولعله يقوم  
مقاما لا تكرهه .

كان ذلك قبل أن يسوق المسلمون الأسرى . أما وقد أمر  
رسول الله عليه السلام بقتل النضر بن الحارث صبيرا ، فلم يعد  
سهيل بن عمرو يأمن على حياته فراح يتحين الفرص للهرب .  
ونظر عليه السلام إلى عتبة بن أبي معيط نظرة ارتجفت لها  
فرائضه . إن عتبة قد داس على رقة رسول الله وهو ساجد  
في الحرم حتى كادت عيناه الشريفتان أن تخرجا من  
مخارجهما ، وقد قال له عليه السلام وقتئذ : لأقتلك إن التقيت  
بك خارج مكة . وها هو ذا عليه السلام ينظر إليه وهما في  
الأثيل نظرة كاد من هولها أن ينهار ، ولكن رسول الله - صلى  
الله عليه وسلم - قد شغل عنه بالنظر إلى أبي العاص بن الربيع زوج  
ابنته الحبيبة زينب .

مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالأثيل قبل  
الغروب فنزل به . وبات به وبأصحابه جراح ليست بالكثيرة ،  
فلما انتهى من إلقاء نظرة على الأسرى قال :  
- من رجل يحفظنا الليلة ؟  
فسكت القوم ، فقام رجل فقال :

— من أنت ؟

— ذكوان بن عبد قيس .

— اجلس .

ثم سكت ساعة وأعاد القول ، فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— ابن عبد قيس .

— اجلس .

ثم مكث ساعة وأعاد القول فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

0

— أبو سبيع .

فسكت ثم مكث ساعة وقال :

— قوموا ثلاثكم .

فقام ذكوان بن عبد قيس وحده ، فقال له عليه السلام :

— وأين صاحبك ؟

— يا رسول الله أنا الذي كنت أجيبك الليلة .

— فحفظك الله !

فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة وأمسى القسوم  
والأسارى محبوسون في الوثاق ، وبات رسول الله تلك الليلة  
ساهرا فقال له أصحابه :

— مالك لاتنام يا رسول الله ؟

— سمعت أنين العباس (١) من وثاقه .

---

(١) روى عكرمة مولى ابن عباس عن أبي رافع قال : كنت غلاما للعباس

فقاموا إليه فأطلقوه ، فقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى كان آخر الليل فارتحل ذكوان . وأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالأسرى حتى إذا كان بعرق الطيبة أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح أن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس . فجعل عقبة يقول :

- يا ويلي علام أقتل يامعشر قريش من بين من ها هنا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- لعداوتك لله ولرسوله .

- يا محمد منك أفضل ، فاجعلني كرجل من قومي إن

قتلتهم قتلتي وإن مننت عليهم مننت علي . وإن أخذت منهم

الفداء كنت كأحدهم ، يا محمد من للصبية ؟

- النار ، قدمه يا عاصم فاضرب عنقه .

فقدمه عاصم فاضرب عنقه ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم :

- بش الرجل كنت ، والله ما علمت كافرا بالله وبرسوله

وبكتابه مؤذيا لنيه ، فأحمد الله الذي قتلك وأقر عيني منك .

وكان منادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد نادى :

- من قتل قتيلًا فله سلبه ، ومن أسر أسيرًا فهو له .

وكانت الإبل التي أصابوها يوم بدر مائة وخمسين بعيرا ،

وكان مع قريش آدم كثير حملوه للتجارة وأصاب المسلمون من

---

بن عبد العطلب ، وكان الاسلام قد نشأ فينا أهل البيت فأسلم العباس واسلمت أم الفضل زوجه . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتنم اسلامه .

ورفرت على شفاها الذابلة آخر ما يرفرف على شفاه المؤمنين ،  
راحت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فأحست أم  
كلثوم أن قلبها قد بلغ حنجرتها وأن دموعها التي جرت على خديها إنما  
هي نزيف كبدها ، وإن روحها ستفر منها قبل أن تشهد نهاية رقية .  
واضطربت فاطمة الزهراء من الرأس إلى المقدم وزاغت نظراتها وقد  
اعتصر الحزن قلبها ، وإذا بفاجعتها في أمها الطاهرة وسيدة نساء قريش  
تتجدد ، فهي تحس أن خديجة قد عادت لتموت مرة أخرى مع رقية  
الحبيبة ، فاحتلت صفحة رأسها صورة خديجة وهي مسجاة في فراشها  
جثة هامدة ، وملأت عينيها من أختها الممدودة في فراشها وقد علتها  
صفرة الموت وحشرجت روحها في صدرها . وجعلت فاطمة تتلفت  
دون أن تدرى إلى من تفزع من تلك الآلام الهائلة التي تلهب وجدانها  
بسياطها ، إنها فوق طاقتها وتعجز عن احتمالها ، فغدت تنادى في  
همس :

— أبتاه ! أبتاه !

ومن غير رسول الله عليه السلام يمسح آلام بناته ؟ ولكن رسول الله  
ﷺ — قد خرج في سبيل الله ليعلى كلمة الله ، وقد ترك ابنته  
مريضة فما أقعده مرضها عن الخروج ، فما بعث إلا ليعلم الناس أن  
للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وللدار الآخرة خير ولنعم دار  
المتقين .

ولم يرقأ لأم أيمن دمع وراحت ذكريات أيام مكة تنثال على  
رأسها ، فرأت يوم ولدت رقية كأنما كان ذلك بالأمس القريب . أحقا  
قد مرت الأيام سريعا وحن وقت الفراق ؟ إنها لا تريد أن تصدق أنه

الموت وإن كانت الأنفاس قد اضطربت وشخص البصر والتفت الساق بالساق .

أتكون رقية أول من تلحق بأم المؤمنين من بناتها ؟ واستشعرت أم أيمن كأن روح خديجة ترفرف في المكان فسرت في جسمها قشعريرة ولفها خوف وشرقت بدموعها ثم أجهشت بالبكاء . فإذا بالعيون التي فاضت بالعبرات تلتفت إليها كأنما تسألها أن تكف عن العويل حتى لا تؤذي الحبيبة التي كانت تلفظ آخر الأنفاس .

وجاء أسامة بن زيد إلى أمه عابس الوجه فقد فطن إلى ما يقاسيه الذين التفوا حول فراش رقية من أحزان ، وإذا بدموعه تنهمر فيخفي وجهه في صدر أمه ليكتم في جوفه ما يتردد فيه من عويل وصراخ . وذاقت رقية الموت فارتضى عثمان عليها يبكي ويتسحب ، وصرخت أم كلثوم صرخة مفزوعة مزقت السكون الذي ران طويلا على المكان ، وأطلقت فاطمة صيحات انخلع لها قلوب الجيران فهرعوا يسألون فقيل لهم :

— ماتت رقية بنت رسول الله .

وجاء رجال الأنصار وقد لاح في وجوههم الأسى ، وزاد في حزنهم أن رقية تموت دون أن يراها رسول الله عليه السلام . وخفت النسوة إلى حيث كانت الجثة الطاهرة ليشاركن أم كلثوم وفاطمة الزهراء في المصاب .

وجهزت جثة رقية ثم حملت على الأعناق ، وقد سار خلف النعش عثمان بن عفان وهو واله حزين ومن حوله الرجال محزونين وأسامة بن زيد يجهش بالبكاء . حتى إذا بلغت الجنازة البقيع ، قبرت رقية بنت

رسول الله عليه السلام وقد انهمرت الدموع من عيون الرجال .  
وسوا على رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —  
التراب ، وفيما هم عائدون إذا يزيد بن حارثة قد أقبل على ناقه رسول  
الله — ﷺ — وانطلق إلى المسجد ، فهرعوا إليه يلقون إليه  
أسماعهم .

كان رسول الله — ﷺ — قدّم من الأثيل زيد بن حارثة وعبد الله  
ابن رواحة يشران الناس بالمدينة فجاء يوم الأحد في الضحى ، وفارق  
عبد الله زيدا بالعقيق فجعل عبد الله ينادى عوالي المدينة .  
— يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين  
وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وزمعة بن الأسود  
وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير .  
فقام إليه عاصم بن عدى فقال له :

— أحقا ما تقول يا بن رواحة ؟

— إى والله وغدا يقدم رسول الله إن شاء الله ومعه الأسرى

مقرنين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يشرهم دارا دارا والصبيان يشتدون معه  
ويقولون :

— قتل أبو جهل الفاسق .

حتى انتهوا إلى دور بنى أمية بن زيد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقه النبي — صلى الله عليه وآله وسلم —  
القصواء يشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى صاح على زاحلته : قتل  
عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البختري وزمعة بن

الأسود وأمّية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى  
كثير .

فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ويقولون :  
— ما جاء زيد إلا فلا .

حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا ، فقال رجل من المنافقين لأسامة  
ابن زيد :

— قتل صاحبكم ومن معه .

وقال رجل من المنافقين لأبي لبانة بن عبد المنذر :

— قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا ، وقد قتل عليّة  
أصحابكم وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا  
يسرى ما يقول من الرعب وقد جاء فلا .

فقال أبو لبانة :

— كذب الله قولك .

وقالت يهود :

— ما جاء زيد إلا فلا .

فجاء أسامة بن زيد حتى خلا بأبيه فقال :

— يا أبت ! أحق ما تقول ؟

— إي والله حقا يا بني .

فقويت نفس أسامة فرجع إلى ذلك المنافق فقال :

— أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ؟ لتقدمك إلى رسول

الله — ﷺ — إذا قدم فليضربن عنقك .

— إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه .

٩

وسار رسول الله ﷺ — والذين معه ليدخلوا المدينة ومعهم  
الأسرى ، حتى إذا ما بلغوا تنوكة بين السقيا وملل وسهيل بن عمرو مع  
مالك بن الدخشم الذي أسره ، قال سهيل لمالك :

— خلّ سيلى للغائط .

فقام معه ، فقال سهيل :

— إني أحتشم فاستأخر عني /

فاستأخر عنه فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يده من القران  
ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح فى الناس  
فخرجوا فى طلبه ، وخرج النبی — ﷺ — فى طلبه بنفسه وقال :

— من وجدته فليقتله .

وراحوا يتقبون عنه على ظهور الجياد والإبل ، وانطلق ﷺ فى أثره  
فوجدته أخفى نفسه بين شجرات فتقدم إليه ، فإذا بسهيل لا يتحرك من  
مكانه بل ظل ثابتا وهو مأخوذ ، فقبض عليه ﷺ ثم عاد به فأمر به  
فربطت يده إلى عنقه ثم قرنه إلى راحلته .

وكان أبو العاص بن الربيع مستأسرا مع رهط من الأنصار فكانوا إذا  
تعشوا أو تغدوا آثروه بالخبز وأكلوا التمر ، حتى إن الرجل لتقع فى يده  
الكسرة فيدفعها إليه . وإذا ما ساروا كانوا يحملونه ويمشون ، فجعل  
أبو العاص يفكر فى ذلك الدين الذى جاء به ختنه رسول الله ﷺ ، فهو

يعرف الأوس والخزرج قبل الإسلام فما كانوا على مثل ذلك الخلق  
المتين ، فما لقتهم محمد عليه السلام كان معجزة أتت ثمارها في  
بضعة شهور ، واستمر أبو العاص ينقاد إلى عقله السليم المبرأ عن  
الأهواء فإذا بفؤاده يهوى إلى الدين القيم الذي يدعو إلى مكارم  
الأخلاق .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله — ﷺ — بمكة يزعم  
أنه رسول الله ، فرأى سادات قريش يمشون إليه ويقولون :  
— فارق صاحبك بنت محمد ونحن نزوجك أي امرأة شئت من  
قريش .

— لاها الله ! إذن لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى امرأة من  
قريش .

إنه أبى أن يطلق ابنه محمد وإن كان على غير دينه ، وهو سعيد حتى  
وهو أسير بن يدى ختنه أنه لم يطلقها . فهو يحب زينب ويجل أباه ،  
وإن رسول الله — ﷺ — إذا ذكره يثنى عليه خيرا ، وإن حقيقة ما  
يدعو إليه محمد رسول الله بدأت تتجلى ليصيرته . ولولا خشيته من أن  
يقال إنه ما أسلم إلا خوفا من الأسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن  
لا إله إلا الله .

وتذكر ما كان من أمر عتبة بن أبى لهب فى ذلك الوقت ، فقد مشوا  
إليه فقالوا :

— طلق بنت محمد ونحن ننكحك أي امرأة شئت من قريش .  
— إن أنتم زوجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص أو ابنة سعيد بن  
العاص فارتقها ، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص فقارق رقية أجمل النساء

وجهازت جثة رقية ثم حملت على الأعناق ، وقد سار خلف  
النعش عثمان بن عفان وهو والده حزين ومن حوله الرجال محزونين  
وأسامة بن زيد يجهبش بالبكاء . حتى إذا بلغت الحنازة البقيع ،  
قبرت رقية بنت رسول الله عليه السلام وقد أنهمرت الدموع  
من عيون الرجال .

وسوا على رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —  
التراب ، وفيما هم عائلون إذا بزید بن حارثة قد أقبل على ناقه  
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وانطلق إلى المسجد ، فهرعوا  
إليه يلقون إليه أسماهم .

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قدّم من الأثيل زيد بن  
حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران الناس بالمدينة فجاءا يوم الأحد  
في الضحى ، وفارق عبد الله زيدا بالعقيق فجعل عبد الله ينادى  
عوالي المدينة .

— يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين  
وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وزمعة بن  
الأسود وأمّية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب  
في أسرى كثير .

فقام إليه عاصم بن عدي فقال له :

— أحقا ما تقول يا بن رواحة ؟

— إي والله غدا يقدم رسول الله إن شاء الله ومعه الأسرى مقرنين .

ثم تبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارا دارا والصبيان

يشندون معه ويقولون :

— قتل أبو جهل الفاسق .

حتى انتهوا إلى دور بني أمية بن زيد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — القصواء يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلح صاح على راحلته : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البختري وزمعة بن الأسود وأميرة بن خلف ، وأسر سهيل ابن عمرو ذو الأنبياب في أسرى كثير .

فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ويقولون :

— ما جاء زيد إلا فلا .

حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا ، فقال رجل من المنافقين

لأسامة بن زيد :

— قتل أصحابكم ومن معه .

وقال رجل من المنافقين لأبي لبانة بن عبد المنذر :

— قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا ، وقد

قتل عليه أصحابكم وقتل محمد وهذه ناقته تعرفها ، وهذا

زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب وقد جاء فلا .

فقال أبو لبانة :

— كذب الله قولك :

وقالت يهود :

— ما جاء زيد إلا فلا :

فجاء أسامة بن زيد حتى خلا بأبيه فقال :

— يا أبت ! أحق ما تقول ؟

- إى والله حقا يا بنى .
- فقويت نفس أسامة فرجع إلى ذلك المنافق فقال :
- أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ؟ لتقدمنك إلى
- رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا قدم فليضربن عتقك .
- إنما هو شئ سمعت الناس يقولونه .

وسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذين معه ليدخلوا  
المدينة ومعهم الأسرى ، حتى إذا ما بلغوا تنوكة بين السقيا  
وملئ وسهيل بن عمرو مع مالك بن الدخشم الذي أسره ، قال  
سهيل لمالك :

— نخلٌ سبيلي للغائط .

فقام معه ، فقال سهيل :

— إني أحتشم فاستأخر عني .

فاستأخر عنه فمضى سهيل على وجهه ، انزع يده من القران  
ومضى ، فلما أبطأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح في  
الناس فخرجوا في طلبه ، وخرج النبي - صلى الله عليه وسلم -  
في طلبه بنفسه وقال :

— من وجدته فليقتله .

وراحوا يتقبون عنه على ظهور الحياض والإبل ، وانطلق  
عليه السلام في أثره فوجدته أخفى نفسه بين شجرات فتقدم  
إليه ، فاذا بسهيل لا يتحرك من مكانه بل ظل ثابتا وهو مأخوذ ،  
فقبض عليه عليه السلام ثم عاد به فأمر به فربطت يداه إلى عنقه  
ثم قرنه إلى راحلته .

وكان أبو العاص بن الربيع مستأسرا مع رهط من الأنصار

فكانوا إذا تعشوا أو تغدوا آثروه بالخبز وأكلوا التمر ، حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليه . وإذا ما ساروا كانوا يحملونه ويمشون ، فجعل أبو العاص يفكر في ذلك الدين الذي جاء به ختته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو يعرف الأوس والخزرج قبل الإسلام فما كانوا على مثل ذلك الخلق المتين ، فما لقنهم محمد عليه السلام كان معجزة أنت ثمارها في بضعة شهر ، واستمر أبو العاص يتقاد إلى عقله السليم المبرأ عن الأهواء فاذا بفؤاده يهوى إلى الدين القيم الذي يدعو إلى مكارم الأخلاق .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة يزعم أنه رسول الله ، فرأى سادات قريش يمشون إليه ويقولون :

... فارق صاحبك بنت محمد ونحن نزوجك أي امرأة شئت

من قريش .

... لاها الله ! إذن لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى امرأة

من قريش .

إنه أبى أن يطلق ابنة محمد وإن كان على غير دينه ، وهو سعيد حتى وهو أسير بن يدي ختته أنه لم يطلقها . فهو يحب زينب ويحب أباه ، وإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ذكره يثنى عليه خيرا ، وإن حقيقة ما يدعو إليه محمد رسول الله بدأت تتجلى لبصيرته . ولولا خشيته من أن يقال إنه ما أسلم إلا خوفا من الأسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن لا إله إلا الله .

وتذكر ما كان من أمر عتبة بن أبي لهب في ذلك الوقت ،  
فقد مشوا إليه فقالوا :

— طلق بنت محمد ونحن ننكحك أي امرأة شئت من قريش .  
— إن أنتم زوجتموني ابنة أبان بن سعيد بن العاص أو ابنة  
سعيد بن العاص فارقتها ، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص ففارق  
رقية أجمل النساء خلقا ومخلقا ، ولم يقف في عداوته عند هذا  
بل تطوع ليصق في وجه ختنه ، وكانت ثمرة ذلك البغي أن أكل  
السبع ذلك السفية ابن حمالة الحطب .

وقفز به خياله إلى مكة إلى حيث غادر زينب ليحارب أباهما  
مع سفهاء قومه ، إنه وهو في غمرة حماسه لم يفكر في مشاعر  
زوجته ، أما الآن وهو أسير منطلق مع الأسرى إلى مدينة الرسول  
فهو يحس حقيقة عواطفها ، إنها ممزقة بينه وبين أبيها قد استولى  
عليها خوف قاتل أن تفجع في أحدهما ، فهو على ثقة من أنها  
تجبه ، ولا شك في عظم حبها لأبيها ، وعمما قليل سيفد الناعى  
إلى مكة لينعى ساداتها وستلقف زوجها الأنباء في قلق ولحفة ،  
لاتدرى أتفرح أم تحزن !

لك الله يا زينب ، ليت أحدا يحمل إليك أن أبا العاص بن  
الربيع زوجك الحبيب بين يدي أب رقيق ورسول كريم ليسكن  
قلق نفسك وينقشع خوف قلبك وينزل بك أمن وسكينة إلى حين .  
ولق الناس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالروحاء  
يهتونه بفتح الله عليه . فلقبه وجوه الخزرج ، فقال سلمة بن  
سلامة بن وقش :

— ما الذى تهشونه ؟ فوالله ما قتلنا إلا عجائز صلعا !  
فتبسم النبي — صلى الله عليه وآله — فقال :  
— يا بن أخى أولئك الملائكة ، لو رأيتهم لهبتهم ولو أمروك  
لأطعتهم ، ولو رأيت فعالك مع فعالم لا احتقرتها ! وبئس القوم  
كانوا على ذلك لنبيهم !  
فقال سلمة :

— أعود بالله من غضبه وغضبه رسوله ، إنك يا رسول الله  
لم تزل عني معرضا فقد كنا بالروحاء في بدأتنا .  
فقال — صلى الله عليه وسلم :

— أما ما قلت للأعرابي : وقعت على ناقتك فهي حبل منك  
ففحشت وقلت ما لا علم لك به . وأما ما قلت في القوم فانك عمدت  
إلى نعمة من نعم الله تردها .

فاعتذر سلمة فقبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم —  
معدرته ، ليصبح سلمة من عليّة أصحابه .

وتلى رسول الله عليه السلام أسيد بن خضير فقال :  
— يا رسول الله الحمد لله الذى ظفرك وأقر عينك . والله  
يا رسول الله ما كان تخافى عن بدر وأنا أظن بك أنك تلقى عدوا  
ولكنى ظننت أنها العير ، ولو ظننت أنه عدو لما تخافت .  
— صدقت .

وراح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتقدم على ناقته  
القصواء وقد ربطت يدا سهيل بن عمرو إلى عنقه وقرن إلى  
الناقة ، وكان سهيل أعلم مشقوق الشفة العليا فكانت أنيابه بادية

فلذلك قالوا : ذو الأنياب . ورأى أسامة بن زيد رسول الله عليه السلام فهرع إليه وهو فرحان قد نسي ما أحس من ألم لموت رقية ، ولقيه رسول الله وهو متهلل الأسارير فأجلسه بين يديه .

ونظر الناس إلى سهيل بن عمرو وقالوا :

— يا رسول الله أبو يزيد !

— نعم ، هذا الذي كان يطعم الخبز بمكة .

وجعل أسامة ينظر إلى سهيل ثم قال :

— يا رسول الله هذا الذي كان يطعم الثريد بمكة .

— هذا أبو يزيد الذي يطعم الطعام ، ولكنه سعى في إطفاء

نور الله فأمكن الله منه .

وراح مالك بن النخشم الذي أسره يقول :

أسرت سهيلا فلا أبتغي

به غيره من جميع الأمم

ونخندف تعلم أن الفتى

سهيلا فتاها إذا تظلم

ضربت بذي الشفر (١) حتى انثى

وأكرهت نفسي على ذى العلم

وبين الوجوه المستبشرة بنصر الله تقدم وجه باسر لا يستطيع

أن يخفى آلام نفسه وإن جاهد ليطوى أحزانه بين ضلوعه حتى

ينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصر الله . إنه عثمان بن

عقان صاحب الفجيعتين : فجيعته في رقية الزوجة الوفية وفجيعته

(١) ذو الشفر : كناية عن السيف

في نسبه من رسول الله عليه السلام ، إنه يحاول أن يبعد عينيه المحمرتين من أثر البكاء عن عيني رسول الله عليه السلام ، ولكن محمدا عليه السلام قرأ في وجهه الحميل قصة المأساة . فظن في لمحة أن رقية الحبيبة قد مضت ولن تذوق الموت بعدها أبدا ، فخفق قلبه حزنا وفاضت رفته فاذا بالدموع تظفر من عينيه ، وإذا به يفتح ذراعيه ليضم عثمان إلى صدره ، وإذا بقلبي الرجلين يزان حزنا وأسى على الغالية .

ونظر أبو بكر وعمر وعلي والرجال العائدون من المعركة مزهوين بالنصر إلى نبيهم . الكريم وقد تحركت إنسانيته لوفاة ابنته فبللت العبرات أرواحهم قبل أن تترقرق في مآقيهم ، وزاد في أساهم إشفاقهم على رسول الله عليه السلام فقد كانوا يعلمون مقدار إرهاب حسه ورقة مشاعره .

وسار عليه السلام مطأطئي الرأس إلى الدار يحس ألم الشكل ، فلما دخل على أم كلثوم وفاطمة الزهراء ألقى نسوة من الأنصار عندهما ، فما إن وقعت عينا فاطمة على أبيها حتى انخرطت في البكاء فمشى إليها والحزن يعتصره وغدا بمسح دموعها بنظرف ثوبه ، وأجهشت أم كلثوم بالعويل ، ولم يستطع عثمان أن يكبح جماح عواطفه فراح يسح الدموع في صمت ويحاول أن ينأى بوجهه عن رسول الله عليه السلام .

وأحس النسوة بالدموع تجري إلى العيون فانسجن من الغرفة وأجهشن بالبكاء ، فلما صك العويل أذنى عمر بن الخطاب أشفق على حبيبه رسول الله عليه السلام فراح يزجرهن في عنف ،

فخرج الأب التاكل إليه وقال :

— مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما  
يكن من اليد واللسان فمن الشيطان .

وخرج رسول الله عليه السلام إلى البقيع ومن حوله أصحابه  
الذين شاركوه فرحة النصر ليشاركوه أحزان الفراق : ووقف  
حليف الأحزان على قبر ابنته مطرق الرأس يدعو لها بالغفران .

إنه يحس بالألم من أعماق وجرده وهو يستشعر في نفس  
الوقت بقدرة الله . إنه مهما انتصر فهذه هي نهاية الحياة الدنيا  
فلا ينبغي أن يدبر أي نصر دنيوي رأس رسول الله عليه السلام .  
إنه بعث رحمة للعالمين فكتب عليه أن يذوق ألم الأحزان ليتدفق  
قلبه بالحنان على البشر ، فما من نصر أحرزه إلا قد قرن بالألم ،  
فطريق الرسالة ليس بالطريق الذي تحفه الورود والرياحين ،  
وإنما هو طريق شائك وعر تكتنفه المشاق والآلام والأحزان .  
وما أكثر الآلام والأحزان في حياة رسول الله — صلى الله  
عليه وسلم :

كانت سودة بنت زمعة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم -  
 عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ اللذين كانا أول  
 من أصابا أبا جهل ، وكانت أم سلمة هند بنت أبي أمية بن  
 المغيرة زاد الركب هناك ، وكانت زوجة عبد الله بن عبد  
 الأسد المخزومي ابن عمه الرسول عليه السلام : برة بنت  
 عبد المطلب . وبيننا النساء في المناحة جاء من قال :  
 - هؤلاء الأسرى قد أتى بهم :

فخرجت سودة بنت زمعة إلى بيتها ورسول الله عليه السلام  
 فيه ، وإذا سهيل بن عمرو مجموعة يدها إلى عنقه في ناحية  
 البيت ، فما ملكت نفسها حين رآته مجموعة يدها إلى عنقه أن  
 قالت :

- أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ! ألا تم كراما ؟  
 فما راعها إلا قول رسول الله - صلى الله عليه وآله  
 وسلم - من البيت :

- ياسودة ، أعلى الله وعلى رسوله ؟  
 - يا نبي الله والذي بعثك بالحق إني ما ملكت نفسي حين  
 رأيت أبا يزيد مجموعة يدها إلى عنقه أن قلت ما قلت ؟  
 ودخل خالد بن هشام بن المغيرة وأميه بن أبي حذيفة منزل  
 أم سلمة وأم سلمة في المناحة ، فلما قيل : « أتى بالأسرى »

خرجت فدخلت عليهم فلم تكلمهم فهم أسرى رسول الله عليه السلام ، وجعلوا يتحدثون إليها وهي صامته ، ثم رأيت أن تخرج تستشير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم ، فانطلقت حتى وجدته في بيت عائشة فقالت :

- يا رسول الله إن بني عمي طلبوا أن يدخل بهم علي فأضيفهم وأدهن رءوسهم وألم من شعثهم ، ولم أحب أن أفعل شيئاً من ذلك حتى أستأمرك .

- لست أكره شيئاً من ذلك ، فاقبلي من هذا ما بدا لك .  
وجاء زوجها أبو سلمة المخزومي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يستغفر الله من كلامه في أبي جهل . فلقنه كان عند النبي - صلى الله عليه وسلم - ساعة أن جاءه عبد الله بن مسعود يقول إنه قتل أبا جهل ، فقد وجد أبو سلمة في نفسه فهو مخزومي وأبو جهل سيد بني مخزوم وأقبل علي ابن مسعود يقول :

- أنت قتله ؟

- نعم ، الله قتله !

- أنت ولّيت قتله ؟

- نعم .

- لو شاء لجعلك في كعبه !

- فقد والله قتله وجرده .

- فما علامته ؟

- شامة سوداء يعظن فخذه اليماني .

فعرف أبو سلمة النعت فيقال :

- أجردته ولم يجرد قرشي غيره !

- إنه والله لم يكن في قريش ولا في حلفائها أحد أعدي لله  
ولا لرسوله منه ، وما أعتذر من شيء صنعت به .  
إن أبا سلمة يحسب وهو بين يدي رسول الله أنه وجد في  
نفسه لكافر ناصب رسول الله عليه السلام العدا ، فقدم على  
ما كان منه فقال :

- اللهم إني قد أنجزت ما وعدتني فتمم على نعمتك .

وشرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفكر في المعركة  
فاذا به يرى عمه حمزة وهو معلم بريشة نعام في صدره يصول  
ويجول في صفوف قريش ويفعل بهم الأفاعيل ، وابن عمه  
وريبه وحبيه علي بن أبي طالب يتقض على أعداء الله انقضا  
الليوث : لقد كان حمزة قبل بدر أسد الله وأسد رسوله وكانت  
قريش ترتجف منه فرقا . أما بعد بدر فقد اشتهر أمر علي بعد  
أن أطاح برعوس سادات بيوت الشرف في قريش . لقد بدر علي  
بشجاعته بنور الحقد في نفوس القرشيين وباتت بينه وبين  
أشراف مكة ثارات لن يقوى الدين على إخماد نارها أو نزع أنيابها .  
ورأى حارثة بن سراقة عند الحوض وقد أصابه سهم غرب  
( لا يلوي راميه ) . ورأى نفسه عليه السلام وهو قادم إلى المدينة  
بعد أن أيده الله بنصره . فجاءت أم حارثة إليه فقالت :

- يا رسول الله قد عرفت موضع حارثة في قلبي فأردت  
أن أيكى عليه ، ثم قلت : لا أفعل حتى أسأل رسول الله - صلى

الله عليه وسلم - عنه ، فان كان في الجنة لم أبك ، وإن كان  
في النار بكيت فاعولته !

- هبلت : أجنة واحدة ! إنها جنان كثيرة . والذي نفسى  
بيده إنه لبي الفردوس الأعلى .  
- فلا أبكى عليه أبدا .

وحسن الأسرى وجعل عليهم شقران مولى رسول الله - صلى  
الله عليه وسلم ، فظمعوها في الحياة فقالوا :

- لو بعثنا إلى أبي بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا .

فبعثوا إلى أبي بكر فأتاهم فقالوا :

- يا أبا بكر إن فينا الآباء والأبناء والإخوان والعمومة

وبنى العم وأبعدنا قريب : كلم صاحبك فليمن علينا ويفادنا .

- نعم إن شاء الله ، لا آلوكم خيرا .

ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قالوا :

- وابعثوا إلى عمر بن الخطاب فانه من قد علمتم ولا يؤمن

أن يفسد عليكم لعله يكف عنكم !

فأرسلوا إليه فجاءهم ، فقالوا له مثل ما قالوا لأبي بكر

فقال :

- لا آلوكم شرا .

ثم انصرف إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فوجد أبا بكر

عنده والناس حوله وأبو بكر يبيته ويغشاه ويقول :

- يا رسول الله بأبي أنت وأمي ، وقومك فيهم الآباء والأبناء

والعمومة والإخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب ، فامتن عليهم  
من الله عليك أو فادهم قوة للمسلمين فلعل الله يقبل بقلوبهم إليك .  
ثم قام فتنحى ناحية ، وسكت رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - فلم يجبه ، فجاء عمر فجلس مجلس أبي بكر فقال :  
- يا رسول الله هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك وأخرجوك .  
اضرب رقابهم فهم رعوس الكفر وأئمة الضلال يوطئ الله بهم  
الإسلام ويذل بهم الشرك .

يا رسول الله أطعني فيما أشير به عليك فإني لا آلوك نصحا ،  
قدم عمك العباس فاضرب عنقه بيديك ، وقدم عقيلًا إلى أخيه  
يضرب عنقه ، وقدم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله .  
فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يجبه . وعاد  
أبو بكر إلى مقعده الأول فقال :

- يا أي أنت وأي ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة  
والإخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب ! فامتن عليهم أو فادهم ،  
هم عشيرتك وقومك لا تكن أول من يستأصلهم وأن يهديهم الله  
خير من أن يهلكهم .

فسكت رسول الله عته فلم يرد عليه شيئًا وقام ناحية ، فقام  
عمر فجلس مجلسه فقال :

- يا رسول الله ما تنتظر بهم ! اضرب أعناقهم يوطئ الله  
بهم الإسلام ويذل أهل الشرك . هم أعداء الله كذبوك وأخرجوك .  
يا رسول الله اشف صدور المؤمنين ، لو قدروا منا على مثل هذا  
ما أقالونا أبدا .

وقام سعد بن معاذ يقول :

— أكل ولا تأخذ الفداء .

ثم قام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدخل داره فمكث فيها ساعة ، ثم خرج والناس يخوضون في شائهم يقول بعضهم :

— القول ما قال أبو بكر .

وآخرون يقولون :

— القول ما قال عمر :

فلما خرج عليه السلام قال للناس :

— ما تقولون في صاحبكم هذين ؟ دعوهما فان لهما مثلا ،

مثل أبي بكر في الملائكة كمثل ميكائيل ينزل برضا الله وعضوه على عباده ، ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألين على قومه

من العسل ، أو قد له قومه النار فطرحوه فيها فما زاد على أن قال :

« أف لكم ولما تعبسون من دون الله أفلا تعقلون (١) » وقال :

« فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم (٢) » ،

وكعيسى إذ يقول : « إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك

أنت العزيز الحكيم (٣) » .

ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله

والنقمة على أعداء الله ، ومثله في الأنبياء كمثل نوح كان أشد

على قومه من الحجارة ، إذ يقول : « رب لا تذر على الأرض

من الكافرين ديارا (٤) » . فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض

جميعا ، ومثل موسى إذ يقول : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد

(١) الأنبياء ٦٧ (٢) إبراهيم ٣٦ (٣) المائدة ١١٨ (٤) نوح ٢٦

على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (١) . وإن بكم عيلة ، فلا يفوتكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق . وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حيث حبس الأسرى فالتى نظرة عليهم ثم قال :

— لو كان مطعم بن عدى حيا لو هببت له هؤلاء الذنبتى (٢) . إنه عليه السلام لا ينسى أن قومه أخرجوه وقد خيروهم بين القتل والخروج ، فخرج إلى الطائف وتلقى من ثقيف أذى كبيرا فساد هو وزيد بن حارثة إلى غار حراء ، وبعث إلى أشراف مكة لينخلوه في جوارهم فأبوا جميعا إلا مطعم بن عدى فقد أجاره وبسط حمايته عليه ومنع عنه أذى قريش وإن لم يدخل في دينه . إنه عليه السلام لا ينسى هذه اليد وإنه في هذه اللحظة التي علك فيها رقاب من أبوا أن يجروه يتذكر فضل المطعم ويقول لو كان حيا لحازاه بأن يهب له أسارى بدر ، خلق عظيم لا ينسى في لحظات النصر أصحاب الفضل .

وسار رسول الله عليه السلام إلى عمه العباس وقال له :

— أفد نفسك يا عباس وابني أخويك عقيل بن أبي طالب ونوفل ابن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عقبة بن عمرو فإنه ثومال . فقال العباس :

— يا رسول الله إني كنت مسلما ولكن القوم استكروهني . إن العباس ليقر بإسلامه ولكن ذلك سيفسد أهمية دوره في

(٢) بونس ٨٨

(١) يعني أسارى بدر وواحد منهم نثن ، وسامع نثنى لكفرهم .

بقائه بمكة ، أن يظل رئيس قلم مخابرات المسلمين ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

- الله أعلم بإسلامك إن يكن ما قلت حقا فان الله يجزيك به ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافتد نفسك .

وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ منه عشرين أوقية من ذهب أصابها معه حين أسر ، فقال العباس :

- يا رسول الله احبسها لي في فدائي .

- ذاك شيء أعطانا الله منك .

ووقف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أبي عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي وكان شاعرا ، فقال له أبو عزة :

- إن لي خمس بنات ليس لمن شيء ، فتصدق بي عليهن يا محمد أعطيك موثقا ألا أقاتلك ولا أكره عليك أبدا .

فأرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فانطلق أبو عزة إلى مكة مسرورا وهو لا يصدق أنه قد نجا من الأسر دون فداء ! ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا وداعة السهمي أسيرا فقال لأصحابه :

- إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا ذا مال ، وكانكم به قد جاء في طلب فداء أبيه .

وأنزل الله على رسوله : « ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (١) » .

كانت قريش قد أرسلت الفرات بن حيان العجلي حين  
فصلت من مكة إلى أبي سفيان بن حرب بخبره بمسيرها وفصولها  
وما قد حدثت ، فخالف أبا سفيان في الطريق ، وذلك أن  
أبا سفيان لصق بالبحر ولزم الفرات بن حيان المحجة فوائى  
المشركين بالبحظة ، فسمع كلام أبي جهل وهو يقول :

— لا نرجع .

فقال :

— ما بأنفسهم عن نفسه رغبة ! وإن الذى يرجع بعد أن  
رأى ثأره من كذب لضعيف ؛  
فمضى مع قريش فترك أبا سفيان ، وجرح يوم بدر جراحات  
كثيرة وهرب على قدميه وهو يقول :

— ما رأيت كالיום أمرا أنكد ! إن ابن الحنظلية لغير مبارك  
الأمر .

وخرج بنو عدى من النضير حتى كانوا بثنية لقت ، فلما  
كان في السحر عدلوا في الساحل متصرفين إلى قلة ، فصادفهم  
أبو سفيان فقال :

— كيف رجعتم يا بنى عدى ! ولا في العير ولا النضير !  
— أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع فرجع من رجوع ومضى

من مضى .

وقال الأخنيس بن شريق وكان حليفاً لبنى زهرة لما أرسل  
أبو سفيان أن ترجع :

- يا بني زهرة قد نبى الله غيركم وخلص أموالكم ونجى  
صاحبكم عزيمة بن نوفل ، وإنما خرجتم لتمنوه ماله ، وإنما محمد  
رجل منكم ابن أختكم ، فإن يك نبياً فأنتم أسعد به ، وإن يك  
كاذباً بلى قتله غيركم خير من أن تلوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا  
واجعلوا خبيثها لى ، فلا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير ما يهكم  
ودعوا ما يقوله هذا الرجل - يعنى أبا جهل - فإنه مهلك قومه ،  
سريع فى فسادهم .

فأطاعته بنو زهرة وكان فيهم مطاعا ، وكانوا يتيمنون به  
فقالوا :

- فكيف نضع بالرجوع حتى نرجع ؟

- نسير مع القوم فإذا أمسيت سقطت عن بعيرى فيقولون  
نحل الأخنس . فإذا أصبحوا فقالوا سيروا فقولوا لا تفارق صاحبنا  
حتى نعلم أحمى هو أم ميت فتلفته ، فإذا مضوا رجعتنا إلى مكة .  
ورجع بنو زهرة وساز الآخرون إلى مصارعهم أو ليقعوا  
أسرى فى أيدي المسلمين أو ليولوا الأدبار فزعين ، وقد هام  
قباث بن أشيم الكنانى على وجهه فلم يسلك المحاج خوفاً من  
الطلب حتى لقيه رجل من قومه فقال :

- ما وراءك ؟

فقال قباث :

- لا شئ ، قتلنا وأسرتنا وانهمزنا ، فهل عندك من حملان ؟

فتخمله على بعير وزوده زادا حتى لقي الطريق بالبحفة ، ثم مضى وهو ينظر إلى الحيسمان بن حابس الخزاعي فعرف أنه يقدم ينحى قريشا بحكة ، فلو أراد أن يسبقه لسبقه ، فتكذب عنه حتى يسبقه ببعض النهار فقد كان يكره أن يحمل إلى قريش أنباء قتلها .

وراح حكيم بن حزام يعدو على ظهر الحمل وعبيد الله وعبد الرحمن ابنا العوام يعدوان خلفه وهو يخشى طلب القوم ، حتى إذا كان ببحر الظهر ان تله كبر بما كان من قريش في خروجها وما قال أبو جهل من افتراء فقال :

— والله لقد رأيت ها هنا أمرا ما كان يخرج على مثله أحد له رأى ، ولكنه شوم ابن الحنظلية .

ما كانت قريش لتنتصر يوم بدر فقد دب فيها التخاذل وكرهية الحرب وحب الرجوع وخوف اللقاء وخفوق المسم وفتور العزائم ورجوع بنى زهرة وبنى عدى من الطريق واختلاف آرائهم في القتال ، فقد مشت إليهم الهزيمة قبل أن يلقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحبه الأبرار ، وحق عليهم الانكسار لو كانوا قد لقوا قوما جبناء ، فكيف وإنما لقوا رسول الله عليه السلام المؤيد من السماء والأوس والخزرج وهم أشجع العرب ، وحمزة أسد الله وعلى بن أبي طالب ربيب رسول الله ، وجماعة من المهاجرين أمجاد ، صفوة قال الله فيهم : يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بائتهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا

ماتين ، وإن يسكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين (١) .

وقدم الحسيبان الخزاعي فانطلق كالعاصفة إلى الحرم فاذا يصفوان بن أمية وسادات قريش في الحجر ، فقام الحسيبان فقال :  
- قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وقتل ابنا الحجاج وأبو البختري  
وزمعة بن الأسود .

فقال صفوان بن أمية بن خلف :

- لا يعقل هذا شيئاً مما يتكلم به ! سلوه عنى .

فقالوا له :

- صفوان بن أمية لك به علم ؟

- نعم هو ذاك في الحجر ، ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولين ،  
ورأيت سهيل بن عمرو والنضر بن الحارث أسيرين ، رأيتهما  
مقرونين في الجبال .

وقدم قباث بن أشيم وقد انتهى إلى مكة خبر قتلاهم وهم  
يلعنون الخزاعي ويقولون :  
- ما جاءنا بخير .

ونزلت أنباء بدر على الكافرين نزول الصاعقة . وتهللت  
بالفرح ونجوه المسلمين . وكان ممن سرهم ما جاءهم من الخبر  
أم الفضل وأبا رافع غلام العباس وكان رجلاً ضعيفاً وكان يعمل  
القداح ينحتها في حجرة زمزم وعنده أم الفضل جالسة : فأقبل  
أبو نهب يجر رجله بشر حتى جلس إلى طرف الحجرة ، فكان

ظهره إلى ظهر أبي رافع . فبينما هو جالس إذ قال للناس :

- هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم .

كان أبو سفيان بن الحارث أكثر بني هاشم شبهاً بابن عمه رسول الله عليه السلام ، وكان أبو سفيان شاعر بني هاشم وقد هجا ابن عمه ولم يكتب بذلك بل خرج مع قريش إلى بدر ليقاتل رقيق الصبا والشباب وقرين الروح وشرف عدنان ، فلما انهزمت قريش وتلى الأدبار وانقلب إلى أهله يحمل العار .

وقال أبو لهب لأبي سفيان بن الحارث :

- هلم يا ابن أخي فعندك والله الخبر .

فجلس إليه والناس قيام حوله فقال :

- يا ابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟

- لا شيء . والله إن هو إلا أن لقيناهم فمئناهم أكتافنا

فقتلونا كيف شاءوا وأسرونا كيف شاءوا . وإيم الله مع ذلك ما لمت الناس . لقينا رجالاً بيضا على خيل بلسق بين السماء والأرض لا والله ما تبقى شيئاً ولا يقوم لها شيء .

فقال أبو رافع في فرح :

- تلك والله الملائكة .

فرفع أبو لهب يده فضرب به الأرض ثم برك عليه بضربه ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربت على رأسه فشجته شجة منكرة وقالت :

- استضعفته إذ غاب سيده .

فقام موليا ذليلا .

ورجعت قريش إلى مكة فهم\* للرجال والنساء يبكاء قتلاهم  
فقام فيهم أبو سفيان بن حرب فقال :

— يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة  
ولا يندبهم شاعر وأظهروا الخلد والعزاء ، فانكم إذا نحت عليهم  
ويكتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فاكلكم ذلك من عداوة  
محمد وأصحابه ، مع أن محمدا إن بلغه وأصحابه ذلك شمتوا  
بكم فتكون أعظم المصيبتين ، ولعلكم تتركون تأركم فالدهن  
والنساء على حرام حتى أغزو محمدا

ومثت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة فقنن :

— ألا تبكين على أهلك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟

فقال والنار تشوى كبدها :

— خلاني ( منعى ) أن أبكيهم فيبلغ محمدا وأصحابه  
فيشمتوا بنا وبنساء بني الخزرج ، لا والله حتى أتار محمدا وأصحابه ،  
والدهن على حرام إن دخل رأسي حتى تغزو محمدا والله لو أعلم  
أن الحزن يذهب عن قلبي لبكيت ، ولكن لا يذهب إلا أن أرى  
تأري بعيني من قتلة الأجرة .

وانقضت سبع ليال على ضرب أم الفضل أبا لبب بعمود على  
رأسه فرماه الله بالعدسة وهي قرحة قاتلة كالطاعون فقتله . ولقد  
تركه ابناه ليلتين أو ثلاثا وما يدفنانه حتى أتت في بيته ، فقد كانت  
قريش تتقى العدسة وعدواها كما يتقن الناس الطاعون حتى قال لها  
رجل من قريش :

- وبحكما ! ألا تستحيان أن أبكما قد أتبن في بيته  
لا تغيبانه !

- إنا نخشى هذه القرحة .

- فانطلقا وأنا معكما .

فما غسلوه بل قذفوا عليه الماء من بعيد خشية أن يمسه ،  
وأخرجوه فالتقوه بأعلى مكة إلى كتان هناك وقذفوا عليه بالحجارة  
حتى واروه .

وأنتدأم الفضل حياة طاغية ليصلي نارا ذات لهب ، ولكل ثمنا  
كان قتل أبي لهب نهاية مظفرة لغزوة بدر في قلب الحرم .

راح المطلب بن أبي وداعة السهمي يتجهز للخروج إلى  
المدينة ليفدى أباه ، فجاءته قريش فقالت :  
— لا تعجل فانا نخاف أن تفسد علينا في أساراتنا ويرى محمد  
تهالكنا فيغلي علينا القدية ، فإن كنت تجد فإن كل قومك لا يجدون  
من السعة ما تجد .

— لا أخرج حتى تخرجوا .

وكان أناس غيره يرون الخروج لقتاء الأعزة لولا الحياء ،  
فزینب بنت محمد عليه السلام تحب أن تبعث إلى أبيها من يفتدى  
منه الزوج العزيز أبا العاص بن الربيع . فهي وإن كانت قد تهلت  
بالفرح لما جاءت الأخبار بنصر الله لرسوله وللمسلمين فقد كدر  
سرورها وقوع أبي العاص أسيرا ذليلا في أيدي الأنصار . وما كان  
يخفف من لوعتها إلا معرفتها بتقدير أبيها لزوج ابنته الأمين .

لقد انحدرت الدموع من مآقيها مرتين . مرة لما جاءها الخبر  
بوقوع زوجها أسيرا ومرة أخرى لما جاءها الناعي ينعي إليها  
موت أختها رقية . كانت عبراتها الأولى مشوبة بأمل اللقاء ،  
أما عبراتها الثانية فقد امتزجت بحرقة الفراق ونكأث جروح أحزانها  
وذكرتها بأيام الاضطهاد وفرار أختها بدينها إلى الحبشة ثم هجرتها  
مع زوجها عثمان إلى المدينة . وأعادت إلى سطح ذهنها أيام أن  
ماتت أمها خديجة أم المؤمنين وهي تشتهي أن ترى رقية قبل أن

تموت ، ولكن روحها الطاهرة قد لحقت بربها دون أن ترى  
رقية الحبيبة : فغمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمي ونزل  
بقلبه أفدح ما يتحمله بشر من الأحران .

وودت زينب لو تستطيع أن تخرج لتفدى زوجها وتعزى  
أباها التاكل الذي فجع في ابنته وهو في قمة انتصاره : ولكنها  
كانت عاجزة عن الخروج وحدها فهي بين كفار قد ملئت قلوبهم  
حقدا على أبيها : فلو همت بالخروج لكانت هدفا لسهام متمطشة  
إلى دماء محمد عليه السلام وإلى أهل بيته وكل من معه من المهاجرين  
والأنصار .

ولم يستطع المطلب بن أبي وداعة أن يصبر على فداء أبيه  
فخادع قريش حتى إذا غفلوا خرج من الليل على راحلته ، فسار  
أربعة ليال إلى المدينة ليفتدي أياه . وصدق رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - حينما قال لأصحابه : « إن له بمكة ابنا كيبا تاجرا  
ذا مال ، وكانكم به قد جاء في طلب فداء أبيه .. »

وافتدى المطلب أياه بأربعة آلاف درهم وكان أول أسير افتدى ،  
ثم عاد به إلى مكة وهو يكاد يطير من الفرح فلامته قريش في ذلك  
فقال :

— ما كنت لأترك أبي أسيرا في أيدي القسوم وأنتم  
مضجعون .

فقال أبو سفيان بن حرب :

— إن هذا غلام حدث يعجب بنفسه وبرأيه وهو مفسد عليكم ،  
إني والله غير مفتد عمرو بن أبي سفيان ولو مكث سنة أو يرسله

محمد ، والله ما أنا بأعوزكم ولكني أكره أن أدخل عليكم ما يشق عليكم ولكن يكون عمرو كأسوتكم .

وسكت الناس وإن كانت قلوبهم تهفو إلى الأسرى ، ثم انتشر في مكة همس يقول ما يمنع أبا سفيان من فداء ابنه غير بخله فقد اشتهر عنه ذلك البخل بين قومه . وعجز الناس عن احتمال بقاء الآباء والأبناء والأعمام والأخوال والأحبة أذلاء في الأسر ، فشد الرحال إلى المدينة في فداء الأسرى أربعة عشر رجلا : من بني عبد شمس الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وعمرو بن الربيع أخو أبي العاص بن الربيع ، ومن بني نوفل بن عبد مناف جبير ابن مطعم ، ومن بني عبد الدار بن قصي طلحة بن أبي طلحة ، ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي عثمان بن أبي خنيش ، ومن بني مخزوم عبد الله بن أبي ربيعة وخالد بن الوليد وهشام ابن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبي جهل ، ومن بني جمح أبي بن خلف وعمير بن وهب ، ومن بني سهم عمرو بن قيس ، ومن بني مالك بن حنبل مكرز ابن حفص بن الأحنف .

وقدم الرجال إلى المدينة في فداء أهلهم وعشائرهم . فانطلقوا إلى مسجد رسول الله عليه السلام فإذا برسول الله قائم يصلي يرتل :  
والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور .  
والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع .  
ماله من دافع . يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا . فويل  
يومئذ للمكذابين . الذين هم في خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار

جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون» (١) .

وجعل جبير بن مطعم يصفى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا بالآيات تنزل إلى قلبه لكأنها نور أضاء بصيرته ، إنه ليرتجف من آيات الوعيد ويشرق بالأمل لما تمس فؤاده آيات التبشير ويهيم في عالم الملكوت . وقد ألقى سمعه وهو شهيد . إن قوة طاغية في أغوار نفسه تيب به أن ينهض ليشهد على الملائكة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ولكنه يقاوم هذه الرغبة وإن دخل الإسلام في قلبه .

وغدا الوليد بن عقبة يساوم سعد بن أبي وقاص في أسيره الحارث بن أبي وحره بن أبي عمرو بن أمية حتى اقتناه بأربعة آلاف . وراح جبير بن مطعم يفتدى عدى بن الحيار وعثمان بن عبد شمس وأبا ثور . ويجلس إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قام للصلاة أو جلس لتلاوة القرآن ، فقد أصبح جبير ابن مطعم أسير سحر ما يرتل محمد عليه السلام .

وصار أبو عزيز بن عمير بالقرعة لمحرز بن نضلة ، فجهاء أخوه مصعب بن عمير وقال لمحرز :

- أشده يدك به ، فإن له أما بمكة كثيرة المال .

فقال له أبو عزيز :

— هذه وصاتك بنى يا أخى ؟ !

فقال مصعب :

— إنه أخى دونك ..

وكانت أمه قد سألت : ما أغلى ما تفادى به قريش ؟ فقيل لها :

أربعة آلاف . فبعثت فيه أمه أربعة آلاف .

وقدم طلحة بن أنى طلحة فى فداء الأسود بن عامر بن  
الحارث بن السباق ، أسره حمزة بن عبد المطلب ، وقدم عثمان  
ابن أبى حبيس فى فداء السائب بن أبى حبيس وسالم بن شماخ وعثمان  
ابن الخويرث وقد فدى كل رجل منهم بأربعة آلاف .

وقدم خالد بن الوليد وهشام بن الوليد فى فداء أخيهما الوليد  
ابن الوليد بن المغيرة . فتمنع عبد الله بن جحش حتى يدفعه فيه  
أربعة آلاف ، فجعل هشام بن الوليد يقول :

— ثلاثة آلاف .

فقال خالد لهشام :

— إنه ليس بابن أمك ، والله لو أبى فيه إلا كذا وكذا لفعلت .

وافتيده بأربعة آلاف . ثم خرجا به حتى بلغا به ذا الحليفة

فأقلت قائى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقيل :

— ألا أسلمت قبل أن تفتدى ؟ !

— كرهت أن أسلم حتى أكون أسوة بقومى .

وقدم عكرمة بن أبى جهل فى فداء خالد بن الأعمى العقيلى

حليف بنى مخزوم . وهو الذى يقول :

ولسنا على الأعقاب تبنى كملومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وكان أولك المنهزمين ، أسره الحباب بن المنذر بن الجموح -  
وقدم عمير بن وهب في فداء ابنه وهب ، وكان عمير هو  
القائل يوم بدر لما قالت له قريش « احرز لنا أصحاب محمد » -  
ما وجدت شيئاً ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل  
النايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة  
ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل  
رجلاً منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟  
إنه كان جالساً في مكة مع صفوان بن أمية ، فذكر أصحابه  
القلب ومصائبهم فقال صفوان :

— والله إن في العيش بعلمهم خير .

قال له عمير :

— صدقت والله ، أما والله لولا دين علي ليس له عندي  
قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد  
حتى أقتله فإن لي قبلهم علة : ابني أسيراً في أيديهم -  
فاغتنمها صفوان وقال :

— على دينك وأنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أواسيهم

ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم -

— فاكم شاتي وشاتك -

— أفعل .

ثم أمر عمير بسيفه فسحذ له وسم ، ثم انطلق حتى قدم  
المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن  
يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من عدوهم ،

إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد  
متوشحا السيف فقال :

- هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا  
لشر . وهو الذي حرش بيننا وحزرتنا للقوم يوم بدر .  
ثم دخل عمر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :  
- يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا  
سيفه .

- فأدخله على .

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبسها ، وقال  
لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :  
- ادخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاجلسوا  
عنده واحلروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون .  
ثم دخل به على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعمر  
أخذ بحمالة سيفه في عنقه قال :

- أرسله يا عمر ، ادن يا عمير .

فدنا ثم قال :

- أنعموا صباحا .

فقال صلى الله عليه وسلم :

- أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية  
أهل الجنة .

- أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

- فما جاء بك يا عمير ؟

— جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا إليه .  
— فما بال السيف في عنقك ؟  
— قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئاً ؟ !  
— اصدقني ما الذي جئت له ؟  
— ما جئت إلا لذلك .

— بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتمنا  
أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين علي وعيال  
عندي لخرجت حتى أقتل محمدا . فتحمل لك صفوان بدينك .  
وعيالك على أن تقتلني له ، والله حائل بينك وبين ذلك .  
— أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما  
كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا  
أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فوالله إني لا أعلم ما أتاك به إلا الله ،  
فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق .  
ثم شهد على الملأ أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده  
ورسوله .

وقال عمر بن الخطاب :

— تخزير كان أحب إلى منه حين طلع : وهو الساعة أحب  
إلى من بعض ولدي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— فقهوا أخاكم في دينه وأقرتوه القرآن وأطلقوا له

أسيره .

ثم قال عمير :

— يا رسول الله إني كنت جاهدا على إطفاء نور الله ؛ شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل . وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله — صلى الله عليه وسلم — وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم كما كنت أؤذي أصحابك في دينهم .

فأذن له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلتجئ بمكة .

وقدم عمرو بن الربيع في فداء أخيه العاص بن الربيع ، فقدم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما بعثت به ابنته زينب في فداء زوجها فإذا به مال وقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين نبي بها . فترقرق الدمع في عيني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وورق لها رقة شديدة . إنها ذكرت بالظاهرة سيدة نساء قريش أم المؤمنين التي صدقته لما كذبه الناس ، وواسته لما عزت المواساة ، وكلنت له وزير صدق على الدوام ، إنه ليذكرها أبدا في أفراحه وأتراحه ، في انتصاراته وأحزانه ، كلما فكر في رقية التي ذهبت أو زينب التي فرق بينه وبينها يقاؤها في كنف زوج مشرك ما كان بقادر على أن يفرق بينهما أو في أم كلثوم وفاطمة الزهراء اللتين ذاقتا مرارة اليم وهما في عمر الزهور .

وقال عليه السلام لمن عنده في صوت متهدج ،

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتركوا عليها ما لها فافعلوا .

— نعم يا رسول الله .

كان صفوان بن أمية يجلس في الحرم ويقول :  
 - أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر .  
 وراح صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكب يقدم من  
 المدينة ويقول :

- هل حدث بالمدينة من حدث ؟

كان على ثقة من أن عمير بن وهب سيقتل رسول الله عليه  
 السلام ، بل إن حقه كان يؤكد له أن الاغتيال قد وقع وأن  
 كل قادم إلى مكة إنما ما جاء إلا ليحمل إليه البشري التي  
 ستشقى غليله ، فقدم رجل من المدينة فسأله صفوان عن عمير  
 فقال :-

- أسلم .

فأحس صفوان كأن سهام الأرض قد صوبت إلى فواده  
 فمزقته ، كان النبا أقسى على قلبه من نذير الشوم الذي جاء بخبر  
 قتلى بدر ، إن ذلك الرجل أنحس من الحيسمان (١) ، وغدا صفوان  
 يلعن عمير بن وهب ولعنه الناس وقالوا :

- صبا عمير .

وحلف صفوان ألا يكلمه أبدا ولا يتفعه وطرح عياله ،  
 وتقدم عمير فنزل في أهله ولم يأت صفوان وأظهر الإسلام ،

(١) رجل كانوا يتشامون منه . والحسوم : الشوم

فبلغ صفوان فقال :

— قد عرفت حين لم يبدأ بي قبل منزله ، وقد كان رجل  
أخبرني أنه ارتكس ، لا أكلمه من رأسي أبدا ولا أنفعه ولا  
عياله بنافعة أبدا ☞

فوقع عليه عمير وهو في الحجر فقال :

— يا أبا وهب :

فأعرض صفوان عنه فقال عمير :

— أنت سيد من ساداتنا ، رأيت الذي كنا عليه من عبادة  
حجر والتذبح له ! أهنا دين ؟ ! أشهد أن لا إله إلا الله وأن  
محمدًا رسوله ☞

فلم يجبه صفوان بكلمة ، وغدا عمير يدعو الناس إلى الإسلام .  
وعاد أبو العاص بن الربيع إلى مكة ففرح الناس بعودة  
من كان من الرجال المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وطاف  
بالبيت سبعا . وانتظر سادات قريش الذين كانوا في نواحيهم  
أن يأتي إليهم ليقتص عليهم كيف أطلقه محمد بغير فداء ، ولكن  
أبا العاص كان في شوق إلى زينب بنت محمد ، إلى الزوجة التي  
بعثت في فدائه بأعز ما تملك قلادة غالية كانت خديجة أدخلتها  
بها عليه ليلة زفافها عليه . إنه طوال الرحلة قد شغل بوجه محمد  
وقد رق لحارقة شديدة . إنه كان يعرف أن ختته كان يحب خالته  
خديجة بكل عواطفه ، ولكنه ما كان يتصور أن يبلغ حبه إياها  
خذ أن ينوب رقة لمجرد رؤية قلادتها وأن تغيم عيناه بالدموع  
للذكرى !

وراح أبو العاص بن الربيع يفتد السير ليلحق بزوجه وهو  
ملهوف في صدره شوق وفي فؤاده هوى وعلى لسانه كلمات ،  
وهم بأن يترتم بشعر جزل يعبر عن جيشان العواطف في وجدانه  
إلا أنه أفاق إلى نفسه وتذكر ما وعد به رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - فقطب جبينه وقد هاجت في عين ذاته الأحزان ، فهو  
لا يستطيع أن ينكث وعده وإلا لطح أمانته التي اشتهر بها بين  
قومه بالأزجال .

إنه وعد ألم موجع لقلبه سيقوض البيت الهاني الذي عجزت  
عواصف الأحداث من قبل عن أن ترزع أركانه ، وكان قد  
بلغ الدار فما إن وقعت عينا زينب عليه حتى جرت إليه ودموع  
الفرح تغسل الوجه الذي انبسطت أساريره ، وصار في لحظة مرآة  
القسوآد الذي فاض في لحظة بشي المشاعر والانفعالات .

وغاب الزوجان عن الوجود ولم يحسا إلا بتغسيهما وبعواطفهما  
الثائرة المشوبة . وبيننا هما في غمرة السعادة إذا بترجيع صوت  
رسول الله عليه السلام يرن في أعماق أبي العاص بن الربيع ،  
فيعد أبو العاص زوجه عن صدره ويقول لها :  
- تأهي يا زينب لتلحقي بأبيك .

ونظرت إليه زينب في دهش وهي لا تكاد تفقه شيئاً ، فقال  
لها وقد أطرق بنظره إلى الأرض :  
- فرق بيني وبينك الإسلام .

إن أبا العاص وعد رسول الله - صلى الله عليه وآله - ابتداءً  
بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة ، وكان يعلم قسوة ذلك الوعد

على قلبه ، ولكنه وهو يفضي إلى زينب الحبيبة بما شرط عليه أبوها  
بحس أن قلبه يتمزق وأنه يتناثر أشلاء ، وبما طالما ترمم الركبان  
بشعره الذي يتشعب فيه بزینب بنت محمد .

وغدت زينب تجاهد عواطفها وهي تتجهز للخروج ، إنها  
قالت صادقة بلسانها ووجدانها : سمعا وطاعة لله ولرسول الله ،  
ولكن عواطفها خذلتها ولم تكن لها عليها سلطان ، فدعها لا يرقأ  
وقلبها دائم الخفقان للحبيب الذي كان نعم الزوج على اللوام .  
وبينا هي تتجهز للحوق بأبيها لقيتها هند بنت عتبة من قتل  
أبوها وعمها وأخوها يوم بدر ، فقالت :

— ألم يبلغني يا بنت محمد أنك تريدن اللحوق يا أهلك ؟

فقالت زينب في حذر :

— ما أردت ذلك .

— أي بنت عم لا تفعل . إن كانت لك حاجة في متاع  
أو فيما يرفق بك في سفرك أو مال تبلغين به إلى أهلك فإن عندي  
حاجتك . فلا تفضطنى ( تسحنى ) منى فإنه لا يدخل بين النساء  
ما يدخل بين الرجال .

وأحست زينب أنها صادقة وما قالت حينئذ إلا لتفعل ،  
ولكن خافتها فأنكرت أن تكون تريد ذلك . وتجهزت حتى  
فرغت من جهازها فحملها أخو بعلمها وهو كنانة بن الربيع .  
قدم لها كنانة بن الربيع بعيرا فركبته وأخذ قوسه وكنانته  
وخرج بها نهارا يقود بعيرها وهي في هودج لها ، وتحدث بذلك  
الرجال من قريش والنساء وتلاومت في ذلك وأشفقت أن تخرج

ابنة محمد من بينهم على تلك الحال ، فخرجوا في طلبها سراعا حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أول من سبق إليها هيار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي وناقع ابن عبد القيس الفهري ، فروعها هيار بالرمح وهي في المودج وكانت حاملا ، فغدت تزف دما .

وبرك حَسَموها كنانة بن الربيع وتل كنانته بين يديه ، ثم أخذ منها سهما فوضعه في كبد قومه وقال :  
- أحلف بالله لا يدنو اليوم منها رجل إلا وضعت فيه سهما .

فرجع الناس عنه . وجاء أبو سفيان بن حرب في جلة من قريش فقال :

- أيها الرجل اكفف عنا نيبك حتى نكلمك .

فكف . فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال :

- إنك لم تحسن ولم تصب ، خرجت بالمرأة على رموس الناس علانية جهارا وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد أيها فيظن الناس إذا أنت خرجت بابنته إليه جهارا أن ذلك عن ذل أصابنا وأن ذلك منا ومن . ولعمري ما لنا في حبسها من أيها من حاجة وما فيها من ثأر ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس بردها سلا خفيا فألحقها بأبيها .

وراحت زينب تنظر إلى اللوم الذي يزف منها في خوف ، فرأى كنانة بن الربيع أن يعود بها استجابة لتوسل أبي سفيان

وحفظا لحياة زوجة أخيه :

ولقيت هند بنت عتبة الذين خرجوا إلى زينب حين انصرفهم  
فقلت لهم :

أبي السلم أعبيار<sup>(١)</sup> جفاءً وغلظة

وفي الحرب أشباه النساء العوارك<sup>(٢)</sup>.

وفيما كانت زينب في طريق عودتها طرحت ما في بطنها  
وأصابها ضعف ، فلما بلغت دار أبي العاص مرع من فيه إليها  
يحملونها وهي غارقة في دعائها .

وصبت اللعنات على رأس هبار بن الأسود ، وراح  
أبو العاص بن الربيع يمسح بحنانه آلام زوجه التي فرق  
الإسلام بينه وبينها . ومرت ليالي وأيام ولا حديث لمكة إلا  
حديث بلر والأسرى الذين عادوا بفداء أو بلا فداء . وغدا  
العباس يجلس في نوادي قومه يحدث عما لقوا من الأنصار في  
المدينة ، ولم يسأله أحد : لم فرق رسول الله — صلى الله عليه وسلم —  
بين ابنته زينب وبين زوجها الحبيب أبي العاص ولم يفرق بينه  
وبين أم الفضل مع أن الحالة واحدة ؟ ! فأبو العاص مشرك  
وزينب مؤمنة . وكذلك الحال مع العباس وأم الفضل . ولو دار  
ذلك السؤال في خلدكم لكشفوا أمر العباس ولأيقنوا أنه على دين  
ابن أخيه وأنه ما بقى بينهم بتظاهر بالشرك إلا ليكون عينا عليهم

(١) أعبيار : حمر الوحش . والميلاد من الرجال : الذي يخلو نفسه ومواعده .

(٢) النساء العوارك : العوائض

لرسول الله عليه السلام يحمل إليه أنباءهم .  
وجاء أناس إلى أبي سفيان وهو جالس مع العباس في  
الحجر وقالوا :

- ألا تقتدى ابنك عمرا ؟

فقال أبو سفيان وقد فقد حلمه :

- أنجمع على ذي وبالي ؟ قتلوا حنظلة وأقتدى عمرا .

وظفق قلب أبي سفيان يقطر حقدًا على علي بن أبي طالب  
فهو قاتل حنظلة وآسر عمرو ، وكانت أمه ابنة عقبة بن أبي معيط  
لا تنفك تسأله أن يقتدى ابنه ويكفيها حزنها على قتل أبيها .  
ولكنه كان يطلب منها أن تصبر كما صبرت هند بنت عتبة  
ترصدًا ليوم النار الأكبر .

واستردت زينب بعض قواها وهدأ الصوت عنها فحملها  
كنانة بن الربيع على بـيرها وهي تنرف اللمع على فراق  
أبي العاص ، وخرج بها ليلاً وهو يسلمها سلاً خفياً وقد أرهفت  
حواسه خشية الطلب .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما خلى سبيل  
أبي العاص بعث بعده زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقال  
لهما :

- كونا بيطن يا أجمع حتى تمر بكما زينب فتصجباها حتى

تأتياني بها .

وخرج الرجلان ينتظران حتى أقبل كنانة بن الربيع يقود  
هودج زينب حتى أسلمها إلى الرجلين وهو يقول :

عجبت لهار وأوباش قومه

يريدون إخفاري (١) بينت محمد

ولست أبالي ما حيت عديهم

وما استجمعت قبضايدي بالمهند

وانطلق الرجلان حتى قدما بزئب على رسول الله - صلى الله

عليه وسلم - ، فلما تقدم خافق القلب لاستقبال ابنه العزيزة العائلة

من دار الشرك إلى دار الإسلام إذا به يجدها ترتفب دما فأصابه

كدر ، وسمع ما كان من هبار بن الأسود بن عبد المطلب

من قسوة على زئب فأهدر دمه .

وقال عبد الله بن رواحة فيما كان من أمر زئب :

أتاني الذي لا يقدر الناس قدره

لزئب فيهم من عقوق وماتم

وأخراجها لم يحز فيها محمد

على ناطق (٢) ، بيننا عطر منشم (٣)

وأمسى أبو سفيان من حلف ضمضم (٤)

ومن حربنا في رجم أنف ومنشم

---

(١) إخفاري : تقض عهدي .

(٢) ناطق : مشترك الحرب .

(٣) كناية عن شدة الحرب ومنشم بانهنطيب نطر بطيبنا فحين لم ذهبوا

للحرب قلم يرجعوا .

(٤) ضمضم بن عمرو الغفاري أرسله أبو سفيان ليخبر أهل مكة بمحاولة

هزض الرسول وأصحابه لتجارة قريش .

( غزوة بدر )

قرنا ابنه عميرا ومولى يمينه  
بذى حلق جلد الصلاصل تحكم  
فاقسمت لا تنفك منا كتاب  
سراة خميس (١) في الهام (٢) مسوم  
نزوع قريش الكفر حتى نُعلَّتها (٣)  
بخاطمة فوق الأتوف بميسم  
تزلهم أكتاف نبيد وتحلة  
وإن يُتَّهَموا بالحيل والرَّجل تُتهم  
يدُ الدهر حتى لا يموج سربنا  
ونلحقهم آثار عاد وجرهم (٤)  
وينسلم قوم لم يطيعوا محمدا  
على أمرهم ولات حين تندم  
فأبلغ أبا سفيان إما لقيته  
لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم  
فأبشر بخزي في الحياة معجل  
وسريال قار خالدا في جهنم

---

(١) الخميس : الجيش الكبير .  
(٢) الهام : الجيش العظيم .  
الطل : الشرب مرة بعد مرة .  
(٤) عاد وجرهم : من القبائل التي يادت .

وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده : أبو  
حكيمة زمعة وعقيل والحارث بن زمعة ، فكان يحب أن يبكي على  
قتلاه فتأني عليه قريش ذلك ، وكان يقول لغلامه وقد ذهب  
بصره !

— ويحك ! احمل معي خمرًا واسلك بي الفج الذي سلكه أبو  
حكيمة .

فأتى به غلامه على الطريق عند ذلك الفج فيجلس فيسقيه  
الخمر حتى ينتشى ثم يبكي على أبي حكيمة وإخوته ، ثم يحث التراب  
على رأسه ويقول لغلامه :

— ويحك ! اكرم علي . فإني أكره أن تعلم بي قريش ، إني  
أراها لم تجمع البكاء على قتلاها .

وبينا هو يبكي على قتلاه سرا إذ سمع نائحة من الليل فقال  
لغلامه :

— انظر . بكت قريش على قتلاها ؟ لعل أبكي على أبي  
حكيمة فإن جوفى قد احترق .

فذهب الغلام ورجع إليه فقال :

— إنما هي امرأة تبكي على غيرها قد أضلته .

فقال الأسود :

أتبكي أن يضل لها بعيرٍ ويعتمها من النوم اليهود

فلا تبكى على بكر (١) ولكن على بكر تصاغرت الخسود  
فبكى إن بكيت على عقيل وبكيت حارثا أسد الأسود  
وبكيتهم ولا تسمى (٢) جميعا فما لأبي حكيمة من تديسد  
على بدر سراة بني مهصيص ومخزوم ورهط أبي الوليد  
ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا  
وبلغ نوفل بن معاوية الديلمي وهو في أهله : وكان قد شهد  
بدر ، أن قريشا بكت على قتلاها فقدم مكة فقال :

— يا معشر قريش لقد خفت أحلامكم وسفه رأيكم وأطعم  
نساءكم : أمثل قتلاكم بيكي عليهم ! هم أجل من البكاء مع أن  
ذلك يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه ، فلا ينبغي أن  
يذهب الغيظ عنكم إلا أن تدركوا ثأركم من عدوكم .  
فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه فقال :

— يا أبا معاوية غلبت ، والله ما ناحت امرأة من بني عبد  
شمس على قتيل إلى اليوم ولا بكاهم شاعر إلا نسيته حتى تدرك  
ثأرتنا من محمد وأصحابه وإني لأنا الموتور الثائر ، قتل ابني حنظلة  
وسادة أهل هذا الوادي ، أصبح هذا الوادي مقشعرا لفقدهم .  
وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما قدم إلى المدينة  
وقدم بعده الأسرى قال قوم من المنافقين :

— ليتنا خرجنا معه حتى نصيب غنيمة .

وقالت يهود فيا بيتنا :

(١) لا تسمى : لا تسمى .

(٢) البكر : الغنى من الإبل .

— هو الذي نجد نعته في كتبنا ، والله لا ترفع له راية بعد  
اليوم إلا ظهرت .

واتفقوا فيما بينهم أن ينتظروا وقعة ثانية ليروا إن كانت له  
أو عليه قبل أن يصلوا إلى قرار .  
وقال كعب بن الأشرف :

— بطن الأرض خير من ظهرها ، هؤلاء أشراف الناس  
ومهادتهم وملوك العرب وأهل الحزم والأمن قد أصيبوا .  
وخرج إلى مكة فنزل على أبي وداعة بن ضبيرة وجعله يرسل  
هجاء المسلمين ، ورثى قتل بدر من المشركين فقال :

ظمنت رحا بدر المهلك أهله	ولمثل بدر يستهل ويذم
قتلت سراة الناس حول حياضه	لا تبعسوا إن الملوك تصرع
ويقول أقنوام أذل بعسزهم	إن ابن أشرف ظل كعبا يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا	ظلت تسيخ بأهلها وتصدع
صار الذي أثر الحديث بطعنة	أو عاش أعمى مرعشا لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم	خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه	ما نال مثل المالكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم	في الناس بيني الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما	يسعى على الحنب القديم الأروع

فلما أرسل كعب هذه الأبيات أخذها الناس بمكة عنه وأظهروا  
المراثي وجعل الصبيان والحواري ينشدونها بمكة . فتاحت بها قريش  
على قتلاها شهرا ، ولم تبق دار بمكة إلا فيها النوح . وجز النساء  
شعورهن ، وكان يوتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه فتوقف بين

أظهروهم فينوحون حولها ، وخرجن إلى السكك وضربن الستور في الأزقة فخرجن إليها ينحن .

وكانت هند بنت عتبة قد عزمت على ألا تبكي أباه عتبة وأخاها الوليد وعمها شيبة قبل أن تثار من قاتليهم ، ولكن النجيجة كانت فوق طاقتها فما أن بكت قريش قتلاها حتى راحت هند تذرف الدمع السخين وتنشد :

لله عينا ممن رأى هلكا كهلكك رجاليه  
يا زُبَّءَ بك لي غدا في النسائيات وبأكيه  
كم غادروا يوم القسليب غداة تلك الداعية (١)  
من كل غيث في السنين إذا الكواكب خساويه  
قد كنت أحذر ما أرى فاليسوم حق حذاريه  
يا زُبَّءَ قسائله غدا يا ويح أم معساويه

وتأهبت قريش للخروج في الموسم وقد بلغ هند تسويم (٢)  
الحنساء هودجها ومعاظمتها العرب بمصيتها بأبيها عمرو بن الشريد  
وأخويها صخر ومعاوية فقالت :  
— أنا أعظم من الحنساء .

وأمرت يهودجها فسوم براءة وشهدت الموسم بعكاظ فقالت :  
— اقرنوا جملي بجمل الحنساء .

فقلعوا ، فلما دنت منها قالت لها الحنساء :

— من أنت يا أنحية ؟

— أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ، وقد بلغت أنك

(٢) صبيز .

(١) الداعية : المراح .

تعاظمين الغرب بمصيتك فيم تعاظمتهم ؟

— بعمر بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو : وهم

تعاظمتهم أنت ؟

— بأبي عتبة بن ربيعة وعمى شيبة بن ربيعة وأخي الوليد .

— أو سواء هم عندك ؟

ثم أنشدت النساء تقول :

أبكي أبي عمرا بعين غزيرة  
إلى أن قالت :

فذلك يا هند الرزية فاعلمي  
فقالته هند نجيبها :

أبكي عميد الأبطحين (١) كليهما  
أبي عتبة الخيرات وبحك فاعلمي  
أولئك آل المجد من آل غالب

وكان الرواة ينقلون المراثي إلى المدينة ، فبينما كان رسول الله

— صلى الله عليه وسلم — جالسا مع أصحابه إذ جاء رجل ينشد

ما قالت قتيلة بنت الحارث في رثاء أخيها النضر بن الحارث الذي

ضرب على بن أبي طالب عنقه بالأثيل :

يا راكبا إن الأثيل مظنة

بأنع به ميتا فإن تحيية

منى إليه وعبرة مسفوحة

(١) الأبطحان : منى ابطح وهو المسيل الواسع به دفن الحمى ويقال :

فريش البطاح لانهم ينزلون بين اثنتين مكة .

فليسمع النضر إن ناديتسه  
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه  
صبرا يقاد إلى المدينة راغما  
أحمد ولأنت نجبل نجيسة  
ما كان ضرك لو مننت ورنما  
والنضر أقرب من قتلت وسيلة  
وراح النبي - صلى الله عليه وسلم - يصغى إلى شعر بنت  
خالته في رثاء ابن خالته وقد غشيت رقة وقال :  
- لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله ما قتلته .

صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فلما رفع رأسه  
من الركعة الأخيرة من وتره دعا لقوم من قريش فقال :  
- اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين  
من المؤمنين .

ومس الدعاء أذنى عمر بن الخطاب فأهاج ذكرياته ، فانه  
اتعد لما أرادوا الهجرة من المدينة هو وعياش بن أبي ربيعة وهشام  
ابن العاص بن وائل السهمي وقالوا :  
- أينما لم يصبح عند سرف فقد حبس فليمض صاحبا .

وكانت سرف على ستة أميال من مكة ، فأصبح هو وعياش  
ابن أبي ربيعة عندها وحبس عنهما هشام ، فانطلقا فلما قدما  
المدينة تزلا في بني عمرو بن عوف بقباء ، وخرج أبو جهل بن  
هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما  
وأخاهما لأمه حتى قدما عليه المدينة ورسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - بمكة ، فكلماه وقالوا :

- إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ،  
ولا تستظل من شمس حتى تراك .

فرق عياش لأمه أسماء بنت مخربة . ورأى عمر ميه لتصديقهم  
فقال له :

- يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتوك عن دينك

فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

— أير قسم أى ولى هناك مال فأخذه .

— والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قریش مالا ، فلك نصف مالى

ولا تذهب معهما .

فأبى إلا أن يخرج معهما ، فلما دخلوا مكة دخلا به سهارا

موتقا ثم قال :

— يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهاثكم كما فعلنا بسفيها هذا .

ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما يقاسى عياش بن

ربيعة المخزومي من تعذيب دون أن يملك إلا الإشفاق عليه ، فما

كان له خول ولا قوة في مكة .

وراح عمر يتذكر ما كانوا يقولون فيمن افتنوا : ما الله

بقابل من افتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا

إلى الكفر لبلاء أصابهم .

فلما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة أنزل الله تعالى

فيهم : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة

الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا إلى

ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون .

واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب

بغثة وأنتم لا تشعرون » (١) .

ورأى عمر بن الخطاب نفسه وهو يكتبها بيده في صحيفة

ويبعث بها إلى هشام بن العاص : ورن في أغواره صوت هشام وهو يحدثه : « فلما أتني جعلت أقرؤها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها حتى قلت : اللهم فهمنيها . فألقى الله تعالى في قلبي أنها أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا . فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله - صل الله عليه وسلم - وهو بالمدينة » .

وأفاق عمر من ذكرياته على صوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يقول :

- من لي بعياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام ؟

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة :

- أنا لك يا رسول الله بهما .

فخرج إلى مكة فلما بلغها وجد أن أباه الوليد بن المغيرة قد أصابه سهم رجل من بني كعب بن عمرو من خزاعة . فدخل عليه وقد حضرته الوفاة . ووجد أبا سفيان عنده قبل أن يخرج لذي حجاز والحوار دائر بينهما . يقول الوليد لصاحبه :

- أخشى ألا تعبد العزى بعد موتي .

فيقول له أبو سفيان :

- أعبدت لحياتك حتى لا تعبد لموتك ؟

- الآن أموت وأنا قرير العين .

وخرج أبو سفيان والثفت الوليد إلى بنيه : هشام بن الوليد

وخالد بن الوليد والوليد بن الوليد فقال لهم :

- أي بني أوصيكم بثلاث فلا تضيعوا فيهن : دى في خزاعة

فلا تطلنّه . ( تهلونه ) ، والله إني لأعلم أنهم منه بُرآء ولكني أخشى  
أن تسبوا به بعد اليوم ! ورباي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه ،  
وعقري ( ديتي ) عند أبي أزيهر الدوسي فلا يفوتنكم به .  
وكان أبو أزيهر قد زوجه بنتاً ثم أمسكها عنه .  
وهلك الوليد بن المغيرة فوثبت بنو مخزوم على خزاعة يطلبون  
منهم دية الوليد وقالوا :

— إنما قتله سهم صاحبكم .

فأبت عليهم خزاعة ذلك حتى تقاولوا أشعاراً وغلظ بينهم  
الأمر . فقال عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي :  
إني زعيم أن تسيروا فتهربوا وأن تركوا الظهران تعوى ثعالبه  
وأن تركوا بقاء بجزعة أطسرقا وأن تسألوا : أي الأراك (١) أطايبه  
فانا أناس لا تطسل دماؤنا ولا يتعالى صاعدا من نحاربه  
فأجابهم الجون بن أبي الجون أحد بني كعب بن عمرو الخزاعي  
فقال :

والله لا توثي الوليد ظلامه ولما تروا يوماً تزول كواكبه  
ويصرع منكم مسمن بعد مسمن وتفتج بعد الموت قسراً مشاربه  
إذا ما أكلتم خبزكم وخزيركم (٢) فكلكم باكي الوليد وناديه  
ثم إن الناس تراضوا وعرفوا أنما يخشى القوم السبة : فعطتهم  
خزاعة بعض الدية وانصرفوا عن بعض : فلما اصططح القوم قال  
الجون بن أبي الجون :

(١) كانت الظهران والأراك منقول بنى كعب من خزاعة .

(٢) الخزير : الحساء من اللحم .

وقائلة لما اصطلحنا تعجبنا  
ألم تقسموا توأوا الوليد ظلما  
فنحن خلطنا الحرب بالسلم فاستوت  
ثم لم ينته الجون بن أبي الجون حتى افتخر بقتل الوليد وكان  
ذلك باطلا ، فلدق بالوليد وبولده وقومه من ذلك البة ، فقال  
الجون بن أبي الجون :

ألا زعم المغيرة أن كعبا  
فلا تفخر مغيرة أن تراها  
بها آباؤنا وبها ولدنا  
وما قال المغيرة ذلك إلا  
فإن دم الوليد يُطل إنسا  
كسأه الفاتك الميمون سهما  
فمخر ببطن قلة مسلحبا (٤)  
سيكفني مطال أبي هشام  
صغار جعدة الأوبار خور (٥)

وكان أبو سفيان بسوق ذي المجاز فعدا هشام بن الوليد على  
أبي أزيهر فقتله بعقر الوليد الذي كان عنده لوصية أبيه إياه في السوق ،  
وبلغ الخبر مكة فخرج يزيد بن أبي سفيان فجمع بني عبد مناف  
ليثأر لأبي أزيهر فعاتكة بنت أبي أزيهر كانت عند أبي سفيان ،

(١) الملهج : الطمون في نجه ، والمهر : الصحيح النسب .

(٢) نير : جبل بمكة

(٣) البير : المنقطع النفس من الأبياء .

(٤) السلحج : المتد ، والوجبة : البقطة .

(٥) الخور : الفراء اللين .

فحسب الناس أن أبا سفيان سيثيرها حرباً بين بني أمية وبني مخزوم قتالوا :  
- أخفر (١) أبو سفيان في صهره فهو ثائر به .

فلما سمع أبو سفيان بالذي صنع ابنه يزيد انحط سريعا إلى مكة ونخشي أن يكون بين قريش حدث في أبي أزيهر ، فأتى ابنه وقد لبس عدة القتال وكان في قومه من بني عبد مناف ، فأخذ الرمح من يده ثم ضربه به على رأسه ضربة هذه منها ثم قال له :

- قبحك الله ! أتريد أن تضرب قريشا بعضهم ببعض في رجل من دوس . سنوتهم العقل ( الدية ) إن قبلوه .

وكان دفع الدية إطفاء لنار الحرب التي كادت أن تنشب بين قبائل قريش . وكان المسلمون يرجون أن يشب لديها توهينا لعدوهم الألد ، فانبعث حسان بن ثابت يخرض في دم أبي أزيهر ويعير أبا سفيان مخفرتة ومجبنه فقال :

غدا أهل ضوجي (٢) ذي المجاز كليهما

وجار ابن حرب بالمغمس ما يغدو

ولم يمنع العير الضروط ذماره

وما منعت مخزاة والدها هند

كساها هشام بن الوليد ثيابه فأبيل وأخلف مثلها جددا بعد

قضى وترا منه فأصبح ماجدا

وأصيحت رخوا ما تحب وما تعندو

فلو أن أشياخا يبدر تشاهدوا لبل نعال القوم معتبط ورد (٣)

(١) الخفرة : الفدر . (٢) ضوجي : جانب الرادى .

(٣) معتبط ورد : الدم المعتبط ( الطرى ) .

فلما بلغ أبا سفيان قول حسان قال :

- يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض في رجل من دوس ا

بئس والله ما ظن .

وطال غياب الوليد بن الوليد بمكة فظن المسلمون بالمدينة أنه  
حبس ، فكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ما رفع رأسه  
من الركعة الأخيرة من وتره دعا :

- اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن  
الوليد .

وراح الوليد بن الوليد ينقب عن محبس عياش بن أبي ربيعة

حتى لقي امرأة تحمل طعاما فقال لها :

- أين تريدين يا أمة الله ؟

- أريد هذا المحبوس .

ففظن إلى أنها في طريقها إلى عياش بن أبي ربيعة فتبعها حتى  
عرف موضعه وكان محبوسا في بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور  
عليه ثم أخذ مروة ( حجرا ) فوضعها تحت قيده ثم ضرب القيد  
بسيفه فقطعه ، فكان يقال لسيفه : « ذو المروة » ثم حمله على بعيره  
وساق به فمُرّ فدميت أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

ثم قدم به على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة  
فتهللت بالبشر لوصولها سالمين أسارى المسلمين .

وبينا عياش يسير بظهر قباء إذ لقي الحارث بن يزيد فتذكر  
في لحظة ما كان من الحارث يوم أن جاء إليه أبو جهل والحارث

ابن هشام لما هاجر أول مرة ، لقد خدعاه وقالوا له إن أمه قد حلفت لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يرجع إليها ، فرق لها وعاد معها . أوثقه قومه وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ، ثم أتاه الحارث بن زيد وقال :

— يا عياش ، لئن كان الذي كنت عليه هدى لقد تركت الهدى ، وإن كان ضلالة لقد كنت عليها .

فغضب عياش من قتاله وقال :

— والله لا ألقاك خاليا إلا قتلتك .

وإنه ليلقاه خاليا الساعة فحمل عليه فقتله ، فقال الناس في

فرع :

— أى شىء صنعت ؟ إنه قد أسلم .

فرجع عياش إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال :

— يا رسول الله كان من أمرى وأمر الحارث ما قد علمت ،

وإذ لم أشعر بإسلامه حين قتلته .

واطرق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وشق ذلك على عياش ،

حتى نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « وما كان

لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة

مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو

لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم

ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام

شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليا حكيما (١) .

كانت صدور أهل مكة تغلى بالحقد للحزب الذي نالهم في بدر ،  
 وكان يزيد في حنقهم آيات الله التي تصل إليهم من المدينة تسجل  
 عليهم العار والاندحار وتخزهم وخزا أليها . وكان حكيم بن خزام  
 يرتجف فرقا كلما رن في أغواره قوله تعالى : « إن الذين كفروا  
 ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم  
 حسرة ثم يغلبون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله  
 الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا  
 فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون (١) . » فهو يتذكر  
 المطعمين في بدر وما حاق بهم فينزل به رعب شديد .

إن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قد قتل وإن كان  
 محمد بن عبد الله قد قال لأصحابه : « من ظفر به منكم فليتركه  
 لأيتام بني نوفل . » وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس كانا أول  
 من ذاق الموت في المعركة . وترك علي بن أبي طالب زمعة بن  
 الأسود بن المطلب بن أسد ونوفل بن خويلد بن العديوة كأمس الدابير  
 وأردى أبا جهل قتيلا ابنا عفرأ ، وقتل أمية ابن خلف وابنا الحجاج  
 نبيه وهنبيه . فما أطعم أحد ييدر إلا قتل إلا هو لا يدرى الحكمة قد  
 نجاه الله أم أن القتل يتربص به !

( غزوة بدر )

إن جلده يقشر من الخوف حتى باك يخشى الوحدة حتى  
لا تفرسه أفكاره فكان يفرع إلى نوادي قومه . وبينما كان جالسا  
مع أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية ومن بقي من شيوخ  
قريش حتى قال قائل :

— إن ثأرتنا بأرض الحبشة فلنرسل إلى ملكها ليدفع إلينا من  
عنده من أتباع محمد فنقتلهم عن قتل منا .

انهزموا في المعركة واستأصل المسلمون وجوههم فلم يبحثوا  
إلا عن نصر رخيص يشقى غليل نفوسهم ، فأرسلوا عمرو بن  
العاص صديق النجاشي الحميم ، وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي  
ليدفع إليهما من عنده من المسلمين .

وركب عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة سفينة وقد  
حملا معها هدايا عظيمة . وما إن أقلت حتى راح الذين تزر  
أفئدتهم بالحقد على علي بن أبي طالب لقتل آبائهم أو إخوتهم أو  
أزواجهم أو أبنائهم وما أكثرهم ! يمتنون النفس بأن يدفع النجاشي  
إليهم جعفر بن أبي طالب ليقتلوه انتقاما لأهلهم الذين سفحت  
دماؤهم في بدر .

إن عليا هناك في المدينة قد ذاع صيته بعد أن جدل صناديد  
قريش ، وإن أسد الله حمزة في حصن من المهاجرين والأنصار  
وقتلها ليس أمرا ميسورا ، وإن كانت هند بنت عتبة قد قتلتها  
مرارا في خيالها تأرا لأبيها وأخيها وعمها . فما دام الانتقام من  
هذين اللذين فعلا في قريش الأفاعيل بعيد المنال فقتل جعفر ومن معه  
من المسلمين فيه كثير من العزاء .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد بعث رسولا إلى النجاشي يحمل إليه أنباء انتصار بدر ، فركب الرسول السفينة من ينبع وانطلق بها إلى الحبشة وهو يتلو الآيات التي نزلت في الأنفال وفي بدر ، فسبقه خياله فيرى نفسه بين جعفر بن أبي طالب والذين معه من المسلمين وهم يصفون إليه مستبشرين وهو يقرأ : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم (١) » .

وبلغت السفينة أرض الحبشة فانطلق رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى قصر النجاشي واستأذن في الدخول عليه ، فلما مثل بين يديه لم ينحر له ساجدا بل سار مرفوع الرأس يعطوه الوقار يترقرق الورع في محياه . حتى إذا دنا من الحالس على العرش ألقى عليه تحية الإسلام فرد عليه النجاشي تحيته ثم أجلسه إلى جواره .

وراح الرجل يقص على النجاشي أنباء بدر ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرح فرحا شديدا ، ثم دفع إليه الرجل بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرضه النجاشي وراح يقرؤه فاذا بالنبي عليه السلام يوصيه فيه على المسلمين .

وأرسل النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب وإلى أصحابه الذين معه بالحبشة فدخلوا عليه فوجدوه جالسا على التراب لابسا أثوابا

خلقة : فقالوا له :

— ما هذا أبا الملك ؟

فقال النجاشي وقد تهلت أساريره :

— إني أبشركم بما يسركم . إن الله عز وجل قد نصر نبيه وأهلك  
عدوه أبا جهل بن هشام وأمية بن خلف والنضر بن الحارث وعقبة  
ابن أبي معيط : التقوا بمحل يقال له بدر كثير الأراك كنت أرعى  
فيه غنما لسيدى من بني ضمرة .

إن النجاشي لا ينسى تلك الأيام التي باعوه فيها عبدا وقد  
حمله سيده إلى بلاد العرب ولولا لطف الله لبي رقيقا ولما عاد إلى  
عرش آبائه . وإنه ليفتأ يذكر تلك الأيام كلما اجتمع بالمسلمين  
بالخبيشة أو وفد إليه رسل من أرض العرب . فقال له جعفر :

— ما لك جالس على التراب عليك هذه الأخلاق ؟

— كان عيسى عليه السلام إذا حدث له من الله نعمة ازداد  
تواضعا ، فلما أحدث الله تعالى نصره نبيه — صلى الله عليه  
وسلم — أحدثت هذا التواضع .

وكان جعفر ومن معه من المسلمين في لفقة لسباع أنباء انتصارات  
بدر فاجتمعوا برسول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وألقوا إليه  
أسماعهم والرجل يحدثهم بأخبار النصر المبين ويتلو عليهم آيات  
الله : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين  
لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم  
ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير  
ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر

الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم (١) .

واستمر يتلو عليهم ما أنزل الله على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من سورة الأنفال وهم يصغون إليه وقد تفرقت العبرات في العيون ، فنصر الله لعباده . كان أعظم من أمانهم وأكبر من أحلامهم وما كانوا يأملون .

ودخل عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة رسولا قريش على النجاشي وهما يحملان الهدايا في نفس الوقت الذي كان يخرج فيه رسول رسول رب العالمين ، فاختلس عمرو إليه نظرة ثم تقدم ليخر ساجدا بين يدي النجاشي .

وأمره النجاشي أن يرفع رأسه وأن يجلس إلى جواره ففعل عمرو ، فقال له النجاشي :

— مرحبا بصديقي . أهديت لي من بلادك شيئا ؟

— نعم أيها الملك ، أهديت لك أدما كثيرا .

ثم قربه إليه فاعجبه وفرق منه أشياء بين بطارقتيه ، وأمر مسائره فأدخل في موضع وأمر أن يكتب ويحتفظ به ، فلما رأى عمرو طيب نفسه قال :

— أيها الملك إني رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول

عدو لنا قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا : فاعطنيه فأقتله .

فغضب النجاشي ثم رفع يده فضرب بها أنف عمرو ضربة  
ظن أنه قد كسره ، فجعل عمرو يتقى الدم بثيابه فأصابه من الذل  
ما لو انشقت له الأرض لدخل فيها فرقامته ثم قال :  
- أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتك .

ورد النجاشي عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة  
نخائبين ، ثم بعث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من خيار  
أصحابه ثلاثين ليهنئوه بنصر الله ، فلما سار الرجال بملابسهم  
الدينية في المدينة اشرابت إليهم الأعناق ، وأحس اليهود غيرة  
أن علا شأن رسول الله عليه السلام ، وأبدى المنافقون بأفواههم  
غير ما بملاً أفئدتهم من حقد على نبي الإسلام ، وفاضت قلوب  
المؤمنين بالبشر والاستبشار .

وانطلق الرجال إلى مسجد الرسول يحملون إليه تحيات  
النجاشي وتهنئته وأطيب التمنيات . واستقبلهم عليه السلام  
بالترحاب ثم دار بين النخائبين حوار ودى فقرأ عليهم رسول الله  
- صلى الله عليه وسلم - : «بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن  
الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز  
الرحيم . لتندر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول  
على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي  
إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم  
سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم  
تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب  
فبشره مغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا

وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبین . واضرب لهم مثلاً أصحاب القبرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لننظن أنكم لن تقولن الله شريكاً فقلنا بل أنتم قوم مسرفون . وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون . وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون . أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتكم شيئاً ولا يتقنون . إني إذا لى ضلال مبين . آمأمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (١) .

واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو سورة يس ورهبان الحبشة يصفون إليه وقد جاشت صدورهم بمشاعر رقيقة ، وما لبثوا أن انهمرت الدموع من العيون من أثر الانفعال الشديد ، فأنزل الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون : وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع

ما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمننا فاكذبنا مع الشاهدين . وما لنا  
لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم  
الصالحين . فاثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار  
خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين (١) .

تدفقت الأموال من مكة إلى المدينة في فداء أسرى بدر ،  
وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبه في الغنائم وفي  
الأموال ولكنه لم يحتفظ منها بشئ بل رد كل ما أخذ على فقراء  
المسلمين ، فقد كان عليه السلام إمام الزاهدين وكان يقول :  
- أفلح الزاهد في الدنيا ، حظى بعز العاجلة وبثواب الآخرة .  
فهو عليه السلام يرى أن من أصبحت الدنيا همه وتسرقه  
نزع الله الغنى من قلبه وصير الفقر بين عينيه ولم يؤته من الدنيا  
إلا ما كتب له ، ومن أصبحت الآخرة همه نزع الله الفقر  
من قلبه وصير الغنى بين عينيه وأتته الدنيا وهي راغمة .  
وكان علي بن أبي طالب ربيب رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ، وله فيه أسوة حسنة ، وقد كان نصيب علي في غنائم بدر  
عظيما فالدروع في قريش يوم بدر كانت كثيرة فلما انهزموا  
جعلوا يلقونها وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقون ما طرحوا ،  
ولقد التقط منها على الكثير وأخذ نصيبه من الأتفال والأموال ،  
ولو شاء أن يتاجر في أمواله لكان من أغنياء المسلمين ولكنه  
كان زاهدا كابن عمه عزت عليه نفسه فهانت عليه الدنيا ، فحب  
الدنيا رأس كل خطيئة ، واقتناء المال فيها داء عظيم لا يسلم  
صاحبه من البغى والكبر ، فان سلم منهما يشغله إصلاحه عن  
ذكر الله .

إنه يطمع في أن يكون من المتقين فيدع ما ليس به بأس  
حنرا عما به بأس ، فكان يخرج عن كل ماله ويؤثر أن يكون  
فقيرا من أن يكون غنيا في أمواله بأس ، ويرضى بالجوع ففيه  
مدلة للنفس وحياة للقلب وقد منع نفسه من الشهوات لكرامة  
نفسه عليه .

عرف بعد بدر بفارس الإسلام ولم يكن له من قبل ذكر  
إذا ما ذكرت الحروب ، وقد سمع كثيرا من الإطراء فما زاده  
المديح إلا تواضعا . وكان يدخل دار رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ، ويرى فاطمة الزهراء وأم كلثوم فلا يخطر له الزواج على  
قلب وإن كانت فاطمة قد صارت زهرة متفتحة في السادسة  
عشرة من عمرها . فقد كان مشغولا عن دنياه بالنور الذي ملأ  
فؤاده .

وجاء أبو بكر الصديق إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
يخطب فاطمة فأطرق عليه السلام قليلا ثم قال :  
- انتظر بها القضاء .

وسمعت فاطمة ولا ريب بخطبة الصديق إياها وفكرت في  
الرجل وفيما قال له أبوها فلم تفهم شيئا ، وترقبت ذلك القضاء  
الذي ينتظره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء عمر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب فاطمة  
فقال له عليه السلام :  
- انتظر بها القضاء .

ودار حديث في الدار بين فاطمة الزهراء وأم كلثوم وأم

أيمن حول خطبة عمر لفاطمة الزهراء ورفض الرسول - صلى الله عليه وسلم - ذلك الزواج في كياسة وأدب وذلك القضاء الذي ينتظره رسول الله عليه السلام ، ولم يؤد الحوار إلى حقيقة تطمئن إليها قلوب أهل البيت التي كانت حائرة قلقة .

وقطن أبو بكر وعمر إلى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد ادخر الزهراء لعلي بن أبي طالب ، فجاء إلى علي بأمرانه أن يخطبها فنبهاه لأمر كان عنه غافلا ، فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :

- تروجنى فاطمة .

فأمهله عليه السلام حتى يستشيرها ، فدخل عليها فقال :

- أي بنية إن ابن عمك عليا قد خطبك فماذا تقولين ؟

فبكت ثم قالت :

- كأنك يا أبت إنما ادخرتني لفقير قريش .

- مالك تيكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما . ما آليت أن أزوجك خير أهل .  
والذي بعثني بالحق ما تكلمت في هذا حتى أذن لي الله فيه من السماء .

- رضيت بما رضي الله ورسوله .

وتهلل وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبشر وخرج إلى ربيبه وابن عمه وقال له :

- هل عندك من شيء ؟

- كلا :

— وأين درعك الحطمية ( التي تحطم السيوف ) .

— عندي .

ودفع علي بالدرع إلى غلامه ليبيعه فانطلق بها إلى السوق ،  
وبينا هو يبيعه بأربعمائة درهم إذ رآه عثمان بن عفان فقال :  
— هذه درع علي فارس الإسلام لا تباع أبدا .  
فدفع لغلّام علي أربعمائة درهم وأقسم أن لا يخبره بذلك  
ورد الدرع معه .

وقال النبي — صلى الله عليه وسلم — لأنس بن مالك .

— انطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير  
وبعدتهم من الأنصار .

فانطلق ودعاهم ، فلما أخذوا مجالسهم التفت عليه السلام .  
إلى علي وقال :

— يا علي اخطب لنفسك .

فقام علي فقال :

— الحمد لله شكرا لأنعمه وأياديه . وأشهد أن لا إله إلا الله  
شهادة تبلغه وترضيه . وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
زوجتي ابنته فاطمة علي صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا  
ما يقول واشهدوا .

قالوا :

— ما تقول يا رسول الله ؟

— الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته . المطاع  
لسلطانه . المهروب إليه من عذابه ، النافذ أمره في أرضه وسنانه ،

الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه ، وأعزهم بديته  
وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا ، وأمرامفترضا ،  
وحكما عادلا ، وخيرا جامعاً ، أوشح بها الأرحام ، وألزمها  
الأنام ، فقال الله عز وجل : « وهو الذى خلق من الماء بشرا  
فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا (١) » . وأمر الله بجرى إلى قضائه  
وقضاؤه بجرى إلى قدره ولكل أجل كتاب : يحجو الله ما يشاء  
ويثبت وعنده أم الكتاب . ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة  
من على وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من على على أربعمئة مثقال  
فضة إن رضى بذلك على الستة القائمة والفريضة الواجبة : فجمع الله  
شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة  
ومعادن الحكمة وأمن الأمة . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .  
وخر على ساجدا شكرا لله : فلما رفع رأسه قال الرسول  
صلى الله عليه وسلم :

— بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما

الكثير العليب .

ثم أمر لأصحابه بطبق فيه تمر فوضع بين أيديهم فقال :

— انتهبوا .

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة  
من آدم حشوها ليف ونورة من آدم ( إناء يغسل فيه ) وسقاء  
ومتخل ومنشفة وقلح ورحاءان وجرتان .

وجاءت ليلة الزفاف فأولم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
فيها بكبش من عند سعد بن معاذ وآصح من ذرة من عند جماعة  
من الأنصار ، وقال لعل :

- لا تحدث شيئاً حتى تلقاني .

فجاءت بها أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وعلى في  
جانب آخر .

وجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لفاطمة :  
- اثني بماء .

فقامت تعثر في ثوبها من الحياء فأتمته بقعب فيه ماء ، فأخذه  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم قال لها :  
- تقدني .

فتقدمت يفوح منها عطر طيب فقد أمر رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - بلالا بأن يشتري طيباً بثلاث الصداق ، فنضح بين  
ثديها وعلى رأسها وقال :

- اللهم إني أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .  
ثم قال :

- اثوني بماء .

فعلم على الذي يريد فقام وملاً القعب فأثاه به ، فأخذه  
وصنع به كما صنع بفاطمة ودعا له بما دعا لها به ثم قال :

- اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في شملهما .  
وتلا المعوذتين ثم قال :

- ادخل بأهلك باسم الله والبركة .

ومكث صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لا يدخل على فاطمة ،  
وفي اليوم الرابع دخل عليهما في غداة باردة وهما في قטיפه لهما  
إذا جعلها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلها بالعرض  
انكشفت رءوسهما ، فلما رأياهما بالنهوض فقال لهما :  
... كما أتتيا .

وجلس عند رأسهما ثم أدخل قلميه وساقيه بينهما ، فأخذ  
على كرم الله وجهه إحداهما فوضعها على صدره وبطنه ليدفنها ،  
وأخذت فاطمة رضي الله عنها الأخرى فوضعتها كذلك . وراح  
على بن أبي طالب الذي لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من  
عمره يصفى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويتلقى منه  
الحكمة ليقول ذات يوم :

- لا يخافن أحد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه . ولا يستحي  
من لا يعلم أن يتعلم ، ولا من يعلم إذا مثل عما لا يعلم أن  
يقول الله أعلم . ما أبردها على الكبد إذا مثلت عما لا أعلم ،  
أن أقول الله أعلم .

سيطر رسول الله صلى الله عليه وسلم - على طرق تجارة قريش المتجهة إلى الشام والعراق وأصبح يهدد الطريق إلى نجد بعد انتصاره الساحق في بدر ، وقد أحس المكيون خطورة تحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في طرق قوافلهم المتجهة إلى الشمال منذ أن لحقت بهم المزيمة فرأوا أن لا مناص من جولة ثانية مع المسلمين لوضع حد لذلك الموقف الخطير إن أرادوا ألا تختق مكة اقتصاديا ، فما إن رجع من حضر بدرا من المشركين إلى مكة ووجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار النخوة لم يحركها أبو سفيان ولم يفرقها لغية أهل العير ، حتى مشت أشراف قريش إلى أبي سفيان : الأسود بن عبد المطلب بن أسد وجبير بن مطعم وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة وحويطب بن عبد العزى فقالوا :

— يا أبا سفيان انظر هذه العير التي قنعت بها فاحبسها فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش ، وهم طيبو الأنفس يجهزون بهذه العير جيشا كثيرا إلى محمد ، فقد ترى من قتل من آباءنا وأبنائنا وعشائرتنا .

فقال أبو سفيان :

— وقد طبابت أنفس قريش بذلك ؟

— نعم .  
— فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فأنا والله الموتور والثائر وقد قتل ابني حنظلة بيدرو وأشراف قومي .  
ولم يعجب ذلك القرار بعض أصحاب الأموال في القافلة  
قدار حوار بين الناس انتهى بأن قالوا :  
— بع العير ثم اعزل أرباحها .

كانت ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار وكانوا  
يربحون في تجارتهم للدينار ديناراً ، فعزل أبو سفيان الأرباح وأعاد  
إلى الناس رموس أموالهم ، وحبس عير بني زهرة لأنهم رجعوا  
من طريق بدر ، وسلم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبنى أبيه وبني  
عبد مناف بن زهرة ، فأبى مخرمة أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بني  
زهرة جميعاً ، وتكلم الأحنس فقال :

— وما لعير بني زهرة من بين عيرات قريش ؟ !  
قال أبو سفيان :

— لأنهم رجعوا عن قريش .

— أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزنا العير  
لا تخرجوا في غير شيء فرجعنا . فآخذت بنو زهرة عيرها وأخذ  
أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة كل ما كان  
لهم في العير ، وعزل أبو سفيان أرباح القافلة وراح ينفقها في التأهب  
لغزو المدينة ليقتضى على محمد وأنصاره تأميناً لطريق القوافل إلى  
الشام والعراق .

وكانت قريش تعتمد على تأييد القبائل القريبة من المدينة ،  
(مخزومة بدر)

بني سليم في الجنوب وغطفان في الشرق . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعلم ما بين قريش وسليم من ود فخشي أن تتحرك سليم عقب هزيمة قريش في بدر وتدهم المدينة ثأثراً لخلقهم سادات قريش الذين تجرعوا غصص الموت ، فما إن قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة من بدر ولما ينتقض إلا سبع ليال خرج ليغزو بنفسه بني سليم ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري . ودفع إلى علي بن أبي طالب لواءه وكان أبيض ، ثم تقدم بالمسلمين حتى بلغ ماء من مياههم يقال له الكلد ، فأقام على ذلك ثلاث ليال وقد علمت بنو سليم بذلك فلم يحركوا ساكناً وآثروا السلامة ، فرجع إلى المدينة بعد أن ألقى الرعب في قلوب أعدائه ، وحذر بني سليم وغطفان تحذيراً عملياً أن أي حركة عدائية ستقابل بالردع الشديد .

وورمت أنوف اليهود بعد انتصار المسلمين في بدر وأكل الحسد أكبادهم ، فرأوا أن يعملوا على توهين المسلمين على الرغم من المعاهدة التي عقدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار واليهود . والتي تعاهدوا فيها أن يكونوا لنا واحدة على أعدائهم ، فلاذ كعب بن الأشرف بمكة يرثي قتل قريش ويحرضهم على الثأر . وأخذ اليهود في الأسواق يعملون جاهدين على تقليل شأن انتصار المسلمين في بدر ويحاولون تحريك الأحقاد التي كانت بين الأوس والخزرج والتي نجح الإسلام في اجتثاثها من أساسها .

وقامت مشكلات بين المسلمين من المهاجرين والأنصار وبين

المسلمين واليهود حول توزيع المياه كان رسول الله يقصل فيها بحكمته ، فلما اختصم إليه في مهزوز وادى بنى قريظة قضى أن الماء إلى الكعبين لا يحبس الأعلى على الأسفل . وحدث أن خاصم رجل من الأنصار الزبير بن العوام في شرح من شروج الحرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— اشرب يا زبير ثم خل سبيل الماء .

قضى عليه السلام بأن يروى الزبير أرضه ثم يدع الماء للأنصارى فإذا بالأنصارى يقول :

— العدل يا رسول الله وإن كان ابن عمك .

فتغير وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى عرف أن قد ساء ما قال : فقال :

— يا زبير احبس الماء حتى يبلغ الكعبين ثم خل سبيل

الماء .

كانت قريش تنهب لشب على المسلمين من الخارج . وكان اليهود يتربصون بهم ليظعنوهم من الداخل ، وكان المناقون وقد عميت قلوبهم التي في صدورهم يودون أن تكون الدائرة على المسلمين . وكانت بعض خلافات تشب بين الأنصار والمهاجرين كان عليه السلام يعمل على إطفائها سريعا ليتفرغ للخطر الخارجى حتى لا يدم المدينة فجأة ، وللخطر الداخلى الذى يتحفر للتحرك في أية لحظة .

كان الجو مشحونا بالخطر وكانت العداوة قد بلغت ذروتها بين مكة والمدينة : ولكن الأنصار كانوا يرون أن هذه العداوة

لن تحول دون خروج المدنيين معتمرين إلى البيت العتيق ، فالعهد  
بقريش ألا يعرضوا للحاج ولا معتمر إلا بخير . فبينما كان سعد بن  
النعمان بن أكحال أخو بني عمرو بن عوف في غم له في التقيع ،  
إذ خرج من هناك معتمرا ومعه امرأة له .

كان سعد شيخا قد هوى فواده إلى الحرم فانطلق هو  
وامرأته وفي صدرهما نشوة روحية غامرة ، فلما أتيا الكعبة  
طلقا يطوفان بها وقد نزل بهما أمن وسلام . وفيما هما  
شارقان في مناجاة ربهما إذا بأبي سفيان يعدو على سعد ويحبسه  
بابنه عمرو الذي كان في يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
وأبي أن يقديه .

وارتفعت أصوات استنكار ما لبثت أن أخذت ، فأم عمرو  
ابن أبي سفيان كانت بنت عقبة بن أبي معيط من قتله محمد  
عليه السلام صبورا ، فقدت تويدها أبا سفيان فيما فعل ، وكذلك  
كانت زوجه هند بنت عتة وكل الموتورين .  
وقال أبو سفيان .

أرهط ابن أكحال أجيوا دعاءه

تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا

فان بني عمرو لثام أذلة

لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكهلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

لو كان سعد يوم مكة مطلقا

لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا

بعضب نحاس أو بصفراء نبعة

تحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا (١)

وتريث بنو عمرو بن عوف لعلى الحمير من أهل الحرم  
يستنكرون فعلة أبي سفيان ، ولكن الوقت يمر والشيخ مجوس  
في مكة وأبو سفيان مصر على أن لا يطلق سراحه قبل أن يخلي  
المسلمون سبيل ابنه عمرو . فمشوا إلى رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان فيفكوا به أصحابهم ،  
ولما كان رسول الله عليه السلام لا يسأله سائل عن شيء إلا  
أعطاه إياه ، فقد دفع إليهم بعمره ودفنوا به إلى أبي سفيان ،  
فخلى سبيل سعد بعد أن أهدر حرمة الحرم الذي كان آمنا .

---

(١) - العضب : السيف القاطع . الصفراء : القوس . والنبع : شجر تمنع  
منه القسي . وتحن : أى يصوت وترها . والانباض : أن يحرك وتر القوس .  
وتحفز النبلا : أى تحذف به وتره .

أسلم عبد الله بن أبي بن سلول لما وجد أن قومه قد أسلموا جميعاً ولكن مرض قلبه لم يبرأ ، فقد كان يحقد في دفة نفسه على نبي الإسلام والمسلمين : فلم ينس أبداً أن هجرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة قد حرمته التاج الذي كاد الأوس والخزرج أن يضعوه فوق رأسه .

وكان حليفاً لبني قينقاع وكانوا أشهر قوم من اليهود وأشجع يهود . ، وكانوا صاغة فغداً يمضي بعض الوقت في حوائثهم يشاركونهم في الاستهزاء برسول الله عليه السلام وبالمسلمين . وقد كانت المرارة ترفرف على شفثيه بعد انتصار المسلمين على قريش في بدر ، ولولا نفاقه لخرج إلى قريش كما خرج كعب ابن الأشرف ورثى قتلى بدر بأحر الدموع .

وكان بنو قينقاع أول من نبذ العهد فقد عاهدهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعاهد بنو قريظة وبنو النضير على أن ينصروه على من دهمه من عدوه ، فلما كانت وقعة بدر أظهرها البغي وأعلنوا على الملأ بأفعالهم وسخرتهم من المسلمين نبذهم العهد .

جاءت امرأة من العرب بايل وأغنام فباعتها بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ منهم ، فجعل جماعة من اليهود

يراودونها عن كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعمده إلى ظهرها وهي لا تشعر ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون وأطلقت الحرب بخطمها . ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يعلنها حرباً على اليهود أن يستنجد كل وسائل السلام فجمع أصحابه وعبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي بن مسلول فقد كانا حليفين لبني قينقاع ، وقال - صلى الله عليه وسلم - :

- ما على هذا أقررتاهم .

فقال عبادة بن الصامت :

- يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف

هؤلاء الكفار .

تبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم وتشبث به عبد الله بن أبي بن مسلول ، فأنزل الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فمسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمحكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يا أيها الذين آمنوا من يردكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة

على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون  
لومة لأثم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم  
الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة  
وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله  
هم الغالبون (١) .

وجمع رسول الله عليه السلام بنى قينقاع وقال لهم :  
— يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من  
النقمة وأسلموا ، فإنكم عرفتم أتي مرسل تجلدون ذلك في كتابكم  
وعهد الله تعالى إليكم .

فقالوا مستهزئين :

— يا محمد إنك ترى أنا قومك ولا يغرنك أنك لقيت قوما  
لا علم لهم بالحرب فأصببت لهم فرصة ، إنا والله لو حاربناك لتعلمن  
أنا نحن الناس .

واتخذوا المسلمين هزوا وطفقوا يقولون ضاحكين إن محمدا  
يظننا أنا مثل قومه ، والله لو قاتلنا ليعلمن أنه لم يقاتل مثلنا .  
وقد غرهم أنهم أشجع اليهود وأكثرهم أموالا وأشدهم بغيا .  
فأنزل الله تعالى : « قل للذين كفروا متغلبون وتحشرون إلى جهنم  
وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فتنة التقتان فتنة تقاتل في  
سبيل الله وأخرى كافرة يرونها مثلهم رأى العين والله يؤيد  
بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار (٢) » . وأنزل تعالى :  
« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب

الخاصين . ولا يحسن الدين كفروا سبقوا إليهم لا يعجزون .  
وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به  
عند الله وعندكم وآخزيين من دونهم لا فتلعنونهم الله يعلمهم  
وما تفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (١) .  
وتحصن بنو قينقاع في حصونهم بعد أن أبو أن مجنحوا للسلم ،  
فسار إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولواؤه الأبيض بيد  
عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله الذي ينزل الرعب في قلوب  
أعداء الله الذين يريدون أن يطفئوا نور الله جاهدين ، واستخلف  
- صلى الله عليه وسلم - على المدينة أبا لبابة وضرب حصارا على  
حصون اليهود .

كان الشهر شوال وكان القمر بدرا وكان اليهود يطلون من  
الحصون فيرون المسلمين وقد اتفوا بالحصون كالأسيود فتخلع  
أفتدتهم من الرعب . ويتذكرون ما نال صناديد قريش في بدر ،  
قتل الفرسان وأسر الشجعان وهرب على رجليه سادات الناس :  
فحكيم بن حزام أطلق ساقه للريح ، وفارس القرينان عمرو بن  
عبد ود نجا هاربا على قدميه وهو شيخ كبير . . . . . المعركة  
جربحا فوصل إلى مكة وهو مشرف على الهلاك . وطفقت أشباح  
معركة بدر تتخيل لهم فتفت في عضهم وتضعيف من روحهم  
وتزلزل الأرض تحت أقدامهم وتجعل أفتدتهم هواء .

وانقضت خمس عشرة ليلة وبنو قينقاع في حصونهم قد  
قذف الله الرعب في قلوبهم ، كانوا أربعمئة حاسر وثلاثمئة

دارع وكانوا قادرين على القتال ولكنهم آثروا السلامة ورأوا  
أن يسلموا قبل التقاء الحيشين ، فسألوا رسول الله - صلى الله عليه  
وسلم - أن يخلى سبيلهم وأن يجلوا من المدينة وأن لهم نساءهم والذرية  
وله - صلى الله عليه وسلم - الأموال والسلاح .

وتزلت بنو قينقاع فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن  
يكتفوا فكتفوا ، فكلمه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول وألح  
عليه فقال :

- يا محمد أحسن في موالى .

فأعرض - عنه صلى الله عليه وسلم - فأدخل يده في جيب درع  
رسول - الله صلى الله عليه وسلم - من خلفه ، فقال له عليه السلام :

- ونحك أرسلنى .

وغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى رأوا لوجهه  
سرة لشدة غضبه ، ثم قال :

- ونحك أرسلنى .

- والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى فانهم عترتى وأنا امرؤ

أخشى الدوائر .

- خذهم لا بارك الله لك فيهم .

وأمر - صلى الله عليه وسلم - أن يجلوا من المدينة ووكال  
باجلابهم عبادة بن الصامت وأمهاتهم ثلاثة أيام .

وجاء ابن أبي بن سلول إلى منزله - صلى الله عليه وسلم -  
يسأله في إقرارهم فحجب عنه . فأراد الدخول فدفعه بعض  
اصحابه فصدم وجهه الحائط فشجه فانصرف مغضبا .

وانقضت الأيام الثلاثة فجاءوا إلى عبادة بن الصامت  
فسألوه أن مهلمهم فوق الثلاث ، فقال :  
- لا ولا ساعة واحدة .

وبلغهم ما قال ابن أبي بن سلول ( أبو الحباب ) على أيدي  
صحابه رسول الله عليه السلام فقالوا :

- لا تمكث ببلد يفعل فيه يأتي الحباب هذا ولا تنتصر له .  
وخرجوا أذلة من المدينة ليذهبوا إلى أذرعاء بالشام .

وكانت أموالهم فينا لله ولرسوله لأنها لم تحصل بقتال . ولكن  
رسول الله عليه السلام قسمها بينه وبين المسلمين فكان له الخمس  
ولأصحابه الأربعة الأخماس . وراح يوزع الخمس على ذوي  
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل يعود إلى منزله وليس معه منها  
بيضاء ولا صفراء .

فقريش تنأهب لتأثر ليوم بدر ، واليهود في قلب المدينة يتآمرون على المسلمين ، والمناققون يسوؤهم أن تمس المؤمنين حسنة ويفرحون إن أصابتهم سيئة ، والقرآن ينزل من السماء يجادل الكافرين ويتوعد أهل الكتاب ويكشف المناققين ويشرع للبشر بين لم طريق الحلال وطريق الحرام ويهديهم إلى صراط مستقيم .

جاء عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال :

- يا رسول الله إن قومًا من قريظة والنضر قد هاجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا ، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعث المنازل .

إن قومهم لما رأوهم آمنوا بالله ورسوله وصدقوه ففضضوهم وآلوا على أنفسهم ألا يجالسوهم ولا يتكلموهم ولا يجادلوهم ، فشق ذلك عليهم فأنزل الله فيهم : وإعذوليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون (١) .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحذر اليهود بعد ما بدت العداوة من بني قينقاع ويرى أنهم أهل مكر وخداع ، وقد سرق رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر

ابن الحارث درعا من جبار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت  
الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق يتثر من خرق في الجراب  
حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق ، ثم خبأها عند رجل من  
اليهود يقال له زيد بن السمين ، فالتصت الدرع عند طعمة  
فلم توجد عنده وحلف لم :

— والله ما أخذتها وما لي بها من علم .

فقال أصحاب الدرع :

— بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتى دخل داره

فرأينا أثر الدقيق .

فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل

اليهودي فأخذوه ، فقال :

— دفعها إلى طعمة بن أبيرق .

وشهد له أناس من اليهود على ذلك فقالت بنو ظفر وهم قوم

طعمة :

— انطلقوا بنا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

فكلموه في ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا :

— إن لم تفعل ملك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهودي .

فهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يفعل وكان هواه

معهم وأن يعاقب اليهود . حتى أنزل الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك

الكتاب بالحق لتجكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للمخائنين

خصيا . واستغفر الله إن الله كان عفورا رحيا . ولا تجادل عن

الذين يجتانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيا . يستخفون

من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا . ما أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيفا . ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيا . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليا حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا . ولولا فضل الله عليك ورحمته لمحت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما . لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما . ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضللا بعيدا (١) .

وكان اليهود يمجون في المجتمع الملتئ بمشون بالأراجيف ويهمسون في آذان حلفائهم من الأنصار بأقوال مسمومة لعلها تنال من ذلك الولاء العجيب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - . جاء جماعة من اليهود إلى رجال من الأنصار يخالطونهم فقالوا لهم :  
- لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر .  
وقبل أن يستقر ذلك الوهم في النفوس المؤمنة أنزل الله تعالى :

« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا . وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما . إن الله لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ، فكيف إذا جتتا من كل أمة بشهيد وجتتا بك على هولاء شهيدا . يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا (١) » .  
وآمن عبد الله بن سلام وأصحابه بالنبي - صلى الله عليه وسلم -  
فآمنوا بشرائعه وشرائع موسى ، فعظموا السبوت وكرهوا الحمان الإبل وألبانها بعد ما أسلموا ، فأنكر ذلك عليهم المسلمون فقالوا :  
- إنا نقوى على هذا وهذا .

وقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم :

- إن التوراة كتاب الله فدعنا نعمل بها .

فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . فإن زلتم من بعد ما جاءكم اليينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم . هل ينظرون إلا أن يأتهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور . سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب (٢) » .

وكان رجال من قريش يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

في المدينة يعطونه من طرف اللسان جلاوة وإن كانت قلوبهم تفيض  
بالحقد ، وقد أقبل إلى النبي عليه السلام الأحنس بن شريق الثقفي  
حليف بني زهرة من عاد بالناس يوم بدر ، وغدا يتحدث حديثا  
عذبا حتى قال :

- إنما جئت أريد الإسلام والله يعلم إنى لصادق .

وأعجب النبي - صلى الله عليه وسلم - حديثه فعدا يقبل عليه  
ويتلو عليه ما أنزل من القرآن ، ثم خرج من عند رسول الله - صلى الله  
عليه وسلم - ليعود لمكة فمريزوع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق  
الزرع وعقر الحمر . فأنزل الله تعالى فيه : « ومن الناس من يعجبك  
قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام .  
وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله  
لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم  
ولبئس المهاد (١) » .

وكانت القوافل تأتي إلى المدينة من الشام فتزل في أسواقها  
تبيع الخمر وتشترى التمر ، وكان المسلمون يشترون خمر الشام  
فما كانت الخمر قد حرمت بعد ، وقد صنع عبد الرحمن بن عوف  
طعاما ودعا أناسا من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
فطعموا وشربوا . وحضرت صلاة المغرب فتقدم بعض القوم  
فصلى بهم المغرب فقرا : قل يا أيها الكافرون . فلم يقمها . فأنزل الله  
تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى  
تعلموا ما تقولون (٢) » .

وكان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ابنان فتنصرا  
قبل أن يبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - وخرجا مع تجار الشام الذين  
جاءوا يحملون الزيت ، وكانا يؤمان المدينة كل عام مع التجار  
فراهما أبوهما فلزمهما وقال :

— والله لا أدعكما حتى تسلما .

فأبيا أن يسلما فاختصموا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال :

— يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟

فأنزل الله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي  
فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى  
لا انفصام لها والله سميع عليم (١) » .

فخلى الرجل سييلهما وهو حزين .

وكان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل  
وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابته من عصبته فأتى ثوبه على  
تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فإن شاء أن يتزوجها  
تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت ، وإن شاء  
زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها  
وضرها لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت هي فيرثها ،  
فتوفي أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كيشة بنت  
الأنصارية ، فقام ابن له من غيرها اسمه قيس بن أبي قيس فطرح  
ثوبه عليها ، فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها يضارها لتفتدى منه  
بمالها ، فأتت كيشة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت :

(١) البقرة ٢٥٦

- يا رسول الله إن أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحي وقد  
أضرتني وطول علي ، فلا هو يثق علي ولا يدخل بي ولا هو يحلي  
سبلي .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
- اقلدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله .  
فانصرفت وسمعت بذلك النساء في المدينة فأتين رسول الله  
عليه السلام وقلن :  
- ما نحن إلا كهيئة كهيئة غير أنه لم يتكهننا الأبناء ونكحننا  
بنو العم .

فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا  
النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتیتموهن إلا أن  
يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فسي  
أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال  
زوج مكان زوج وآتیتم إحداهن قنطارا فلا تأخذنوا منه شيئا  
أناخذونه بهتانا وإنما ميئنا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم  
إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا . ولا تتكحوا ما نكح آباؤكم  
من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا (١) » .

وتوفى أوس بن ثابت الأنصاري وترك امرأة يقال لها  
أم كحة وثلاث بنات له منها : فقام رجلان هما ابنا عم الميت  
ووصياه يقال لهما سويد وعرفجة فأخذنا ماله ولم يعطيا امرأته شيئا  
ولا بناته ، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن

كان ذكرا . إنما يورثون الرجال الكبار وكانوا يقولون :  
— لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة .  
فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت :  
— يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك على بنات وأنا  
امرأة وليس عندي ما أنفق عليهن ، وقد ترك أبوهن مالا حسنا  
وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيانى ولا بناته من المال شيئا وهن  
في حجرى ، ولا يطعمانى ولا يسقيانى ولا يرفعان لهن رأسا .  
فدعاها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالا :  
— يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكى  
عدوا .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :  
— انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن .  
فانصرفوا فأنزله الله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان  
والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه  
أو كثر نصيبا مفروضا . » وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى  
والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا . وليخش الذين  
لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا  
قولا سديلا (١) .

ولما أنزل الله تعالى على رسوله : « الله ما فى السموات وما فى  
الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن  
يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير (٢) » . اشتد ذلك

على أصحباب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخل قلوبهم منها  
شيء لم يدخلها من قبل ، فجاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن  
عوف ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبي - صلى الله عليه  
وسلم - فجلسوا على الركب وقالوا :

- يا رسول الله والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية .  
إن أحدنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأن له الدنيا  
وما فيها ، وإنا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا هلكتنا والله .  
فقال النبي - صلى الله عليه وسلم :  
- هكنا أنزلت .

فقالوا :

- هلكتنا وكلفنا من العمل ما لا نطيق .  
- فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى : سمعنا وعصينا ،  
قولوا : سمعنا وأطعنا .  
- سمعنا وأطعنا .

واشتد ذلك عليهم وأنزل الله تعالى على نبيه : « آمن الرسول  
بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله  
لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا  
وإليك المصير (١) » .

ومكثوا جولا وهم في شدة يتدربون على تهذيب نفوسهم  
حتى لا توسوس في صدورهم بما يكرهون أن يبيحوا به ويعلموه  
على الملا به حتى أنزل الله الفرج والراحة بقوله : « لا يكلف الله

نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا  
إن نسيتنا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين  
من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا  
وارحمتنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (١) .

جلس أبو سفيان في الحرم باسر الوجه مقطب الحبين فهو قد  
نذر يوم أصاب قريشا في بدر ما أصابها أن لا يمسه رأسه ماء من جنابة  
حتى يغزو محمدا ، وما هي ذى الأيام تمر وقد اعتزل نساءه ولم يبر  
قسمه ، فغدا يفكر فيما يفعله ليريمه التي انتشرت في مكة انتشار  
الريح .

وداح أبو سفيان يستعيد تلك الأيام التي كان فيها رسول الله  
— صلى الله عليه وسلم — بين ظهرانيتهم في مكة ، فانه كان لا يسمع  
أحد كلامه إلا أحبه ومال إليه ، وكان الوليد بن المغيرة يحب أن  
يجلس إليه ويلتصق إليه سمعه حتى قال أعداء ابن عبد الله :

— نخاف أن يصير الوليد بن المغيرة إلى دين محمد ، ولئن صبا  
الوليد وهو ربحانة قريش لتصبون قريش بأجمعها .

ورن في أغوار أبي سفيان ما كان يقول الناس :

— ما كلامه إلا السحر . . إنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل

الحمر .

ورأى سادات قريش وهم ينهون صبيانهم عن الجلوس إليه  
لئلا يستميلهم بكلامه وشبائله ، قلوى شفته السفلى في مرارة  
ومخرية ، فما نفع الأبناء ذلك التحذير ، بل لكانما كان إغراء  
لهم على أن يرتموا في أحضان دعوته ، سحرهم حتى هان عليهم .

فراق الأهل فهاجروا إلى الحبشة ثم المدينة .  
وتذكر ابنته أم حبيبة ، إنها خرجت بعد أن أسلمت مع  
زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة وتركته وفضلت عليه إله  
محمد ودين محمد ، ولكن زوجها ما لبث أن ارتد إلى النصرانية  
وغدا يقول لأصحاب محمد : أبصرنا وأنتم تلتصمون البصر ولم  
تبصروا بعد . فلماذا لم يززع ارتداد زوجها عن دينه ثقتها في ذلك  
الدين الذي ابتدعه محمد ؟ ولماذا لم تعد إليه وهو سيد قريش  
تلمس منه الصفح ؟ إنها لو عادت مرتدة عن دين الإسلام لرحب  
بها وغفر لها زلتها وتلك المهانة التي لطخت بها نبي أمية جميعا يوم  
غرت بدينها إلى الحبشة .

ليت أم حبيبة تعود إليه الساعة معلنة توبتها مستغفرة عن  
صبوتها فإنها لو فعلت لقلبت هزيمة قريش انتصارا ، وهي أحوج  
ما تكون إلى تأييد معنوي يعيد إليها ثقتها التي زعزعتها هزيمة بدر .  
وأطرق برأسه كأنما يعلن هزيمته . فهو في عين ذاته يعلم أن  
أم حبيبة لن تعود إليه . إنه سيصحو من تومه ذات يوم لسمع أن  
ابنته قد هاجرت من الحبشة إلى حيث قد استقر المسلمون ، لكأنما  
قد استمرأت مهاتته والهزم من نبي عبد شمس .

وراح يسأل نفسه : ما الذي استهوى أم حبيبة في ذلك الدين ؟  
وما لبث أن رأى بعين خياله رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
وهو يصلي في الحجر ويجهر بتلاوته والمشركون يجعلون أصابعهم في  
آذانهم خوفا أن يسحروهم ويستميلهم بقراءته أو يولون على أديارهم  
تقورا .

وخطر على ذهنه أبو بكر ، إنه كان تاجرا ناجحا من أثرياء مكة ، راجح العقل سيدا في قومه ، فكيف آمن بما يدعو إليه محمد وكيف أنفق عن رضى كل أمواله في سبيل تلك الدعوة ؟ وتحرك غلظه فراح يسأل نفسه : أيرضى عن إتفاق أمواله كلها على العزى ؟ فإذا به يفرع ويؤكد لنفسه أن ذلك ليس من العقل وأن محمدا قد سحر أتباعه ولا ريب !

وعجب في نفسه كيف يصدق أناس عقلاء أن الله يبعث بشرا رسولا . وزاد عجبه لما تذكر أشراف قريش وهم يمشون إلى ابن عبد الله يعرضون عليه أن يملكوه عليهم وأن يترك دعوته التي تفرق بين الأهل فأبى عليهم ذلك . فإذا يريد محمد أكثر من أن يسود قومه ، أن يكون فيهم مثل كسرى وقيصر ؟

كانت آمال أبي سفيان أرضية فلم يكن يجد محمدا أعظم من أن يكون المرء سيد قومه ، شريفا مطاعا صاحب السلطة العليا الذي تتعلق مصائر الناس بكلمة ترفرف على شفثيه . وقد جاء الملك إلى محمد يسعى إليه وفتحت له خزائن قومه فإذا يريد من دنياه بعد ذلك الحياه والمال والسلطان ؟ !

لو قبل محمد الملك لقوض كل أحلام أبي سفيان ، ولكن أبا سفيان تمنى صادقا وهو يجرى وراء أفكاره لو أن محمدا عليه السلام قد قبل الملك الذي عرض عليه ، فنار الحسد التي كانت مترعى في جوفه أهون من النار التي تأكل أحشائه لقتل حنظلة وصناديد الرجال ، ولكن الأيام جاءت بما لا يشتهي أبو سفيان فقد آمن الأوس والخزرج بدعوة محمد فأصبحت المدينة خطرا

يهدد تجارة مكة وينذر بيوت المال فيها بالكساد . وقد وقع المحظور يوم بدر وأصبح طريق قوافل قريش إلى غزة في قبضة المسلمين وطريقها إلى العراق غير مأمون ، بل طريقها إلى نجد محفوقا بالأخطار . وقد أراد محمد أن يؤكد سلطانه على المنطقة فخرج إلى بني سليم وإلى غطفان حلفاء قريش في أصحابه ، فأثرت بتوسلهم وغطفان السلامة فانسحب الرجال إلى منازلهم تاركين عند مياههم جيش المسلمين المظفر هنا بالنصر في أمان .

أن أبا سفيان قد أقسم يوم أن جاءت أنباء قتلى بدر ألا يمسه النساء والطيب حتى يغزو محمدا ، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه حتى تزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد ، ثم انطلق إلى خيبر وأتى بني النضير تحت الليل فأتى حيي بن أخطب وضرب عليه بابه فأتى أن يفتح له .

كان حيي بن أخطب قد عزم على عداوة محمد عليه السلام منذ أن وطئت قلما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أرض يثرب ، وكان وأخوه أبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسدا وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا . فأنزل الله تعالى فيهما : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير (١) » . وكان مع نفر من يهود ياثون رجالا من الأنصار كانوا يخالطونهم ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيقولون لهم :

— لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة فانكم لا تبلرون غلام يكون . فأنزل الله فيهم :  
« الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتُمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (١) » .

كان حيي بن أخطب من أشد اليهود عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم — ولكنه أبى أن يفتح بابه لأبي سفيان ، فقد تذكر ما حاق ببني قينقاع لما نقضوا عهد محمد ، إنه جاصرهم في حصونهم وآطامهم حتى اضطروا إلى التسليم . ولولا عبد الله بن أبي بن سلول لضرب محمد أعناقهم ، فاقشعر جلد حيي وكره أن يكون نقمة على قومه فهان عليه أن يغلّق بابه في وجه سيد قريش .

وانسل أبو سفيان في جنح الليل إلى سلام بن مشكم سيد بني النضير ، إنه صاحب كنزهم فهو الذي تودع عنده حلبيهم ، ولطالما جاء إليه أبو سفيان يستعير منه الحلي لأهل مكة لقاء بعض المال . فاستأذن عليه فأذن له واجتمع به وراح يقص عليه أنه جاء في مائتي راكب من قومه ليغزو محمدا ، فدعاه سلام إلى الطعام والشراب وراح يقص عليه خبر الناس ، ولم يستطع أن يعده بمد يد العون لرجاله إذا ما دهموا المسلمين فما حاق ببني قينقاع كان ماثلا أمام عينيه .

ونخرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة ، فأتوا ناحية منها يقال لها العريض فحرقوا نخلا فيها ووجدوا بها رجلا من الأنصار وحليفا له في حرث لها

فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلت قريش فاستعمل على المدينة بجشير بن عبد المنذر وخرج رسول الله عليه السلام في طلبهم في معاتنين من المهاجرين والأنصار . وخاف أبو سفيان وأصحابه أن يلحق بهم الذين خرجوا في طلبهم فجمعوا يتخفون بالقاء أزوادهم وكان أكثر ما طرح القوم جرب السوق ، فأخذته المظليون ثم عادوا إلى المدينة بعد خمسة أيام .

ورأى أبو سفيان يقول :

وإني تخرت المدينة واحدا  
سقلني فرواني كميتا مدامة  
عزما تولى الجيش قلت ولم أكن  
تأمل فان القوم سر ولأهم  
وما كان إلا بعض ليلة راكب  
وذاع أمر غزوة السوق في القبائل فأصبح أبو سفيان سخرية  
القوم ومادة التلر في نواديهم ، فقد افعل غزوة لير يمينه ويخدع  
نفسه حتى يمس النساء والطيب دون أن يخشى في ذلك لومة لائم !

خرج أمية بن أبي الصلت من الشام قاصدا مكة : فاذا به يعيش طوال الطريق مع ذكريات الأيام فيرى نفسه تارة وهو يخرج مع أبي سفيان بن حرب إلى بلاد فارس وتارة وهما ينطلقان إلى دمشق : فقد كانا حليفين قلما يفترقان .

ومرت القافلة بصومعة راهب. فاذا بالذكريات تنثال على رأسه ، إنه اعتنق النصرانية منذ الشباب وقرأ في كتبها أن نبيا عربيا يعيش وقال له الرهبان أن قد أظل زمانه ، فكان يطمع في أن يكون ذلك النبي وسرعان ما رأى نفسه بين نساء ثقيف يحدثهن عن ذلك النبي وأنه هو ، فأحس وهو على ظهر راحلته عرق الخجل يتصبب على وجهه ويبلل لحيته .

ورن في أغواره ذلك الحديث الذي دار بينه وبين أبي سفيان ذات يوم ، إنه حديث قد حفر في عين ذاته يتردد في نفسه بين آن وآن لكانما قد صار نشيد حياته :

— هيا صخر .

— ما تشاء ؟

— حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجنب المظالم والمحارم ؟

— إى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

- إى والله .
  - وكريم الطرفين وسط في العشرة ؟
  - نعم .
  - فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟
  - لا والله لا أعلم .
  - أمحوج هو ؟
  - لا ، بل هو ذو مال كثير .
  - وكم أتى عليه من السن ؟
  - قد زاد على المائة .
  - فالشرف والسن والمال أزرين به .
  - ولم ذلك يزرى به ؟ لا والله بل يزيد خيرا .
  - هو ذلك .
- وظفا على سطح ذهنه الحديث الذى دار بينه وبين العالم  
النصرانى الذى كان قد دخل عليه ، ذلك الحديث الذى كان سبب  
الحوار الدائر بينه وبين أبى سفيان .
- أخبرنى عن هذا النبي الذى ينتظر .
  - هو رجل من العرب .
  - قد علمت أنه من العرب ، فمن أى العرب ؟
  - من أهل بيت يحجه العرب .
  - وفيما بيت تحجه العرب .
  - هو من إخوانكم من قريش .
- وكان أمة تقنيا وكان البيت الذى يحجه العرب في الطائف

هو اللات . فلما انبعث من أغوار نفسه صوت العالم النصراني  
محددا قريش أصابه شيء ما أصابه مثله قط ، وخرج من يده فوز  
الدنيا والآخرة .

- فصفه لي .

- رجل شاب حين دخل إلى الكهولة ، بدو أمره يجتنب  
المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو مجوح كريم  
الطرفين متوسط في العشرة أكثر جنده من الملائكة .

ورأى أبا سفيان بن حرب يدخل عليه وهو في الطائف وإذا  
ما كان بينهما من حوار في ذلك اليوم يدوي بين جنبيه :

- هل تذكر قول النصراني ؟

- أذكره وقد كان .

- ومن ؟

- محمد بن عبد الله .

- ابن عبد المطلب ؟

- ابن عبد المطلب .

- والله يا أبا سفيان لعله : إن صفته لمي ولئن ظهر وأنا حي

لأطعن من الله عز وجل في نصره عنرا .

ثم رأى أبا سفيان وقد قفل راجعا من اليمن فإذا بصدي الحوار  
يرجع في نفسه :

- يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته .

- قد كان لعمرى .

- فأين أنت من أبا عثمان ؟

— والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا .  
ومرت الثمانين السنين التي قضاها في البحرين في ذهنه مرور  
الطيف ورأى نفسه وهو يقدم الطائف فيقول :

— ما يقول محمد بن عبد الله ؟

— يزعم أنه نبي هو الذي كنت تمنى .

واحتل صفحة ذهنه خروجه حتى قدم عليه مكة فلقبه :

— يا ابن عبد المطلب ما هذا الذي تقول ؟

— أقول إني رسول الله وأن لا إله إلا هو .

— إني أريد أن أكلمك فعلمني غدا .

— فموعلك غدا .

— فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي

وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك ؟

— أي ذلك شئت .

— فإني آتيك في جماعة فأت في جماعة .

وأرخصي الليل سلوله واستمرت القافلة تغد السير في الظلمات

بيننا أضاءت نفس ابن أبي الصلت بالذكريات ، فهو يرى في

وضوح نفسه وهو يغدو في جماعة من قريش ورسول الله — صلى

الله عليه وسلم — يغدو معه نضر من أصحابه حتى جلسوا في ظل

الكعبة ، فبدأ يخطب ثم يسجع ثم ينشد الشعر ثم يقول :

— أجبني يا ابن عبد المطلب .

— بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم . إنك

لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر

قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم  
فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان  
فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا  
فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم  
تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكرو وخشى الرحمن  
بالغيب فيشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحيي الموتى ونكتب  
ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين (١) .

وسرى صوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وجدانه  
حتى أتى على السورة كلها وأمية بن أبي الصلت يرتجف فوق  
راحلته من الرأس إلى القدم ، إنه يحس نفس الإحساس الذي  
استولى عليه يوم أن سمع السورة في مكة ، إلا أن صدره قد  
انشرح لها وهو يسرى في معبد الله والله أقرب إليه من حبل  
الوريد .

إنه وثب يوم أن فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من  
تلاوة يس بحر رجليه فتبعته قريش يقولون :

- ما تقول يا أمية ؟

- أشهد أنه على الحق .

- هل تبعه ؟

- حتى أنظر في أمره .

إنه خرج إلى الشام وقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
المدينة ولم يستطع أن يفر من الحقيقة التي انبلجت في سريره ،

إِنَّهُ كَانَ يَنْتَظِرُ نَبِيًّا وَقَدْ بَعَثَ ذَلِكَ النَّبِيَّ فَحَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ  
وَلِإِنْ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ هُوَ نَفْسَهُ رَسُولَ اللَّهِ . فَرَأَى فَرَّاحَ يَرَاوِدُ  
نَفْسَهُ عَلَى أَنْ تَرْضَى بِقَضَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا مَا بَرَأَ قَلْبُهُ مِنْ مَرَضِ  
الْحَسَدِ خَرَجَ لِيُعْلَنَ عَلَى الْمَلَأِ شَهَادَةَ الْحَقِّ الَّتِي كَتَمَهَا مِنْذُ أَوَّلِ يَوْمِ  
عَرَفَ فِيهِ أَنَّ النَّبُوَّةَ كَانَتْ فِي ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ .

وَانْفَعَلَ بِالذِّكْرِيَّاتِ فَرَّاحٌ يَنْشُدُ :

بَاتَتْ هَمُومِي تَسْرِي طَوَارِقَهَا

أَكْفَ عَيْنِي وَالِدَمْعَ سَابِقَهَا

أوت برّة بعض ناطقها (١)	هما أتاني من اليقين ولم
ار محيط بهم سرادقها	أم من تلظي عليه واقدة الذ
أبرار مصفوفة نمارقها	أم أسكن الحنة التي وعد ال
أعمال لا تستوى طرائقها	لا يستوى المنزلان ثم ولا ال
نة حفت بهم حدائقها	هما فريقان فرقة تدخل الج
ار فساءتهم مراققها	وفرقة منهم قد أدخلت الذ
همت نجر عاقت عوائقها	تعاهدت هذه القلوب إذا
جنسة دنيا الله ناحقها	وصدها للشقاء عن طلب ال
يعلم أن البصير رامقها	عبد دعا نفسه فعاتبها
نحي قليلا فالموت لاحقها	ما رغبت النفس في الحياة وإن
يوما على غرة يوافقها	يوشك من فر من نيته
للموت كأس والمرء ذائقها	إن لم تمت غبطة تمت هرما

ونزلت القافلة مياه بدر وأمّية بن أبي الصلت يتحرق شوقا

(١) برة علم جنس للعميرة .

( غزوة بدر )

للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشهد أن لا إله إلا الله -  
وأن محمدا رسول الله ، وغدا يتأهب للانطلاق إلى المدينة فقال:  
قائل :

— يا أبا الصلت ما تريد ؟

— أريد محمدا .

— وما تصنع ؟

— أومن به وألتي إليه مقاليد هذا الأمر .

والتفت الرجل إلى القليب الذي ألتي فيه قتلى بدر ثم قال :

— أتدرى من في القليب ؟

— لا .

— فيه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة :

لإنهما ابنا خالته ، فأمه ربيعة بنت عبد شمس وأمهما بنت-  
عبد شمس ، فجذع أذن ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب-  
يقول :

ماذا يبدر فالتنـ قتل من مرازية ججاج (١)

واستمر ينشد قصيدته ثم رجع إلى مكة والطائف وترك-

الإسلام :

وعاش أمة أيامه وهو قلق حائر بين الخير الذي أريد به-  
وبين حسده الذي كان يحول بينه وبين أن يركب إلى المدينة-  
ليعلن إسلامه حتى راح يجود بأنفاسه . فأتى أخته الفارعة الخير  
فانصرفت إليه فوجدته ممددا قد صبغى عليه فدنث منه فشهو شهقة :

(١) الججاج : السادة . والمرازية : رؤساء القوس .

وشق بصره ونظر نحو السقف ورفع صوته وقال :  
— لبيكما لبيكما ، هاأنذا لديكما ، لا ذو مال فيفديني ،  
ولا ذو أهل فتحميني .

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقالت أخته :  
— قد هلك الرجل .

فشق بصره نحو السقف فرقع صوته فقال :  
— لبيكما لبيكما ، هاأنذا لديكما ، لا ذو براءة فأعتنر ،  
ولا ذو عشيرة فأنتصر .

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف  
فقال :

— لبيكما لبيكما ، هاأنذا لديكما ، بالنعمة محفود ، وبالذنب  
محضود .

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقال :

— لبيكما لبيكما ، هاأنذا لديكما .

إن تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

ثم أغمى عليه إذ شهق شهقة فقال :

كل عيش وإن تطاولده را صائر مرة إلى أن يزولا

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي

في قلال (١) الجبال أرعى الوعولا

فاجعل الموت نصب عينيك واحلر

غولة الدهر إن الدهر غولا

(١) - جمع مفردة قلة : وهي أعلى الجبل .

نائلًا ظفرها القساور (١) والصد  
عان (٢) والطفل في المنار الشكيلا  
ونبات (٣) النياف (٤) واليعفر (٥) النا  
فر والموهج (٦) البرام الضئلا  
ومات أمية بن أبي الصلت شاعر النصرانية من كاد أن  
يسلم ، دون أن ينطق لسانه بشهادة الحق وإن كان منها على  
يقين .

---

(١) جمع قسورة وهو الأسد

(٢) والصنعان : نيران الوحش

(٣) النبات : الرخم

(٤) النياف : الجبال

(٥) واليعفر : الظبي

(٦) والموهج : ولد النعامة يعنى أن الموت لا ينجو منه الوحش في البراري

ولا الرخم الساكنة في رموس الجبال ولا يترك صغيرا لصخرة ولا كبيرا لكبرة .

كانت سليم في شرق المدينة ومنازل بني سليم في عالية نجد .  
 بالقرب من خيبر تمتد إلى جنوبي المدينة إلى منتصف المسافة .  
 تقريبا بينها وبين مكة من ذات عرق . وكانت ظروف الحياة تحتم  
 تحالف القبائل لضمان أمنها فقانون الصحراء يسود المنطقة ،  
 القبائل القوية تلتهم القبائل الضعيفة ، فراحت كل قبيلة تقوى  
 نفسها بعقد محالفات مع غيرها فالحلف يقوم على أن ينصر  
 الحليف حليفه وأن يمنع مما يمنع منه نفسه وأن يكون يدا معه  
 على غيره .

وقد تحالفت سليم مع قريش ، فلما نشب القتال في بدر  
 بين المسلمين والمشركين وروت دماء سادات قريش أرض .  
 الصحراء ، أرادت سليم أن تتحرك لتتأثر لحلفائها . وقد أحس  
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك فخرج يغزو بنفسه بني سليم .  
 بعد عودته من بدر إلى المدينة بثمانية أيام ، وكانت حركته  
 عليه السلام سريعة ألقت الرعب في قلوب حلفاء أعدائه فانسحبوا  
 إلى منازلهم وأغلقوا دورهم عليهم ، ونزل عليه السلام والذين  
 معه على مياههم ومكث ثلاثة أيام لم يلق فيها كيدا ، فقفلس .  
 راجعا إلى المدينة يرصد حركات القبائل المعادية التي تلتف  
 حوله .

وراحت الحياة تسير على ما لوفها في سليم، الرجال يشنون الغارات على القوافل للسطو والنساء ينقلن الماء في الجرار إلى الدور ويرعين الغنم ويبدلن عنايتهن للنعم . ولما كان القتل في بدر قد استشرى في سادات حلفائهم فقد وجد شعر الخنساء صدى في نفوسهم انتقل إلى مكة لتندب به الناديات .

كانت الخنساء أشهر شخصية في سليم وكانت تنوح على أخويها معاوية وصخر ، ومرعان ما تتلقف النائح في سليم وقريش شعرها للنواح به في المناحات ، وكان ذلك الشعر يتسلل إلى المدينة وقد ينشده بعض نساء الأنصار والمهاجرين اللاتي فجعن في الأعزة من الآباء والأخوات وفلذات الأكباد :

يا عين جودي بالدمو	ع المستهلات السوافح
فيضاً كما فاضت غرو	ب(١) المترعات من النواضح
وابكى لصخر إذ ثوى	بين الضريحة والصفائح
رمسا لدى جدث تديع	يربه هوج النوافح
السيد الجحججاج وابن	السادة الثم الجحجاج
الحامل الثقل المهم	من الملمات الفوادح
الجابر العظم الكسير	من المباصر والمعانح
الواهب المائة الهجا	ن من الخنازيد(٢) السوابح
الغافر الذنب العظيم	لدى القرابة والممالح
بتعمد منه وحلم	حين يبغى الحلم راجح

(١) الغروب : جمع غرب وهو الدلو

(٢) الخنازيد : الفحل

ذاك الذى كنا به      ونشى المراض من الجوانح  
ويرد بادرة العلو      ونخوة الشنف (١) المكاشح  
فأصابنا ريب الزما      ن فسالنا منه بنساطح  
فكأثما أم الزما      ن نحورنا بمدى الذبائح  
ففساونا ينسدين نو      حا بعد هادية النوائح  
يخن بعد كرى العيو      ن حنين والهة قوامح (٢)  
شعث شر الا ينيب      ن إذا ولي ليل النوائح  
ينسدين فقد أخى الندى      وانخير والشيم الصوالح  
والخود والأيدى الطوا      ل المستفيضات السوامح  
قالآن نحن ومن سوا      نا مثل أسنان القوارح (٣)  
كانت قريش تبكى قتلاها وكانت سليم تمد النائحات بما  
يشدنه ، بينما كان شعراء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفتخرون  
بانتصار المسلمين فى بدر ، فها هو ذا حسان بن ثابت يربط بين  
المقدمة الغزلية والغزوة الكبرى فيقول :  
يا من لعاذلة تلوم سفاهة  
ولقد عصيت إلى الهوى لوامى  
بكرت على بسحرة بعد الكرى  
وتقارب من حادث الأيام  
زعمت بأن المرء يكرب يومه  
عدم لمعتكر (٤) من الإصرام

(١) الشنف : الجفن المتكون

(٢) الأيل القوامح : التى أشد عطشها

(٣) القارحة : التى وقعت أسنانها

(٤) اعتكر : كر وأنصرف

إن كنت كاذبة الذي حدثني  
فنجوت منجى الحارث بن هشام (١)  
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم  
ونجا برأس طمرة (٢) ولحام  
جرداء تمزع (٣) في الغبار كأنها  
مرحان (٤) غاب في ظلال غمام  
قدر العناجيج (٥) الحياض بقفرة  
مر الدمول بمحصد ورجام  
ملات به الفرجين فارمدت (٦) به  
وثوى أحبته بشر مقام  
وبنو أبيه ورهطه في معرك  
نصر الإله به ذوى الإسلام  
طحتهم — والله ينفذ أمره —  
حرب يشب سعيها بضرام  
لولا الإله وجريه لتركه  
جزر السباع ودسنه بحوام (٧)  
كانت الأشعار تنتقل بين مكة والمدينة والقبائل ، وكانت

(١) وكان قد فر من المعركة في بدر

(٢) الطمر : الفرس الجواد

(٣) تمزع : تشب

(٤) السرحان : اللب

(٥) العناجيج : جمع عنجوج وهو النجيب من الخيل

(٦) أرمدت : أسرعت

(٧) الحوامى : ميامن الحافر ومياسره

الأنباء تفد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع رجال انبثوا في كل مكان في الجزيرة العربية وكانت قلوبهم مع الإسلام . فبلغ رسول الله عليه السلام أن جمعا من بني سليم وغطفان بقرقرة الكدر يريدون الإغارة على المدينة بعد أن غزاهم - صلى الله عليه وسلم - عقب غزوة بدر بثمانية أيام لما علم أنهم يريدون الثأر لحلفائهم من قريش ، فسار إليهم في مائتين من أصحابه وحمل لواءه علي بن أبي طالب من أصبح اسمه يلقي الرعب في قلوب أعداء الإسلام بعد أن صال وجال في بدر وقطع رقاب صنائيد قريش وفرسانهم ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

وسار عليه السلام والذين معه حتى نزل قرقرة الكدر وهي أرض ملساء فيها طيور في ألوانها ككرة عرف بها ذلك الموضع ، فلم يجد به أحدا ، وأرسل نفرا من أصحابه إلى أعلى الوادي واستقبلهم في بطن الوادي فوجد خمسمائة بعير مع رعاة منهم غلام يقال له يسار ، فاستولوا عليها وانحدروا بها إلى المدينة . فلما كانوا بمحل على ثلاثة أيام من المدينة خمسمائة صلى الله عليه وسلم ، فأخرج خمسة وقسم الأربعة الأخماس على أصحابه فخص كل رجل منهم بعيران ، ووقع يسار في سهمه صلى الله عليه وسلم .

وراح يسار يرقب رسول الله عليه السلام فإذا به يجد الإنسان الكامل ، ففتتح له قلبه وألقى سمعه إلى ما يقرأ من القرآن فإذا بأنوار اليقين تملأ صدره فيتحرك لسانه بشهادة الحق ويقوم يصلي مع المسلمين وقد استبشرباً أن هداه الله الصراط

المستقيم ، فلما رآه عليه السلام في صفوف المؤمنين أعتقه لوجه  
الله الكريم .

وعاد - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة بعد أن غاب عنها  
خمس عشرة ليلة ، وغدا يوزع خمس الغنائم على الفقراء  
والمساكين وابن السبيل فقد كان له الخمس والخمس مردود  
على المحتاجين فما كان يدخل داره منها شيء ، فقد اختار أن  
يجوع يوما فيسأل الله وأن يشبع يوما فيحمد الله .

وأحس المسلمون عزة فراحوا يتفقهون في دينهم يلقون  
أسماعهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويحفظون ما أنزل  
عليه من ربه فرحين بما آتاهم ، بينما كان بنو سليم يفعلون لشعر  
الخنساء ويترنحون بمراثيها لأخويها لكانما قد باتت الدنيا مناحة  
لموت رجلين :

أعيني جودا ولا تجمدا      ألا تبكيان لصخر الندى

ألا تبكيان الحري الحميل

ألا تبكيان الفتى السيدا

طويل النجاد رفيع العما      دساد عشيرته أمردا

إذا القوم مسروا بأيديهم      إلى المجد مد إليه يدا

فقال الذي فوق أيديهم      من المجد ثم مضى مصعدا

يكلفه القوم ما عالم      وإن كان أصغرهم مولدا

ترى المجد يهوى إلى بيته

يرى أفضل الكسب أن محمدا

وإن ذكر المجد ألفيته      تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقد تأثر بعض نساء المسلمين ورجالهم بذلك التوايح فكانوا يقولون إذا ما تحدثوا عن قتلى بدر من المسلمين وكانوا بضعة عشر رجلا ، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين :  
— مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها .  
فأنزل الله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواته بل أحياء ولكن لا تشعرون(١) » .

كان المسلمون في المدينة يأتون البساتين يأكلون ويشربون ، وكانت الخمر تلعب برءوس بعضهم فيأتي من الأقوال أو الأفعال ما ينكرون . وكان أناس منهم يلعبون الميسر فكانوا يلعبون الجزور ويقطعونه عشرة أجزاء ثم يلعبون عليها فمن خسر دفع ثمن الذبيحة بينا توزع اللحوم على فقراء المدينة ، وكان الذين يلعبون لا يجلبون في الميسر من بأس ما دام النفع يعود على الفقراء والمساكين وابن السبيل .

وجاء رجال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يسألونه عن الخمر والميسر فأنزل الله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر نقل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » (١) . فلما قرئت على عمر قال :

— اللهم بين لنا من الخمر بيانا شافيا .

وكان مسجد الرسول — صلى الله عليه وسلم — منارة العلم في المدينة ، فكان الصحابة يجلسون إليه عليه السلام ويلقون إليه أسماهم فإذا بالحكمة تنسكب في أعماقهم ، وإذا بالرعاة البسطاء والتجار الذين كانت كل معارفهم ما يتجرون فيه من طيب وبز وأقوات وبعض معلومات عن البلاد التي جابوها

يبتلقون من العلم ما يؤولهم لأن يصبحوا رعاة أمم وخير أمة  
أخرجت للناس .

و ذات يوم جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكر  
الناس ووصف القيامة ولم يزد هم على التخويف فرق الناس وبكوا ،  
فاجتمع أناس من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الحمصي ،  
فيهم أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب وعبد الله ابن مسعود  
يوسالم مولى أبي حذيفة والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي  
واتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفرش  
ولا يأكلوا اللحم ولا الودك ويترهبوا ، فبلغ ذلك رسول الله - صلى  
الله عليه وسلم - فجمعهم فقال :

- ألم أنبأ أنكم اتفقتم على أن تصوموا النهار وتقوموا الليل  
ولا تناموا على الفرش ولا تأكلوا اللحم ؟  
- بلى يا رسول الله وما أردنا إلا الخير .

فقال عليه السلام :

- إني لم أؤمر بذلك ، إن لأنفسكم عليكم حقا فصوموا  
وأفطروا وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأكل  
اللحم والدم ، ومن رغب عن سنتي فليس مني .

ثم خرج إلى الناس وخطبهم فقال :

- ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنسوم  
وشهوات الدنيا ، أما إني لست آمركم أن تكونوا قسيسين  
ولا رهبانا ، فإنه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذ  
الصوامع . وإن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتها الجهاد . واعبدوا

الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمرُوا وأقيموا الصلاة  
وآتوا الزكاة وصوموا رمضان ، فإنما هلك من كان قبلكم  
بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم في الديارات  
والصوامع . فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا  
طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .  
وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به  
مؤمنون (١) » .

وكانوا قد حلفوا أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا  
على الفرش ولا ياكلوا اللحم ولا يقربوا النساء فقالوا :

— يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها ؟

فأنزل الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن  
يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من  
أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن  
لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا  
أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (٢) » .

وراح المسلمون يشربون الخمر ويقولون :

— ما حرم علينا إنما قال : « فيها إثم كبير » .

وغدوا يقولون لرسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— يا رسول الله دعنا ننتفع بها كما قال الله تعالى .

فسكت عنهم وظلوا يشربون حتى كان يوماً من الأيام صلى  
رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب خلط في قراءته «

فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (١) » .  
- حرمت الخمر .

فقالوا :

- يا رسول الله إنا لا نشربها قرب الصلاة .  
فسكت عنهم وكان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة ينادى :

- لا يقربن الصلاة سكران .  
كان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق ، وكان عمر بن الخطاب يقول :

- اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا .  
وأتى سعد بن أبي وقاص على نفر من المهاجرين فقالوا :  
- تعال نطعمك ونسقيك خمرا .

فأقامهم في بستان وإذا رأس جزور مشويا عندهم وذن من خمر ، فأكل وشرب معهم وذكر الأنصار والمهاجرين فقال :  
- المهاجرون خير من الأنصار .

أخذ رجل لحي الرأس فجدع أنفه بذلك ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره .

وشربت قبيلتان من قبائل الأنصار ، فلما ثمل القوم عبث بعضهم ببعض فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته فيقول :

— صنع بي هذا أخى فلان ، والله لو كان بي رعوفا رحيمًا  
ما صنع هذا بي .  
وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغائن فأذا بالضغائن تقع في  
قلوبهم .

وكان لعلي بن أبي طالب ناقة من نصيبه من المغم يوم بدر ،  
وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أعطاه ناقة من الخمس ،  
ولما أراد أن يتنى بفاطمة بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم —  
واعد رجلا صواغا من بني قينقاع أن يرتحل معه فيأتيان بأذخر ،  
أراد أن يبيعه من الصواغين فيستعين به في وليمة عرسه .  
كانت الناقتان مناختان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار ،  
وكان على يجمع لناقتيه من الأقتاب والغرائر والحبال ، وكان  
عمه حمزة بن عبد المطلب في بيت الأنصاري يشرب عنده وقينة  
تقول في غنائها :

ألا يا حمز للشرف النواء      وهن معقلات بالفناء .

زج السكين في اللبات منها

فضرجهن حمزة بالدماء .

فأطعم من شرائحها كبابا      ملهوجة على رهج الصلاة .

فأنت أبا عمارة المرجى      لكشف الضر عنا والبلاء .

فوثب إلى السيف فأجب أصنام ناقتي علي بن أبي طالب  
وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما ، فلما جاء علي ورأى  
ما وقع لناقتيه لم يملك عينيه حين رأى ذلك المنظر ، قال :

— من فعل هذا ؟

— فعله حمزة وهو في البيت في شرب من الأنصار .  
فانطلق على حتى أدخل على النبي — صلى الله عليه وسلم — وعنده  
زيد بن حارثة ، فعرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذي  
لقي فقال :

— مالك ؟

— يا رسول الله ما رأيت كاليوم . عدا حمزة على ناقتي  
وجب أسنمتها وبقر خواصرهما . ها هو ذا في بيت معه شرب  
شرب .

فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بردائه ، ثم انطلق يمشي  
فاتبع على أثره وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي هو فيه ،  
فاستأذن فأذن له فاذا هم شرب ، فطفق رسول الله — صلى الله عليه  
وسلم — يلوم حمزة فيما فعل ، فاذا حمزة ثمل محمرة عيناه . فنظر  
حمزة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، ثم صعد النظر فنظر  
إلى وجهه ثم قال :

— وهل أنتم إلا عبيد أبي ؟

فعرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه ثمل ، فنكص  
على عقبيه القهقري فخرج وخرج على زيد . وأنزل الله تعالى :  
« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس  
من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان  
أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم  
عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون (١) » ، فقال رسول الله

— صلى الله عليه وسلم :

— حرمت الخمر .

ودُعي عمر فقُرئت عليه . فلما بلغ « فهل أنتم متتهون »  
قال عمر :

— انتهينا .

وكان أنس بن مالك ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت  
أبي طلحة ، كان يسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل  
ابن البيضاء ونفرا من أصحابه حتى كان الشراب يأخذ بهم ،  
فاذا مناد ينادى ، قال أبو طلحة :

— اخرج فانظر .

فخرج أنس فاذا مناد ينادى :

— ألا إن الخمر قد حرمت .

فقالوا :

— يا أنس ، أكف ما بيتي في إنائك .

فما قالوا حتى ننظر ونسأل ، بل أطاع المسلمون وغدوا  
يهرقون ما عندهم من الخمر .

وتوضأ بعض الرجال واغتسل بعضهم وطيبوا ثم خرجوا  
إلى المسجد ، فاذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقرأ :  
« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس  
من عمل الشيطان فاجتنبوه . . . » ثم قال :

— من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتها .

فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم :

- عندي راوية .

ويقول الآخر :

- عندي زق .

أوما شاء الله أن يكون عنده ، فقال - صلى الله عليه وسلم :  
- اجمعوا ببيع كذا وكذا ثم آذنوني .

ف فعلوا ثم آذنوه ، فقام وقام معه عبد الله بن عمر ومشى عن  
يمينه وهو متكئ عليه ، فلحقهما أبو بكر فأخبره رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم - فجعله عن شماله وجعل أبا بكر في مكانه ،  
ثم لحقهم عمر بن الخطاب فأخبر رسول الله عبد الله بن عمر وجعل  
عمر عن يساره ، فمشى بينهما حتى بلغوا المربد ، فاذا بزقاق  
على المربد فيها خمر فقال للناس :  
- أتعرفون هذا ؟

- نعم يا رسول الله ، هذه الخمر .

- صدقتم ، فان الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها  
وساقبها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها .

فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة فقال :

- اشحنوها .

- ففعلوا ، ثم أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرق

بها الزقاق فقال الناس :

- في هذه الزقاق منفعة .

- أجل . ولكني إنما أفعل ذلك غضبا لله عز وجل لما فيها

من سخطه .

فقال عمر :

- أنا أكفيك يا رسول الله .

- لا .

وجرت الحمر في سلكك المدينة أنهارا .

وقال أناس :

- يا رسول الله أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟

فأنزل الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات

جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا و عملوا الصالحات ثم اتقوا

و آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين (١) » .

كان لخطفان إله على مشارف الشام يدعى الأقيصر فكانوا  
يحجون إليه كما كانوا يحجون إلى البيت العتيق ، وكانوا يفخرون  
بشاعرهم النابغة الذبياني فقد كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ  
وكان الشعراء من كل القبائل يخفون إليها ليحتكموا إليه  
في أشعارهم :

وكان حساد النابغة من خطفان يقولون إن الرباح بن ميادة  
أشعر خطفان وهو خير لقومه من النابغة ، فهو لا يمدح غير قريش  
وقيس بينا يهذى النابغة باليمن ويطوف على ملوك الحيرة يعيش  
بشعره على موائد المناذرة .

وكانت خطفان سعيدة بتحالفها مع قريش ، فقريش سادات  
البيت الحرام الذي يأمن فيه الطير ولأشرافها الكلمة المسموعة  
في العرب ، وهم ذوو قوة ومنعة وأصحاب تجارة مملوذة وجاء  
وسلطان ونجدة .

وكانت خطفان مطمئنة بحلفها لا تخشى غدر جيرانها من  
القبائل ، وكانت في نفس الوقت على صلة وثيقة بالأوس  
والخزرج فمساكنها كانت قريبة من خيبر ، فكان الغطفانيون  
يزورون يثرب وينزلون بأسواقها فتوطدت صلوات طيبة بينهم  
وبين اليثريين من أوس وخزرج ويهود .

وكان لغطفان أثر في الحروب التي كانت تنشب بين الحنين  
والحنين بين الأوس والخزرج ، فقد بعث رجل من غطفان من  
بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان إلى يثرب بفارس ومُحلة مع رجل من  
غطفان وقال :

— ادفعهما إلى أعز أهل يثرب :

فجاء الرجل بهما حتى ورد سوق قينقاع فقال ما أمر به ،  
فوثب إليه رجل من غطفان كان جاراً للمالك بن العجلان الخزرجي.  
يقال له مالك بن الثعلبي فقال :

— مالك بن العجلان أعز أهل يثرب .

وقام رجل آخر فقال :

— بل أحيحة بن الحلاج أعز أهل يثرب .

وكثر الكلام فقبل الرسول الغطفاني قول الثعلبي الذي  
كان جاراً للمالك بن العجلان ، ودفعهما إلى مالك فقال كعب  
الثعلبي :

— ألم أقل لكم إن حليفي أعزكم وأفضلكم !

فغضب رجل من بني عمرو بن عوف يقال له سُمَيْيْر فرصد  
الثعلبي حتى قتله ، فشبت بين الأوس والخزرج حرب سُمَيْيْر .  
وظلت علاقة غطفان بيثرب طيبة حتى هاجر إليها رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، وهجر الأنصار عبادة الأوثان فتغيرت  
قلوب الغطفانيين وأصبح هواهم مع قريش ، فقد كان في جوف  
الكعبة صنم لإلههم الأقيصر وكانت قريش حاملة لواء الدفاع  
عن الأصنام .

ووقع الصدام بين قريش ومحمد عليه السلام وصحبه عند  
بدر وانتصر المسلمون وقتل صناديد قريش . وقال أعداء  
الإسلام لما سمعوا بمقتل أشرف حماة الحرم : لبطن الأرض  
خير من وجهها ، وكانت غطفان ممن ساءها هزيمة حلفائها  
فأرادت أن تدهم المدينة بالمهجوم لتقوم بحق الحلف انتقاما  
لأصحاب القليب . ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أفسد  
تدبير القوم فقد فاجأهم بالمهجوم عقب بدر ، فأغلقوا عليهم منازلهم  
ولم يحركوا ساكنا ، ونزل محمد - صلى الله عليه وسلم - والذين  
معه مياههم ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة دون أن يلقي كيذا .

وكان الغطفانيون يستشعرون مهانة لأنهم لم يقوموا بحق  
الحلف الذي كان بينهم وبين قريش ، فكانت فكرة الهجوم على  
المدينة هجوما خاطفا تداعب أخيلتهم حتى قام رجل منهم يدعى  
دعثور بن الحرث الغطفاني من بني محارب يجمع جمعا من  
ثعلبة ومحارب ليصيبوا من أطراف المدينة حتى يحفظوا ماء  
وجوههم أمام حلفائهم سادات الحرم الذين قتل أشرافهم عند  
بدر .

وبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يدبر دعثور ، فخرج  
إليهم في أربعمئة وخمسين رجلا لاثنتي عشرة ليلة مضت من  
شهر ربيع الأول ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وأصاب أصحاب رسول الله عليه السلام رجلا منهم يقال  
له حباب من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ، فلما نظر إليه هابه وأحس نفسه تذهب شعاعا ، فما

إن سأله عليه السلام عن دعشور ومن معه حتى راح الرجل  
يقص كل شيء ، ثم قال له :

- لن يلاقوك ولو سمعوا بمسيرك إليهم هربوا في رعوس.  
الجبال وأنا سائر معك .

وراح حباب يرصد المسلمين ، إنهم رهبان في الليل فرسان.  
بالتنهار ، إخوان متحابون . وأنبججت الدهشة في نفسه فقد كان.  
على علم بالعداوة التي كانت بين الأوس والخزرج ، فمن ذا الذي  
طهر قلوب أقوام كانت تنبض بالضغينة والحقد ؟ ومن ذا الذي  
صهرهم في بوتقة واحدة فأصبحوا أنصارا لئبيهم لا فرق بين  
خزرجي وأوسي ؟ ! وغدا حباب يصغي إلى ما يتلون من قرآنه  
فاذا به يسمع : ه وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض  
جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز  
حكيم (١) . فانزاحت الدهشة عنه فما كان بشر بقادر على أن  
يؤلف بين تلكم القلوب المتنافرة مهما كان على خلق عظيم ،  
إنها قلرة إله عزيز حكيم التي ألفت بين أعداء الأوس فأصبحوا  
بنعمة الله إخوانا ، وألى التصديق في عين ذات حباب فأسلم.  
وضمه - صلى الله عليه وسلم - إلى بلال .

كان بلال لا يفارق رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فاذا  
ما حان أوان الصلاة كان يؤذن للمسلمين فكانوا يهرعون  
ليصطفوا خلف النبي عليه السلام ، وكان لا يتناول طعاما إلا  
من طعام النبي وكان غالبا بعض تمرات أو قعب لبن ، فأصبح

حباب رفيق بلال وغدا يتهلل بالفرح أن صار في صحبة نبي الإسلام عليه السلام ينهل من فيض علمه ويسعد بأنوار اليقين التي تأتلق في صدره .

وأخذ حباب بالمسلمين طريقا وهبط بهم على غطفان فسمعوا بمسير رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهربوا في رعوس الجبال ، وانطلق المسلمون حتى نزلوا ماء يقال له ذو أمر فمسكروا به ، وسرعان ما هطلت الأمطار غزيرة بليت ثياب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وثياب أصحابه ، فزعر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثوبيه ونشرهما على شجرة ليجفها وعلق بها سيفه واضطجع تحتها :

واشتغل المسلمون في شئونهم وكان دعثور يرصدهم من بعيد ، فلما وقع بصره على رسول الله عليه السلام ووجده قد انفرد قال :

— قتلى الله إن لم أقتل محمدا .

وانسل دعثور ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم قال :

— من يمنعك مني اليوم ؟

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ثبات دون أن

تختلج عيناه :

— الله .

وملئ دعثور رعبا من ذلك الثبات العجيب الذي قابل به رسول الله عليه السلام تهديده ، لم يرتجف ولم يرتد فرعا ، بل

اضطرب السيف في يد من أقسم أن يقتل محمدا وسقط منها  
على الأرض من شدة الخوف ، فأخذ السيف رسول الله - صلى  
الله عليه وسلم - وقال له :

- من يمنعك مني ؟

فقال وهو يرتجف وقد اقشعر جلده :

- لا أحد .

ثم جمع شتات نفسه وقال :

- أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فأعطاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيفه فانقلب

إلى أهله وغدا يدعو قومه إلى الإسلام هـ

وضدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قال : نصرت

بالرعب . وأنزل الله تعالى على عبده : « يا أيها الذين آمنوا

اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم

فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١) .

دخل عبد الله بن مسعود كاتم سر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر في جنبه ، فقال :  
— يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء يجعله بينك وبين الحصير  
يقيلك منه .

فقال عليه السلام في بساطة :

— ما لي وللدنيا ؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة  
ثم راح وتركها .

ومر الوقت واستبد برسول الله — صلى الله عليه وسلم — الجوع  
فخرج من المسجد ، فوجد أبا بكر وعمر فسألها عن خروجهما  
فقالا :

— أخرجنا الجوع .

— وما أخرجني إلا الجوع .

فذهبوا إلى أبي الهيثم فأمر لهم بشعير وقام إلى شاة فذبحها  
واستعذب لهم ماء معلقا عنده في نخلة ، ثم أتوا بالطعام فأكلوا  
وشربوا من ذلك الماء . فقال عليه الصلاة والسلام :

— لتسألن عن نعيم هذا اليوم ؟

كان — صلى الله عليه وسلم — مرهف الحس زاهدا في الدنيا ،  
فبما كان يعرف الكثر ، فاذا ما وصلت إلى يده صفراء أو بيضاء

تصدق بها ، وكان له من الغنائم الخمس والخمس مردود على فقراء المسلمين والمساكين ، وما كان يحفظ لنفسه بناقة أو شاة لينجها لأهل بيته بل كان عليه السلام وأهله يعيشون على الأسودين : التمر والماء .

وكان قنوة لأصحابه ، فبينا كان جالسا مع رجال من المهاجرين والأنصار ، إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو ، فلما رآه - صلى الله عليه وسلم - بكى ، فمصعب كان في نعمة قبل الإسلام لا يرتدى إلا أفخر الثياب ، وكانت أمه تغمره بعطفها وحنانها وما كانت تبخل عليه بمال ، ثم التفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :

- كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى ووضع بين يديه صفحة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟

- يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نكفي المونة ونتفرغ للعبادة .

- بل أنتم خير منكم يومئذ .

وكان القرآن ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنه أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آى قد وقع تأويلهن عند نزولهن ، ومنه آى يقع تأويلهن بعد نزولهن ، ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، وكان الناس يأتون رسول الله عليه السلام يسألونه بعض ما غمض عليهم من تأويل بعض الآيات ، فلما أنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم

أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً  
فبينكم بما كنتم تعملون (١) : أتى أبو ثعلبة الغلصني إلى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فقال :

— كيف نصنع في هذه الآية ؟

— أية آية ؟

— قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم  
من ضلّ إذا اهتديتم » .

— بل اتتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت  
شئحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنياً مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه ،  
فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن  
مثل القابض على الحجر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً  
يعملون كعملكم .

— يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟

— بل أجر خمسين منكم .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم يحب — أن يسمع

القرآن ، قال لعبد الله بن مسعود :

— اقرأ عليّ .

— يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟

— نعم ، إني أحب أن أسمع من غيري .

فقرأ ابن مسعود سورة النساء حتى أتى إلى هذه الآية :

« فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء

شهيديا (١) ، فقال عليه السلام :

— حسبك الآن .

فاذا عيناه تفرقتان .

وجاءت إلى داره عجوز فقال لها :

— من أنت ؟

فقالت :

— جثامة المزنية .

— أنت حسانة ؟ كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟

— بخير يا أبا أنت وأمي .

فلما خرجت قالت عائشة :

— يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟

— إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان .

كان المثل الأعلى في الشجاعة ، ففي ذات ليلة هب أهل المدينة

على صوت أنكروه وانطلقوا إلى ناحية الصوت ، فاذا برسول الله —

صلى الله عليه وسلم — يتلقاهم راجعا على فرس عري ، فقد كان

أول من أسرع قبل الصوت ويقول لهم في حنان الأب :

— لن تراعوا .

وكان القدوة الحسنة في الوفاء والمثل الكامل في الزهد والقناعة

والتواضع والعدل والمعروف وحسن الخلق . وكان يدعو ربه :

اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا . إنه يعيش لله وبالله وفي الله فاذا

أتاه أمر يحبه قال :

- الحمد لله الذى بنعمته تمّ الصالحات .  
وإذا أتاه أمر يكرهه قال :  
— الحمد لله على كل حال .  
وإن قصد فعل شيء قال :  
— اللهم خر لي واخر لي .  
وإن أراد سفرا قال :  
— اللهم بك أصول وبك أجول .  
وإذا أراد نوما قال :  
— اللهم باسمك وضعت جنبي وباسمك أرفعه .  
وإن استيقظ قال :  
— الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .  
وإن لبس ثوبا جديدا قال :  
— الحمد لله الذى رزقني ما أتجمل به في حياتي .  
وإن أكل قال :  
— الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين :  
وإن شرب قال :  
— الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا  
أجاجا بذنوبنا .  
وإذا انقلب من الليل في فراشه قال :  
— لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السماوات والأرض  
وما بينهما العزيز الغفار .  
وإذا هب من نومه في الليل قال :

- رب اغفر وارحم ، واهد للسبيل الأقوم .  
زكاه ربه ومدح حسن خلقه في قرآنه فأُنزل فيه : « وإنك  
تعلی خلق عظیم (١) » فكاد أصحابه أن يفتنوا به فكانوا يقولون :  
— ما شاء الله وشاء محمد .  
ودخل الطفيل بن سَخْبِرَة أخو عائشة أم المؤمنين لأمها فنام ،  
فراى فيما يرى النائم كأنه أتى على نفر من اليهود فقال :  
— من أنتم ؟  
قالوا :  
— نحن اليهود .  
— إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزيز ابن الله ؟  
— وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد .  
ثم مر بنفر من النصارى فقال :  
— من أنتم ؟  
— نحن النصارى :  
— إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله .  
— وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد :  
فلما أصبح أخبر بها من أخبر ، ثم أتى النبي عليه السلام فأخبره  
فقال :  
— هل أخبرت بها أحدا ؟  
— نعم ؟  
فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد فان طفيل رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ،  
وإنكم قلتم كلمة كان يمنعى كنا وكنا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا  
« ما شاء الله وشاء محمد » ولكن قولوا : « ما شاء الله وحده » .  
وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يحدثه ثم قال :  
— ما شاء الله وشئت .  
فقال عليه السلام في غضب :  
— أ جعلتني لله ندا ؟ ! قل : ما شاء الله وحده .

كانت مكة تغل بالحقد على محمد - صلى الله عليه وسلم - وصحبه ، فأبو سفيان بن حرب زعيم قريش وسيدها كان ينظر إلى الدنيا يوم أن بعث عليه السلام ، فقد كان يعلم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - صدوق لا يكذب وإنما كان يرى أن إيمانه بما جاء به ابن عبد الله فيه قضاء على أحلامه وأمانه ، فقد جاء أمرا لا يبتى معه شرف فخاصمه ولج في الخصام حمية وكرهية أن يذهب شرفه .  
فلما هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة واستقر بها وألف بين قلوب الأوس والخزرج استمر حقد أبي سفيان على نبي الإسلام ، فالمدينة تقع على طريق قوافل قريش المنطلقة إلى الشام وتهدد طريق القوافل الصاعدة إلى العراق ، فلو تحرك محمد عليه السلام ليهاجم قوافل قريش انتقاما لإخراجه وأصحابه من ديارهم وعوضا عن أموالهم التي صودرت في مكة فسيهدد تجارة قريش مع الشام والعراق بالبور مما يذهب عزها وسلطانها .

وكانت مخاوف أبي سفيان تغذي كراهيته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، والمهاجرين والأنصار ، فلما تحققت مخاوفه يوم أن خرج عليه السلام والمسلمون ليتعرضوا لعير قريش الآتية من الشام تيقن أن كيان قريش مهدد بالزوال ما دام لمحمد عليه السلام كلمة مطاعة في المدينة ، وأن لن يكون أمان قبل القضاء قضاء مبرما

على الخطر الكامن على طرق الشمال .

وبلغ حقد أبي سفيان غاية لما جاءت أنباء بدر وحمل إليه الناعي خبر مقتل ابنه حنظلة وأسر ابنه عمرو ، فقد أصبح بينه وبين المسلمين ثأر ، إلى عار الهزيمة الذي جلل قريش جميعا وقطع الطريق إلى الشام ، فصار عليه وهو زعيم القوم أن يثأر لقتلى بدر وأن يغسل ما لحقهم من عار وأن يطهر طرق القوافل من الأعداء .

وكانت زوجته هند بنت عتبة قد عادت محمدا — صلى الله عليه وسلم — بمد جهر بدعوته ، فهي مؤمنة أشد الإيمان بدين الآباء فكانت عداوتها لرسول الله عليه السلام في سبيل عقيدتها ، ولم تخف أبدا كراهيتها لابن عبد الله وما يدعو إليه ولم تجامل ولم تحاول أن تخفي عواطفها ، فذات يوم أقبل أبو سفيان من الشام ومعه هند ومعاقبة على حمار ، فلما دنوا من مكة لقيهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال أبو سفيان لمعاوية :

— انزل يركب محمد .

فقالت هند في إنكار :

— أينزل ابني لهذا الصابي ؟

قال أبو سفيان :

— نعم .

وكان يحرك غضبها دخول أخيها أبي حذيفة فيها يدعو إليه ابن أبي كبشة ، وبلغ غضبها غاية لما قتل يوم بدر أبوها عتبة وأخوها الوليد وعمها شيبة ، وقد أبت أن تبكيهم أو تندبهم قبل أن تثار لهم من المسلمين .

وراحت هند تحرض زوجها أبا سفيان بن حرب على قتال محمد والذين معه : وكانت وقود حقه حتى جعلته يقسم أن لا يقتل من جنابة قبل أن يثار لقتلى بدر ، فلما طال الزمن افتعل أبو سفيان غزوة السويق لير قسمه . ولكن ذلك لم يشف غليل هند فلن يهدأ لها بال ما دام حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب عشيان في الأرض .

ولم تستطع قريش أن تطوى صدورها على أجزائها حتى يحين يوم الانتقام فبكت قتلاها أحر البكاء . وانطلق لسان هند بالشعر لتنفس عن لوعتها إلى حين :

له عينا من رأى	هلكا كهلك رجاله
يارب باك لي غدا	في النائبات وباكيه
كم غادروا يوم الغليب	غداة تلك الداعية (١)
من كل غيث في السنين	إذا الكواكب خاويه
قد كنت أحزنر ما أرى	فاليوم حسق حذاريه
يارب قاتلة غدا	يا ويح أم معاويه

وكان النبي . بن خلف يجلس في الحرم لا هم له إلا تحريض القوم على قتال المسلمين ، فهو وإن كان قد فرطبا للتجاة إلا أنه قد سمع بما صنع بأخيه أمية بن خلف ، فعبد الرحمن بن عوف صديقه الذي ما كان يفارقه قبل أن يفرق ابن عبد الله بينهما لم يستطع أن ينقذه من سيوف المسلمين ، فبلال بن رباح صاح صيحته فاذا بأخيه وابن أخيه على قد صارا في الغابرين .

وراح أبي يتذكر تلك الأيام التي كانوا يعذبون فيها بلالا  
برمضاء مكة : إنه أوشتك على الموت مرات ، فيا ليتهم قضاوا عليه  
قلو كان قد مات لما مات أمية بن خلف وابنه علي ، ولما جلس هو  
في الحجر يكتوى بتارها !

وكان صفوان بن أمية بن خلف أكثر المشركين حقدا على  
رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فان كان أبو جهل بن هشام  
قد أنزاه الله يوم بدر فان صفوان قد نهض ليحمل لواء الكراهية  
والبغضاء لنبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - وللأنصار  
والمهاجرين .

كان أبو فكيهة يسار مولى صفوان قد أسلم ، وكان رسول الله -  
صلى الله عليه وسلم - إذا جلس في الحرم فجلس إليه المستضعفون  
من أصحابه ، خباب وعمار وأبو فكيهة وصهيب . هزئت بهم  
قريش وكان صفوان يقول :

- هؤلاء أصحابه كما ترون ، هؤلاء من الله عليهم من بيتنا  
بالحدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء وما  
نخصهم الله به دوننا . كان صفوان من المستهزئين وقد غالى في  
سخريته وتهكمه لما أنزل الله في المستضعفين : « ولا تطرد الذين  
يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم  
من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من  
الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا هؤلاء من الله عليهم  
من بيتنا أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون  
بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل

منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم (١) .  
إنه كان يتهمكم بمحمد عليه السلام وبالمستضعفين ، ولكنه  
كان وهو جالس في ظل الكعبة يصغى إلى كعب بن الأشرف وهو  
ينفث سمومه في صدره يتحرق شوقا إلى قتال من قتلوا أباه وأخاه  
وأذلوه .

إنه بعث عمير بن وهب بعد مصاب أهل بدر من قريش  
ببشير ليقتل محمدا ، وغدا صفوان يقول لقريش :

— أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام تنسيكم ووقعة بدر !  
ورجع عمير بن وهب إلى مكة بعد أن أسلم ، وأخزى الله  
صفوان فان الذاهب لقتل رسول الله — صلى الله عليه وسلم —  
وإطفاء نور الله قد عاد إلى مكة يدعو أهلها إلى الله وإلى رسول الله  
وإلى الإسلام .

وراح صفوان يحرض الناس على عداوة رسول الله عليه السلام ،  
حتى جاء أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي ، إنه شاعر  
وللشعراء مكاتبتهم في إثارة العداوات وإشعال نار الخصومات ،  
وغدا يغريه بعداوة نبي الإسلام .

كان أبو عزة قد وقع أسيرا في بدر فأعتقه رسول الله — صلى  
الله عليه وسلم — دون فداء لما قال له : إن لي خمس بنات ليس لمن  
شيء ، فتصدق بي عليهن يا محمد ، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه  
أحدًا فقال أبو عزة :

من مٌبْلِغ عني الرسول محمدا      بأنك حسق والمليك حميد

وأنت امرؤ وتدعو إلى الحق والهدى      عليك من الله العظيم شهيد  
وأنت امرؤ يوثق فينا مباءة      لها درجات سهلة وطُغور  
فانك من حاربتك أشحارب      شيتي ومن سألته لسعيد  
ولكن إذا ذكَّرت بئرا وأهله      تأوب ما بي حسرة وقعود  
وظل صفوان يحاول أن يوغر صدر أبي عزة على النبي - صلى  
الله عليه وسلم - وأبو عزة يقول :

... إني قد أعطيت محمدا موتقا ألا أقاتله ولا أكثر عليه أبدا ،  
وقد من على ولم يمن على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء .

فضمن له صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قتل وإن عاش  
أعطاه ما لا كثيرا لا يأكله عياله .

فخرج أبو عزة يدعو العرب ويخشرها .

وجاءت أم الفضل لتطوف بالحرم فمد كعب بن الأشرف  
عينيه إليها ، إنها زوجة العباس عم النبي وهي أول امرأة آمنت به  
بعد زوجه خديجة ، فان تشيب بها وهو شاعر يسير الركبان بشعره  
فسيجرح ذلك كبرياء المسلمين ويؤذي محمدا ، فاستراح للفكرة  
فلم يعد لكعب بن الأشرف هم إلا أن يقضي على نبي الإسلام  
عليه السلام . فلو قتل لماتت دعوته التي أصبحت تقض مضاجع  
قريش والمشركين والحاسدين واليهود .

خاف القرشيون طريقهم الذين كانوا يسلكون إلى الشام فرأوا  
 أن خير ما يفعلون أن يسلكوا طريق العراق ، فاستأجروا فراسدا  
 بن حيان رجلا من بني بكر بن وائل يلتم في ذلك على الطريق .  
 وتجمعت غير قريش في الحرم تحمل فضة كثيرة وهي عظم  
 تجارتهم . وأقبل أبو سفيان بن حرب تحف به أشياخ قريش  
 وسادات بني أمية والتجار الخارجون معه فطافوا بالبيت سبعا ثم  
 أذن أبو سفيان بالرحيل ،

وانطلقت العرب بعد أن دعا القوم آلتهم لتحصى الرجال  
 والأموال من أعدائهم ، وما إن غابت القافلة في الأفق البعيد حتى  
 خفت القلوب رهبة ونزل بالنفوس قلق ، فقد شغل الأذهان  
 ما كان بين رجالهم وبين المسلمين يوم بدر ، فابن عبد الله قد خرج  
 أصحابه في طلب القافلة التي كانت في طريق عودتها من الشام ،  
 ولولا حرص أبي سفيان لما أفلتت من قبضة المسلمين .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعلم أن قوة قريش في تجارتها  
 وأنه إذا هدد طريق قوافلها قطع الشريان الذي عمدها بالحياة والقوة  
 فيجعلها ترنح وتخر مستلخنة عند أقدام من أكرهوا على الخروج  
 من ديارهم ومن صادرت قريش أموالهم ، فكان يرصد العيون  
 ليعرف أنباء العرب المنطلقة إلى الشمال ليروعها بغاراته الهاسا للغنيمة

وتحطيا لروح أعدائه المعنوية بتأكيد سيطرته على الطريق .  
ونزلت قافلة قريش على القردة ، ماء من مياه نجد الهامسا  
للراحة ، ونحر الرجال الخزور وأوقنوا النيران وتأهبوا ليحمضوا  
أمسية جميلة في ضوء القمر . وإذا بصوت النذير يعكر عليهم  
صغومهم ويصبح :

- الفزع .. الفزع .

فهب أبو سفيان ومن معه مرعوبين وأحسوا أن المسلمين قد  
أغاروا عليهم فانطلقوا إلى رواحلهم يمتطونها وسرعان ما ولوا  
هاربين وقد شغل كل منهم بنفسه . ففسوا القافلة وما فيها من فضة  
كثيرة .

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد بعث زيد بن حارثة  
فلقيهم على ذلك الماء ، فلما أحسوا به أطلقوا لروحهم الأعتة .  
فأعجزه الرجال وأصاب تلك العير وما فيها . ثم انقلب إلى المدينة  
يحمل الغنيمة .

وقسمت الأموال وكان لله ورسوله الخمس ، فغدا نبى الإسلام  
عليه السلام يوزع نصيب الله ونصيبه من الأنفال حتى إذا ما أتى على  
كل ما آل إليه دخل داره لينام على الخصر .

كان زيد قد تزوج أم أيمن وكانت تكبره بسنين كثيرة . وكان  
ثمرة ذلك الزواج أسامة حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم .  
وغدا أسامة هو الصلة الطيبة بين الزوج الشاب وزوجه العجوز  
فقد أحس زيد رغبة في الزواج من شابة . ولما كان ابن محمد  
وأول من أسلم بعد علي بن أبي طالب وقد آخى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بينه وبين عمه حمزة بعد أن هاجر إلى المدينة وآخى بين أصحابه ، فقد راح زيد يتطلع إلى الزواج من شريفة من أشرف قريش تليق بمقامه الحديد في ظل دين الله الذي يساوي بين الناس .

وكانت زينب بنت جحش قد هاجرت إلى الحبشة مع بني جحش فرارا بدينها ، فغلقت دار بني جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها بيابا ليس فيها ساكن ، فتذكر عبد الله بن جحش وأبا أحمد عبد بن جحش وكان رجلا ضرير البصر وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعرا وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي . وتذكر الحركة الدائبة التي كانت تنبض بها الدار فتتنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوم استدركها النكباء والحبوب (١)

أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها .

فقال أبو جهل :

— وما تبكي عليه من قل بن قل (٢) . هذا عمل ابن أخي ،

هذا فرق جماعتنا وشتت أمرنا .

وهاجرت زينب بنت جحش إلى المدينة مع من هاجر من

بني جحش عقب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وراح

(٢) القل : الواحد

(١) التراجع

شاعرهم أبو أحمد يصف هجرتهم فيقول :

لما رأيتني أم أحمد غاديا      بلذمة من أخشى بغيب وأرهب  
تقول : فاما كنت لا بد فاعلا      فيم بنا البلدان ولتنا يثرب  
فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهنا      وما يشأ الرحمن فالعبد يركب  
إلى الله وجهي والرسول ومن يتم      إلى الله يوما وجهه لا يخيب  
فكم قد تركنا من حميم مناصح      وناصحة تبكي بلدمع وتندب  
تري أن وقرأ (١) نأيناعن بلادنا      ونحن نرى أن الرغائب نطلب  
دعوت بني نغم لجفن دعاهم      وللحق لما لاح للناس تلحيب (٢)  
أجابوا بحمد الله لما دعاهم      إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا (٣)  
كفوجين : أما منهما فموفق      على الحق مهدي - وفوج معذب  
طغوا وتمنوا كذبه وأزلم      عن الحق إبليس فخابوا وخيبروا  
ورعنا إلى قول النبي محمد      فطاب ولاة الحق منا وطيسوا  
نمئت بأرحام إليهم قريبة      ولا قرب بالأرحام إذ لا تقرب  
فأى ابن أخت بعدنا يا منتكم      وأية صهر بعد صهرى ثرب  
ستعلم يوما أينا إذ ترايلوا (٤)      وزيل أمر الناس للحق أصوب  
وكانت زينب بيضاء سمينة من أم نساء قريش وكانت معترزة  
بنسبها الرفيع ، فلما رآها زيد بن حارثة بعد قدومها إلى المدينة  
جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم - وقال :

- يا رسول الله اخطب علي -

- من ؟

(١) أومبوا : اجتمعوا وكثروا

(١) الود طلب الثار

(٢) تفرقوا

(٢) تلحيب : طريق بين واضح

- زينب بنت جحش .  
إنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب وهو عليه السلام يعلم  
اعتزازها بنسبها ، فقال له :  
- لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك نسبا .  
- يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس علي  
فعلت .

- إنها امرأة لستاء .  
فذهب زيد إلى علي بن أبي طالب فحمله علي أن يكلم له النبي -  
صلى الله عليه وسلم . فانطلق معه علي إلى النبي - صلى الله عليه  
وسلم - فكلمه فقال :

- إنى فاعل ذلك ومرسلك يا علي إلى أهلها لتكلمهم .  
وذهب علي إلى عبد الله بن جحش يكلمه في أمر زواج زينب  
من زيد فأربد وجه عبد الله ، إنه كان يترقب أن يأتي ابن خاله  
محمد - صلى الله عليه وسلم - ليطلب منه زواج ابنة عمته زينب  
بنت جحش وما خطر له علي قلب أن يبعث . يطلب زواج زينب  
من مولاه ، فسخطت زينب وسخط أخوها عبد الله ، وعاد علي  
كرم الله وجهه إلى النبي عليه السلام فأخبره بكرامتها وكراهة  
أخيها لذلك .

وجاء عليه السلام إليها ليخطبها لمولاه فقالت :

- لست بتا كحته .

قال عليه الصلاة والسلام :

- بل فانكحيه .

— يا رسول الله أوامر نفسي فاني خير منه حسيبا .  
فأنزل الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله  
ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله  
ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا (١) » .

فقال زينب :

— رضيت .

وساق زيد إلى بني جحش عشرة دنانير وستين درهما ودرعا  
وخمارا وملحفة وإزارا وخمسين مدا من الطعام وعشرة أمداد من  
التمر أعطاه ذلك كله رسول الله ، وبني زيد بن جارية مولى  
رسول الله عليه السلام بزینب بنت جحش سليمة أشرف بيت في  
قريش من كانت تعز بنسبها ، لتقرير حقيقة المساواة بين البشر  
وأن ليس لحر على عبد من فضل إلا بالتقوى .

كان كعب بن الأشرف رجلاً من طيبي ثم أحد بني نبهان ،  
 وكانت أمه من بني النضير ، وقد ناصب رسول الله صلى الله عليه  
 وسلم العداء منذ هاجر إلى المدينة . فلما وقعت الحرب بين المسلمين  
 وقريش عند ماء بدر وأيد الله المسلمين بنصره بدت العداوة على  
 لسانه ، وقال حين بلغه مقتل سادات قريش :

— ويلكم أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هولاء الرجال  
 وهولاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب  
 هولاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها .

فلما تبين الخبر خرج حتى قدم مكة فنزل على المطلب بن أبي  
 وداعة بن ضبيرة السهمي وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص  
 ابن أمية بن عبد شمس فأنزلته وأكرمته ، وجعل يحرض على  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويكي على أصحاب  
 القليب الذين أصيبوا ببدر من قريش ، فقال :

طحنت رحي بدر لمهلك أهله      ومثل بدر تستهل وتدمع  
 قلت سراة الناس حول حياضهم

لا تبعنوا إن الملوك تُصرع

كم قد أصيب به من ايض ماجد

ذي بهجة يا أوى إليه الضجيع

طلق اليمين إذا الكواكب أخلفت  
ويقول أقوام أسر بسخطهم  
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا  
صار الذي أثر الحديث بطعنة  
نبت أن بني المغيرة كلهم  
وابنا ربيعة عنده ومنبته  
نبت أن الحارث بن هشامهم  
فرد عليه حسان بن ثابت ، وأجابت كعبا ميمونة بنت عبد الله  
فأجابها كعب بن الأشرف :  
ألا فازجروا منكم سفيها لتسلموا  
أثتمني أن كنت أبكى بعبرة  
فاني لبالك مسابقت وذاكر  
لعمرى لقد كانت مريد معزل  
فحق مريد أن تجد أنوفهم  
وهبت نصيبي من مريد لجلد  
وعاد كعب بن الأشرف إلى المدينة ، يعلن في حياقة ما قاله  
في محمد عليه السلام في مكة وما أنشده في رثاء سادات قريش ،  
واستمر في غيه فلم يكتف بالمهجاء بل شئب بأبى الفضل بنت الحارث  
زوجة العباس وثاني امرأة أعلنت إسلامها بعد الطاهرة خديجة  
أم المؤمنين . فقال :

(١) يربيع : يأخذ الربيع أى انه كان رئيسا ، لان الرئيس في الجاهلية كان يأخذ  
ربيع الفتيمة

أراحل أنت لم تحبل بمنقبة      وتارك أنت أم الفضل بالحرم  
صفراء رادعة لو تعصرت      من ذى القوارير والحناء والكم  
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها      إذا تأنت قياما ثم لم تقم  
أشبه أم حكيم إذ تواصلنا      والحبل منها متين غير منجذم (١)  
إحدى بنى عامر بن النعمان بها      ولو تشاء شفت كعبا من السقم  
فرع النساء وفرع القوم واندها      أهل المحلة والإيفاء بالذمم  
لم أدر شمساً بليل قبلها طلعت      حتى تجلت لنا في ليلة الظلم  
وآذى كعب بن الأشرف الله ورسوله فقال عليه السلام :

— من لى بابن الأشرف ؟

فقال له محمد بن مسلمة أخو بنى عبد الأشهل :

— أنا لك به يا رسول الله : أنا أقتله .

— فافعل إن قدرت على ذلك .

فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا

ما يعلق به نفسه : فذكر ذلك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم —

فدعاه فقال له :

— لم تركت الطعام والشراب ؟

— يا رسول الله : قلت لك قولاً لا أدرى هل أفين لك به

أم لا .

— إنما عليك الجهد .

— يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول .

— قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك .

فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة بن وقش  
أحد بني عبد الأشهل وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاة  
وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عيسى  
ابن جبر ، فرأوا أن يقدموا إليه قبل أن يأتوه أبو نائلة سلكان  
ابن سلامة ليستدرجه ، فهو أخوه من الرضاة وهو يطمئن إليه .  
فانطلق سلكان إلى حصن كعب وكانت الليلة مقمرة فهتف وكان  
حديث عهد بعُرس ، فوثب في ملحفته فأخذته امرأته بناحيته وقالت :

— إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا يزلون في هذه الساعة .

— إنه أبو نائلة ، لو وجدني نائما ما أيقظني .

— والله إني لأعرف في صوته الشر .

— لو يُدعى الفتي لطمته لأجاب .

فزل فتحدث مع سلكان ساعة وتناشدا شعرا وكان أبو نائلة

يقول الشعر ، ثم قال :

— وبحك يا بن الأشرف ؟ إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها

لك ، فآتكم عنى .

— أفعل .

— كان قلوب هذا الرجل علينا بلاء في بلاء ، عادتنا به العزب

ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال

وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

— أنا ابن الأشرف . أما والله لقد كنت أخبرك يا بن سلامة

أن الأمر سيصير إلى ما أقول .

— إني قد أردت أن تبعنا طعاسا ونرهنك ونوثق لك

وتحسن في ذلك .

- أترهنوني أبناءكم ؟

- لقد أردت أن تفضحنا ، إن معي أصحابا لي على مثل رأيي  
وقد أردت أن أتيك بهم فتبيحهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة  
( السلاح ) ما فيه وفاء .

وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بهاء ؛ قال :  
- إن في الحلقة لوفاء .

فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم وأمرهم أن يأخذوا السلاح ،  
ثم ينطلقوا فيجتمعوا معهم إلى بقيع الفرقد ثم وجههم فقال :  
- انطلقوا على اسم الله . اللهم أعنيهم .

ثم رجع - صلى الله عليه وسلم - إلى بيته وأقبلوا حتى انتهوا  
إلى حوض كعب ، فهتفوا به فزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا  
معه ثم قال سلكان :

- هل لك يا بن الأشرف أن نياشي إلى شعب العجوز (١)  
فتحدث به بقية ليلتنا هذه ؟  
- إن شئتم .

فخرجوا نياشون فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة أدخل يده في  
فود رأسه ثم شم يده فقال :

- ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط .

ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ، ثم مشى ساعة ثم  
عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه ثم قال :

(١) شعب العجوز بظاهر المدينة

- اضربوا عدو الله .

فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن عنهم شيئا ، فتذكر محمد بن مسلمة مغولا (١) في سيفه حين رأى أسيافهم لا تغني شيئا فأخذه وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولهم حصن إلا وقد أوقدت عليه نار ، فوضعه ما بين سرته وعانته ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع كعب بن الأشرف بحيط في دمه . وأصابته بعض أسيافهم الحارث بن أوس بن معاذ فجرح في رأسه . فخرجوا حتى سلخوا على بني أمية بن زيد ثم على بني قريظة ثم على بعث حتى ارتفعوا في حرة (٢) العريض (٣) وقد أبطأ عليهم صاحبهم الحارث بن أوس وقد أضعفه نزف الدم ، فوقفوا له ساعة ثم أتاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه فجاءوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم - آخر الليل وهو قائم يصلي .

وخرج إليهم عليه السلام فأخبروه بقتل عدو الله ، فراح يضمدهم جرح صاحبهم وهو يستشعر راحة فقد قضى المسلمون على رجل أحبقت يزهو بالخوض في أعراض نساء مؤمنات . ورجع رسول الله عليه السلام إلى أهله ورجعوا إلى أهلهم ، فأصبحوا فاذا بأسواق اليهود ودورهم قد ارتجت لمقتل كعب بن الأشرف ولم يبق في المدينة يهودى إلا وهو يرتجف فرقا ويخاف على نفسه .

(١) المغول : السكين التي تكون في السوط

(٢) الحرة : أرض فيها حجارة سود

(٣) العريض : وادي المدينة

كان عبد الله بن أبي بن سلول رأسا في المدينة وكان من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته قال :

— هذا أمر قد توجه .

فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها ، بل يهاجر ويترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله .

وكان القرآن الكريم ينزل ليبين حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر لئلا يفتن بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع لذلك فساد عريض ، فهم أخطر على المجتمع المؤمن الناشئ من الأعداء السافرين ، فقال الله تعالى فيهم : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون .

وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون .  
ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا  
كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم  
السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا  
خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ  
بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة  
بالمهدي فما رحبت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي  
استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم  
في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون .  
أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم  
في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين .  
يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم  
عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على  
كل شيء قدير (١) .

كان المنافقون يظهرون غير ما يظنون وكانوا يلوذون  
باليهود ويقولون لهم : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . وكان هناك  
رجال وأناس يوذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول وينظم  
الشعر وكان الشعر ينتشر في المدينة وفي قريش وفي القبائل انتشار  
الريح فكان ذلك يثير غضب المسلمين .

كان أبو علفك من بني عمرو بن عوف وكان يهوديا قد بلغ  
عشرين ومائة وكان يصفى إلى الحوار الدائر بين أحبار اليهود

حول محمد عليه السلام ، فريق منهم يقول إنه النبي الذي بشر به الأنبياء وأن عليهم أن يتبعوه وفريق ينكر أن يبعث الله رسولا من غير نبي إسرائيل ويؤكد أن اتباع النبي العربي الذي يؤمن بعيسى ويحمل مريم الطاهر إنما هو إقرار منهم بأن آباءهم كانوا على ضلال لما أنكروا رسالة المسيح . وكان ذلك الحد الذي أثار أبا عفك ويحرك مكان الخوف في نفسه على دين اليهود ، فراح يسب الإسلام ويحرض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، ويقول الشعر وكان فاحش القسول بذئ اللسان ، فقال سالم ابن عمير وهو أحد البكائن ومن شهد بدرًا :

- على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه .

وانطلق سالم إلى الشيخ الفاني الذي كانت عداوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تسرى فيه مسرى الدم فقتله ، قلما ذاع نباء مقتل أبي عفك بين اليهود انخلعت قلوبهم رعبا وذهبت أنفسهم شعاعا وأغلقوا عليهم حصونهم ، بينما قامت العصماء بنت مروان زوج يزيد الخطمي وكانت امرأة من الأنصار تنشد الشعر وتعيب الإسلام وأهله وتؤنب الأنصار في اتباعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

نافقت العصماء لما قتل أبو عفك فراحت تهجو رسول الله عليه السلام وتهاجم المسلمين والإسلام وهي تحسب أنها في منعة من أهلها فقد كان لها بنون خمسة رجال وكان بنو خطمة كثيرا عددهم وكانوا على الشرك ، وكان يستخف بإسلامه فيهم من أسلم خشية بطش الكفار .

وكان عمير بن عبدى الخطي ضرير البصر وكان قد أسلم  
وحسن إسلامه ، وكانت ثورة الحلق تجتاحه كلما سمع شعر  
العصماء الذى تعيب فيه الإسلام وأهله . وكان يزيد فى حنقه  
أنها خطمية من رهطه فقدت تراوده فكرة أن يقتلها ليمحو ذلك  
العار الذى بات يستشعره كلما قرعت أذنيه كلمات هجوها لنيه  
عليه السلام .

واستمرت العصماء بنت مروان فى غيها ولحت فى العداوة  
والخصام ، فثار الضرير الذى كان أول من أسلم من بنى خطمة  
وكان إمام قومه وقارنهم : فمشى إليها فى جوف الليل وطعنها  
طعنة أزهدت روحها الحبيثة ولم يول الأدبار ، بل قام فى قومه  
يقول :

— يابنى خطمة أنا قتلت بنت مروان .

فاستبشر المؤمنون وخاف المنافقون وغضب الكافرون ولكن  
لم يجر كوا ساكنا لما وجدوا أن الذين كانوا يخفون إسلامهم من بنى  
خطمة قد أعلنوه لما رأوا من عز الإسلام .

ومشى الضرير إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، وأخبره  
أنه قتل العصماء . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— لا ينتطح فيها عزبان .

وسماه رسول الله عليه السلام البصر .

واستمرت الخصومات مشبوبة الأوار بين المسلمين واليهود  
فكان أهل الكتاب يقولون للمؤمنين :

— نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم .

فيقول المؤمنون :

— نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام وآمنا  
بنيبيكم وبما أنزل من كتاب ، فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه  
وكفرتم به حسدا .

وكان اليهود يعجبون للحجج التي يسوقها الأوس والخزرج ،  
لأنهم كانوا قبل أن يقدم عليهم محمد عليه السلام لا يدرون  
ما الكتاب وما الإيمان ولا يعرفون عن رسل الله شيئا ، فاذا بهم  
بعد أن دخلوا في الإسلام قد تفقهوا في الدين وأوتوا العلم والحكمة  
واليان في بضع سنين . وأصبحوا يجادلون الأخبار المتفقيهن  
ويلزمونهم الحجة .

إن ما فعله محمد بن عبد الله في المدينة يثير الدهشة ، فقد  
ألف بين قلوب متنافرة وأزال الجهل الذي ران على بصائر  
العرب آلاف السنين . فاذا بالأجلاف الذين كانوا ينظرون إلى  
أهل الكتاب الأول في إجلال وتوقير يصيرون وريثة العلم الذي  
فاض على الأفئدة لما وصلت الحقيقة إلى أعماق النفوس .

كانت أول مرة سمعوا فيها بمحمد بن عبد الله يوم أن جاءهم  
النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط يسألانهم عن محمد ،  
فقالوا لهما : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن  
فيروني مرسل . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان  
أمرهم فانه قد كان لهم حديث عجب . وسلوه عن رجل طواف  
قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن  
الروح ما هي ؟ فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبي وإن لم يفعل

فهو رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .  
وأنزل الله تعالى سورة أصحاب الكهف فيها خبر الفتية  
الذين ذهبوا في الدهر ، وخبر الرجل الطواف ذي القسرين ،  
وأنزل في الروح : « قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم  
إلا قليلا (١) » .

لقد قرئت عليهم سورة أصحاب الكهف وما أنزل في الرجل  
الطواف والروح فانشرحت قلوب بعض اليهود للاسلام ، وقام  
جدال شديد بين الذين قالوا بأنه نبي مرسل وبين الذين زعموا  
أنه متقول على الله . وكان محور الجدال أنه لم يأت بخبر عن  
الروح .

فلما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة قالت أحبار

يهود :

- يا محمد أرأيت قولك : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

إيانا تريد أم قومك ؟

- كئلا :

- فانك تلو فيما جاءك : إنا قد أوتينا التوراة فيها بيان

كل شيء .

- إنا في علم الله قليل وعندكم في ذلك ما يكفينكم

لو أقمتوه .

فأنزل الله تعالى فيما سأله عنه من ذلك : « ولو أن مافي

الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت

كلمات الله إن الله عزيز حكيم (١) .

وآمن نفر من يهود فاشتد الحوار بين المؤمنين من أهل الكتاب الأول والكافرين بمحمد وبما جاء به ، وراحت المدينة تبض بالمناقشات الدائرة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبين أجبسار اليهود المكذبين ، قلوبنا أذن بلال لأول مرة من مسجد الرسول عليه السلام مهزج إليه يهود وقالوا :

— يا محمد قد أبدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم .  
فان كنت تدعى النبوة فقد خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياء والرسل من قبلك ، فمن أين لك صياح كصياح البعير ، فما أقبج من صوت ولا أسمعج من كفر .

وأعرض عنهم رسول الله عليه السلام ، واستمر الأذان يجلجل خمس مرات في اليوم في أنحاء المدينة يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فزاد ذلك في حقهم وقالوا مستهزئين إذا ما نادى منادى رسول الله عليه السلام إلى الصلاة :  
— قوموا صلوا اركعوا .

فيقومون ليقلبوا المسلمين في صلاتهم وهم يضحكون ، فانزل الله تعالى : « وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخوتوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت

أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل (١) .

وكانت وقعة بدر بين المسلمين وقريش ونصر الله دينه وقتل صناديد مكة وساداتها ، وعاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة بالأسرى مقرنين فعاد الجدل بين يهود ، قال فريق منهم : إنه النبي الذي نجده في التوراة وأنا نعلم أنفسنا بعداوتة . وقال فريق آخر : ما كان الله ليعث رسولا من الأميين . كما قد كتب الله على نفسه عهدا ألا يعث رسلا إلا من نبي إسرائيل إلى نبي إسرائيل . لكأنما كانوا هم وخدمهم من خلقه ومن عداهم من خلق الشياطين !

ونشب الحوار بين الذين قالوا إنه النبي المنتظر ، قالت طائفة : إن النصر خليفه على اللوام وهذه علامة من علاماته وإتهم سيعلمون على الملأ إسلامهم . وقالت طائفة : إنهم سيعتظرون وقعة ثانية بين محمد بن عبد الله وبين الكافرين فاذا ما انتصر عليهم تارة أخرى كان ذلك تأكيدا على أنه النبي الذي بشرت به الأنبياء ، من تحقق فوق جيوش ألوية النصر المبين . وكان أشرف اليهود أكثر الناس عداوة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللمؤمنين ، فقد ناصبوه عليه السلام العداة منذ وطئت قدماء أرض يثرب ، فقد ضايقهم أنه آمن بالسيد المسيح وبالحمل الطاهر ، فكان ذلك الإيمان تنفيها لأحلام آبائهم الذين أصروا على إنكار رسالة السيد المسيح ، وقد رأوا في اتباعه إقرارا منهم بأن آبائهم كانوا في الجهالة يعمهون ، فراحوا

محاوكون أن يقنعوه عليه السلام بأن يتهود ليخرجوا من مأزق الاعتراف برسالة عيسى بن مريم .

ولم يصغ عليه السلام للاغراء الذي كانوا يقدمونه إليه في كل صورة ، فلما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقلعه عليه السلام ، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الأشرف ورافع بن أبي رافع والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق وكنانة ابن الربيع بن أبي الحقيق فقالوا :

... يا محمد ما ولاك عن قبلك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلك التي كنت عليها تبعلك ونصدقك .

كانوا يريدون فتنه عن دينه فأنزل الله تعالى فيهم :  
« سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .  
وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم (١) » .

وفجر انتصاره عليه السلام في بدر حقد أعدائه الذين أبوا

أن يؤمنوا بزسأله : فانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة يرثى قتلى بدر ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين ، فكان قتله جزاء وفاقا على وقاحته . وكان بنو قينقاع أول يهود تقضوا ما بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحاربوه فحاصرهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمته .

وظلّت المدينة تحفّق بالأعداء وبالحوار الدائر بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين وبين أهل الكتاب الذين لجوا في الخصام فأنزل الله تعالى : ه هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يجلبون فيها من أسوار من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من العول وهدوا إلى صراط الحميد (١) . .

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب ورجع  
فلثمهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى عبد الله  
ابن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية والحارث  
ابن هشام والأسود بن عبد المطلب وجبير بن مطعم وحويطب بن  
عبد العزى في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم  
وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له  
في تلك العير من قريش تجارة فقالوا :

— يا معشر قريش ، إن محمدا قد وترككم وقتل خياركم  
فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب  
منا .

فقال أبو سفيان :

— وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟

— نعم .

— فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي .

فلما أجمعوا على المسير قالوا :

— نسير في العرب فنستنصرهم فان عبدة مناة غير متخلفين

عنا . هم أوصل العرب لأرحامنا ومن اتبعنا من الأحابيش .

فأجمعوا على أن يعيشوا أربعة من قريش يسرون في العرب

يدعونهم إلى نصرهم ، فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب بن الزبيرى وأبا عزة الحمصي ، فأبى أبو عزة أن يسير وقال :

- من على محمد يوم بدر وحلفت ألا أظاهر عليه عدوا أبدا .

فمشى إليه صفوان بن أمية فقال :

- اخرج .

فأبى وقال :

- عاهدت محمدا يوم بدر ألا أظاهر عليه عدوا أبدا وأنا أفي بما عاهدته عليه .

فظل صفوان به حتى خرج يسير في تهامة ويدعو بني كنانة ويقول :

إيه بنى عبدمناة الرزام (١) أنتم حماسة وأبوكم جمام  
لا تسلموني لا يحل إسلام لا يعدوني نصركم بعد عام

وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بنى مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فقال :

يا مال (٢) ، مال الحسب المقدم

أنشد ذا القسري إذا التلتم

(١) الرزام : الذين يشبهون في مكانهم وقت القتال .

(٢) يا مال : أراد يا مالك فحذف الكاف للتخميم ، ولو التلتم : هو الذي له

ذمام أي عهد .

من كان ذا ربحتم ومن لم يرحم  
الحلف وسط البلد المحرم  
عند حطيم الكعبة المشرفة

وخرج نفر فألبوا العرب وجمعوا وبلغوا ثقيفا فخرجوا  
للغزو ، فلما أجمعوا السير وتأليب من كان معهم من العرب  
وحضروا ، واختلفت قريش في إخراج النساء معهم قال صفوان  
ابن أمية :

— اخرجوا بالظعن (١) فأننا أول من فعل ، فانه أقمن أن  
يخطفنكم ويدكنكم قتلى بدر ، فان العهد حديث ونحن قوم  
موتورون مستميتون لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى نترك  
ثأرتنا أو نموت دونه .

فقال عكرمة بن أبي جهل :

— أنا أول من أجاب إلى ما دعوت إليه .

وقال عمرو بن العاص مثل ذلك ، فمشى في ذلك نوفل بن

معاوية الدبلي فقال :

— يا معشر قريش ، هنا ليس برأى أن تعرضوا حرمكم

لعادوكم ، ولا آمن أن تكون الدبرة (٢) لهم فتفتضحوا في  
نسائكم .

فقال صفوان :

— لا كان غير هذا أبدا !

فجاء نوفل إلى أبي سفيان بن حرب فقال له تلك المقالة ،

(٢) العاقبة .

(١) الظن : جمع ظئنة وهي المرأة في الودج .

قصاحت هند بنت عتبة :

— إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نساءك : نعم  
تخرج فنشهد القتال فقد ردت القيان من الحففة في سفرهم إلى  
بدر ، فقتلت الأحية يومئذ .

فقال أبو سفيان :

— لست أخالف قريشا ، أنا رجل منها ، ما فعلت فعلت .  
ودعا جبير بن مطعم غلاما له حبشيا يقال له وحشى يقذف  
بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها ، فقال له :  
— اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعى  
طعيمة بن عدي فأنت عتيق .

فخرجت قريش بحدتها وجدتها وحبيدها وأحبيشها ومن  
تابعها من بني كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالنساء في  
الوادج التماس الحفيظة وألا يفروا . فخرج أبو سفيان بن حرب  
وهو قائد الناس بامرأتين : هند بنت عتية بن ربيعة وأميمة بنت  
سعد بن وهب بن أشيم بن كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين :  
برزة بنت مسعود الثقفي والبغوم بنت المغدل من كنانة ، وخرج  
طلحة بن أبي طلحة بامرأته سلافة بنت سعد بن شهيد وهي  
من الأوس وهي أم بنيه مسافع والحارث وكلاب والجلاس بن  
طلحة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بامرأته أم حكيم بنت الحارث  
ابن هشام ، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد  
ابن المغيرة ، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه بن  
الحجاج ، وخرجت نخناس بنت مالك إحدى نساء بني مالك  
( غزوة بدر )

ابن حسل مع ابنها أبي عزيز بن عمير أخى مصعب بن عمير من  
بنى عبد الدار ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته  
رملة بنت طارق بن علقمة الكنانية ، وخرج كنانة بن علي  
ابن ربيعة بن عبد العزم بن عبد شمس بن عبد مناف بامرأته  
أم حكيم بنت طارق ، وخرج سفيان بن عوفيف بامرأته قثيلة  
بنت عمرو بن فلال ، وخرج النعمان بن عمرو وأخوه جابر  
مسك الذئب بأمهما الدغنية ، وخرج غراب بن سفيان بن عوفيف  
بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية ، وخرج سفيان بن  
عوفيف بعشرة من ولده وحشدت بنو كنانة .

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مر بها قالت :  
— وميها أبا دسمة اشف واستشف .

وخرجت قريش كلها ومن اجتمع إليها من القبائل من كنانة  
والأحابيش وغيرهم على لواء واحد بحمله طلحة بن أنى طلحة ،  
وكانوا ثلاثة آلاف رجل وكان فيهم من ثقيف مائة رجل .  
وخرجوا بعدة وسلاح كثير وقادوا مائى فرس وكان فيهم  
سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير .

وقعد العباس بن عبد المطلب فى مكة بعد أن راودوه على  
الخروج معهم فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر ولم يساعدهم  
بشيء ، فلما أجمعوا على السير كتب إلى رسول الله — صلى الله عليه  
وسلم — كتابا وختمه واستأجر رجلا من بنى غفار وشرط عليه  
أن يأتى المدينة فى ثلاثة أيام بلياليها ، فراح الغفارى ينهب  
الأرض بفرسه حتى قدم المدينة فلم يجد رسول الله — صلى الله عليه

وسلم — بها وعلم أنه بقاء ، فانطلق إلى هناك فوجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على باب مسجد قباء يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب ففك ختمه ودفعه إلى أبي بن كعب ففدا يقرأ :

— إن قريشا قد اجتمعت للمسير إليك ، فما كنت صانعا إذا حلوا بك فاصنع . وقد وجهوا وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وقد أوعبوا من السلاح .

واستكم نبي الإسلام عليه السلام أيما ما فيه . ودخل منزل سعد بن الربيع فقال :

— أي البيت أحد ؟

— لا فتكلم بحاجتك .

فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب .

فجعل سعد يقول :

— يا رسول الله والله إنى لأرجو أن يكون في ذلك خير .

وانصرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة وقد

استكم سعد بن الربيع الخبر ، فلما خرج رسول الله — صلى الله

عليه وآله وسلم — من منزله خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه

فقالت :

— ما قال لك رسول الله — صلى الله عليه وسلم ؟

— ما لك ولذاك ؟ لا أم لك .

— كنت أستمع عليكم .

وأخبرت سعد الخبر ، فاسترجع وقال :

- لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - تكلم بحاجتك .  
ثم أخذ يجتمع ثلثتها ، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحسر فقال :  
- يا رسول الله إن امرأتى سألتني عما قلت فكتمتها ، فقالت : قد سمعت قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . ثم جاءت بالحديث كله ، فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيء فتظن أني أفشيت سره .  
- نخل سبيلها .

وأرجفت يهود المدينة والمنافقون وقالوا :

- ما جاء محمداً شيئاً يحبه .

وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خزاعة ساروا من مكة أربعاً فوافوا قريشاً وقد عسكروا بذي طوى ، فأخبروا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم انصرفوا ، ولقوا قريشاً ببطن رابغ وهو أربع ليالٍ من المدينة فنكبوا عن قريش .

فلما أصبح أبو سفيان بالأبواء حيث قبر آمنة بنت وهب أخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس مسين إلى مكة ، فقال أبو سفيان :

- أحلف بالله أنهم جاءوا محمداً فخبروه بمسيرنا وعددتنا وخبروه منا ، فهم الآن يلزمون صياصبيهم ، فما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهنا .

قرر أبو سفيان أن محمدا عليه السلام والذين معه قد دخلوا  
حصونهم لما بلغهم خبر مسير قريش ، فحرك ذلك خيبة الأمل  
في نفوس المشركين فقال صفوان بن أمية :

— إن لم يُصَحِّتِرُوا (١) لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج  
فقطعتناه ، فتركناهم ولا أموال لهم فلا يختارونها أبدا ، وإن  
أصحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم وسلاحنا أكثر من سلاحهم  
ولنا خيل ولا خيل معهم ، ونحن نقاتل علي وتر عندهم ولا وتر لهم  
عندنا .

وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلا من  
الأوس حتى قدم بهم مكة حين قدم النبي — صلى الله عليه وسلم —  
المدينة يحرض قريش ويُعلمها أنها على الحق وما جاء به محمد  
باطل ، فسارت قريش إلى بدر ولم يسر معها : فلما خرجت  
قريش إلى أحد سار معها وكان يقول لقريش :

— إني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم اثنان ،  
وهؤلاء معي نفر منهم خمسون رجلا .

فصدقوه بما قال وطمعوا في نصره .

وخرج النساء معهن اللدغوف يحرض الرجال ويدكرتهم  
قتلى بدر في كل منزل ، وجعلت قريش تنزل كل منهل ينحرون  
ما نحروا من الخزر مما كانوا جمعوا من العين ويتقوون به في  
مسيرهم وياكلون من أزوادهم مما جمعوا من الأموال .  
ونظرت هند بنت عتبة إلى قبر آمنة بنت وهب فقالت :

(١) اصحروا : خرجوا الى الصحراء .

لزوجها أبي سفيان :

- إنكم قد خرجتم بالظعن معكم ونحن نخاف على نساتنا فتعالوا ننبش قبر أم محمد فان النساء عورة ، فان يصب من نساتكم أحدا قلم : هذه رمة أمك ، فان كان برا بأمه - كما يزعم - فلعمري لنفادينهم برمة أمه . وإن لم يظفر بأحسد من نساتكم فلعمري ليفدين رمة أمه بماك كثير إن كان بها برا .  
فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأي من قريش في ذلك فقالوا :

- لا تذكر من هذا شيئا ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا .

وكانت قريش بذى الحليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرجهم من مكة وذلك لخمس ليال مضين . من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرا من الهجرة ، فلما أصبحوا بذى الحليفة خرج فرسان منهم فأنزلوهم الوطاء (١) هـ

وبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - عينين له آتيا وموتسا ابني فضالة ليلة الخميس ، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا الوطاء ، وأتيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبراه . وكان المسلمون قد ازدرعوا الوادي وكان أهله بنو سلمة وحرثة وظفر وعبد الأشهل ، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعهم ليلة الخميس المدينة فقدم المشركون على زرعهم فخلوا فيه إبلهم وخبولهم حتى تركوا الوادي ليس به خضراء هـ

(١) الوطاء : ما انخفض من الأرض هـ

وبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الحباب بن المنذر بن  
الجموح إلى القوم لما نزلوا الوادي واطمأنوا ، فدخل فيهم  
وحزر ونظر إلى جميع ما يريد وكان بعثه سرا وقال له :  
— إذا رجعت فلا تخبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى  
في القوم قلة .

فرجع إليه فأخبره خاليا وقال له :

— رأيت عددا حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو  
ينقصون قليلا ، والحيل مائتي فرس ورأيت دروعا ظاهرة  
حزرتها سبعمئة درع .

— هل رأيت ظعنا ؟

— نعم . رأيت النساء معهن الدفوف والأكبار ( الطبول ) .  
— أردن أن يحرضن القوم ويندكرتهم قتلى بنز ، هكذا  
جاءني خبرهم . لا تذكر من شأنهم حرفا . حسبنا الله ونعم  
الوكيل . اللهم بك أجول وبك أصول !

وكان مقدم قريش يوم الخميس لحمس خلون من شوال ،  
وباتت وجوه الأوس والخزرج سعد بن معاذ وأسيد بن حضير  
وسعد بن عباد في عدة منهم ليلة الجمعة عليهم السلاح في  
المسجد بباب النبي — صلى الله عليه وسلم — خوفا من تبييت المشركين ،  
وحرست المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا . ورأى رسول الله —  
صلى الله عليه وسلم — رؤيا ليلة الجمعة شغلت كل تفكيره .

وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة حتى إذا كان  
بأدنى الوادي إذا طليعة نخيل المشركين عشرة أفراس ركضوا

في أثره ، فوقف لهم على نشز من الحرة فرشقهم بالنبل مرة  
وبالحجارة مرة أخرى حتى انكشفوا عنه ، فلما ولوا جاء إلى  
مزرعته بأدنى الوادى فاستخرج سيفاً كان له ودرع حديد كان  
له دفنا في ناحية المزرعة وخرج بهما يعدو حتى أتى بنى عبد الأشهل  
فخبر قومه بما لقي .

واجتمع المسلمون لصلاة الجمعة ووقف رسول الله عليه  
السلام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس إني رأيت في منامى رؤيا ؛ رأيت كائى في  
درع حصينة ، ورأيت كأن سبى ذا الفقار انقصم من عند ظبته ،  
ورأيت بقرا تذبح ، ورأيت كائى مردف كبشا .

فقال الناس :

— يا رسول الله فما أولتها ؟

— أما الدرع الحصينة فالمدينة ، وأما انقصام سبى فقتل  
رجل من أهل بيتى ، وأما البقر المذبّح فقتلى في أصحابى ، وأما  
أنى مردف كبشا فكبش الكتيبة نقتله إن شاء الله .

وقضيت صلاة الجمعة والتف المهاجرون والأنصار برسول

الله — صلى الله عليه وآله — فقال :

— أشيروا على .

ورأى — صلى الله عليه وسلم — ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا  
ورسول الله عليه السلام يحب أن يوافق على مثل ما رأى وعلى  
ما عبر عليه الرؤيا ، فقام عبد الله بن أبى فقال :

— يا رسول الله كنا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة ونجعل

النساء والذراري في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة : والله .  
لربما مكث الوليد ان شهرا ينقلون الحجارة اعدادا لعدونا ونشبتك ،  
المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترمي المرأة .  
والصبي من فوق الصياصي والآطام وتقاتل باسيا فنا في السكك .  
يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما قضت علينا قط ، وما  
خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا وما دخل علينا قط إلا  
أصيبناه ، فدعهم يا رسول الله فانهم إن أقاموا أقاموا بشر عيس .  
وإن رجعوا خاسرين مقلوبين لم ينالوا خيرا ، يا رسول الله أظعني في  
هذا الأمر واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي .  
منهم ، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة .

فكان رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع رأى ابن أبي ،  
وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه -  
وسلم - من المهاجرين والأنصار ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :  
- امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذراري في الآطام ،  
فإن دمخل علينا قاتلناهم في الأزقة فنحن أعلم بها منهم ، ورؤموا  
من فوق الصياصي والآطام .

فقال فتیان أحداث لم يشهدوا بدرا :

- اخرج بنا إلى عدونا :

لهم رغبوا في الشهادة وأحبوا لقاء العدو . وقال رجال من  
أهل القطنة وأهل السن منهم حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عباد .  
والنعمان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج :  
- إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج .

إليهم جينا عن لقائهم فيكون هذا جرأة منهم علينا . وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله بهم ونحن اليوم بشر كثير . وكنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله به فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من إلحاحهم كاره ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم يتساومون كأهم الفحول :  
وقال مالك بن سنان أبو أبي سعيد الخدري :

— يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسينين . إما أن يظفركنا الله بهم فهذا الذي نريد فيلطم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر فلا يبتى منهم إلا الشريد ، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة والله يا رسول الله ما نبالي أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير .

وقال حمزة بن عبد المطلب وكان صائما :  
— لا أطمع اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارجا من المدينة .  
وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بني سالم :  
— يا رسول الله أنا أشهد أن البقر المذبح قتلى من أصحابك . وأنى منهم ، فلم تحرمنا الجنة ؟ فوالله الذي لا إله إلا هو لأدخلكنها .  
قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

— بيم ؟

— إني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف .

— صدقت .

وقال إياس بن أوس بن عتيك :

— يا رسول الله نحن عبد الأشهل من البقر المذبح ،  
نرجو يا رسول الله أن نذبح في القوم ومذبح فينا فنصير إلى الجنة  
ويصرون إلى النار ، مع أنى يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش  
إلى قومها فتقول حصرنا محمدا في صياصي يثرب وآطامها فتكون  
هذه جرأة لقريش وقد وطئوا سعفنا ؛ فاذا لم نذب عن عرضنا  
فلم نذرع ؟ وقد كنا يا رسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا  
فلا يطمعون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيافنا فنذبهم عنا ، فنحن  
اليوم أحق إذ أمدنا الله بك وعرفنا مصيرنا ألا نحصر أنفسنا في  
بيوتنا .

وقام خيشمة ، أبو سعد بن خيشمة ، فقال :

— يا رسول الله إن قريشا مكثت حولا تجمع الجموع  
وتستجلب العرب في بواديها ومن اتبعها من أحابيشها ، ثم جاءونا  
قد قادوا الخيل واعتلوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصرونا  
في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وافرين لم يكلموا فيجرثهم ذلك  
علينا حتى يشنوا الغارات علينا ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون  
والأرصاد علينا مع ما قد صنعوا بحروثنا ، ويجترئ علينا العرب  
حولنا حتى يطمعوا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فنذبهم عن حريمنا .  
وعسى الله أن يُظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا أو تكون الأخرى .  
فهي الشهادة .

لقد أخطأتني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصا ، لقد بلغ  
من حرصى أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فرزق .  
الشهادة ، وقد كنت حريصا على الشهادة . وقد رأيت ابني البارحة .

في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهاها وهو يقول :  
الحق بنا تراقنا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقا ،  
وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقا إلى مرافقته في الجنة ،  
وقد كبرت سني ودق عظمي وأحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول  
الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة .

فدعا له رسول الله بذلك .

وقال أنس بن قنادة :

— يا رسول الله هي إحدى الحسينين ، وإما الغنيمة والظمر

يقتلهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— إنى أخاف عليكم الهزيمة .

فأبوا إلا الخروج والجهاد ، فوعظهم عليه السلام وأمرهم  
بالجد والاجتهاد وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ففرح الناس  
حيث أعلمهم رسول الله — صلى الله عليه وآله — بالشخص إلى  
عدوهم ، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله  
وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم ، ثم صلى العصر بالناس وقد حشد الناس  
وحضر أهل العوالي ورفعوا النساء إلى الآطام ، فحضرت بنو عمرو  
ابن عوف يلقونها ولقيفها والنبيت (١) ولقيفها وتلبسوا السلاح ،  
فدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيته ودخل معه أبو بكر  
وعمر فعماه ولبساه .

وصف الناس له ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه ،

(١) النبيت : الناشئة .

(١) اللف : المختلط .

فجاءهم سعد بن معاذ وأسيد بن محضِر فقالا لهم :  
— قلم لرسول الله ما قلم واستكرهتموه على الخروج والأمر  
يتنزل عليه من السماء ، فرددوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه وما رأيتم  
فيه له هوى أو أربا فأطيعوه .

فبينما القوم على ذلك من الأمر وبعض القوم يقول :  
— القول ما قال سعد :

وبعضهم على البصيرة على الشخوص وبعضهم للخروج كاره ،  
إذ خرج رسول الله — صلى الله عليه وآله — قد لبس لأمته ( قد لبس  
الدرع ) فأظهرها وحزم وسطها بمنطقة من حائل سيف من أدم  
كانت بعد عند آل أبي رافع مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ،  
واعتم وتقلد السيف . فلما خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم ،  
ندموا جميعا على ما صنعوا وقال الذين يلحون على رسول الله —  
صلى الله عليه وسلم :

— ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن  
تستكرهك والأمر إلى الله ثم إليك .  
فقال عليه السلام :

— قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبئتم . ولا ينبغي لني إذا  
لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .  
اختلفوا في الخروج من المدينة والمقام بها ، وكره النبي صلى  
الله عليه وسلم الخروج ثم خرج على مضض . ثم ندم القوم الذين  
أشاروا بالخروج ، ثم عزم رسول الله عليه السلام على الخروج  
بعد أن لبس لأمته ، فتفرقت الكلمة بينا كانت الكلمة يوم بدر

واحدة لكأنا قد اجتمع المسلمون يوم ذاك على قلب رجل واحد ،  
ترى هل ينتصرون في هذه الغزوة كما انتصروا يوم بدر والنصر  
معقود بالعزم والجد والبصيرة في الحرب واتفاق الكلمة ؟  
وكان مالك بن عمرو النجاري مات يوم الجمعة ، فلما دخل  
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وليس لأمته وخروج وهو موضوع  
عند موضع الجنائز صلى عليه ثم دعا بفرسه ثم قال للمسلمين :  
— انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلکم  
النصر ما صبرتم .  
وركب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى أحد .

## التذييل

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « الله » : ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى .

وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات ؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطالبا وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة ، والصناعة تارة أخرى .

ويقول علماء المقابلة بين الأديان : إن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهي :  
دور التعدد .

ودور التمييز والترجيح .

ودور الوحدةانية .

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك في هذا

الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها ، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعتمد عليها في شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبها أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب ، وهي موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

وفي الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ، ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها مع بقاءه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والخاصية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدة الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتقرن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بارادة الله وحكمته العالية ، وكثيرا ما ينفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة

الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحضرة السماوية .  
والرأى الأرجح عند علماء المقابلة بين الأديان أن الاعتقاد  
بالثنائية يأتى أحيانا كثيرة بعد اعتقاد الوجدانية ، ويعلمون ظهور  
الثنائية بعد الوجدانية بأن الإنسان يترقى فى هذا الطور فيحاول  
تفسير الشر فى الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير ، ولا يكون  
هذا من قبيل النكسة فى عقيدته لأنه لا يزال يسبح تعدد الأرباب  
ويسبح التمايز والترجيح بينها والتفاوت بين درجاتها وطبائعها .  
فلا تكون الثنائية بعد الوجدانية نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل  
تقدما من الأدنى إلى الأعلى لتزويه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع  
صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان فى أطوار العبادة .

ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتى بعد  
جميع هذه الأطوار توفيقا بين النقائص والضرورات وإثباتا لوجود  
الله من طريق الثبوت الذى لا شك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس  
والعقل والإيمان .

وختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية  
أو أصل الباعث عليها ، فمن قائل إن الأساطير هى أصل الدين  
بين الحمج ، ومن قائل إن ملكة الاستحياء هى أصل الاعتقاد  
بالأرباب ، ويرجح آخرون أن السحر هو أصل العبادة وأصل  
الشعائر الدينية ، ويعلل آخرون العقيدة الدينية بضعف الإنسان  
بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من قوى الطبيعة والأحياء ، فلا  
غنى له عن سند يتدعه ابتداعا ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه  
والتوجه إليه بالصلوات فى شدته وبلواه .

يقول الفيلسوف كونت : « إن الدين عبادة الإنسانية » ؛  
ويقول سنيكا : « إن الدين معرفة الله والتشبه به » ؛ ويقول  
الفيلسوف الألماني كنت : « ينحصر الدين في اعتقادنا بأن كل  
واجباتنا أوامر إلهية » ، ويقرر إسكندر باين : « أن الدين عاطفة  
يكونها الانفعال الهادئ مقرونًا بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة » ،  
ويقول هكسلي : « إن الدين إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة  
العمل على تحقيقه في الحياة » .

ورأى بعض المفكرين أن الوجود البشري إن هو إلا حوار  
مع الله . وجعل بعض المفكرين من الروح الدينية عرضاً من أعراض  
طفولة الشعوب أو قصور العقل البشري أو انحراف الشخصية  
الفردية ، وعجز المفكرون والفلاسفة عن تقديم تعليل يتفق عليه  
عن أصل العقيدة الدينية وأصل الباعث عليها .

وقد أخذ الأستاذ العقاد فكرة ترقى الإنسان في العقائد ترقية  
في العلوم والصناعات من قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك  
ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم حتى وصلت إلى الوحدةانية ،  
وهذا القول خاطئ من وجهة النظر الإسلامية ، فهو يعتمد على  
فكرة أن الله من خلق الإنسان ، وينبئ عنه الثبات .

يقول القرآن الكريم إن الله خلق آدم وأن آدم كان على علم :  
« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا  
أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك  
ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها  
ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم

صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم  
الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال  
ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبلون  
وما كنتم تكتمون(١) . فتكون الوجدانية ومعرفة الله هي الطور  
الأول من الأدوار التي مرت بها عقائد الشعوب حسب ما يقرره  
القرآن المجيد .

كان آدم على علم بالله بل كان أكثر البشر معرفة به ، فقد  
جرى بينه وبين خالقه حوار مباشر دون وساطة ودون حجب :  
« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر  
وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا  
منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .  
فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم  
لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (٢) » .

ولم تنقطع صلة آدم بالله عقب هبوطه إلى الأرض بل اصطفاه  
ربه ليبلغ بنيه حقيقة الحق ، فلم يعرفوا إلا إلهها واحدا لا شريك له  
ولم يتخذوا أربابا بالعشرات كما يزعم علماء المقابلة بين الأديان  
الذين يدحض نظريتهم واقع التاريخ .

فلو كانت نظرية النمو الديني صحيحة لبدات العبادة بعبادة  
أرباب متفرقين ، ثم بانتصار رب من الأرباب وبدء دور التمييز  
والترجيح ، ثم ترتقى البشرية وتشيع المعرفة ويتعذر على العقل  
قبول الخرافات ، ويأتي عصر النور الإلهي ولا تكون ردة بعده

أبدا . ولكن الدارس للتاريخ الديني للبشرية يجد أن هذا التسلسل الذي يحاول أن بمنطقه علماء الأديان لم يكن له مكان في تاريخ البشرية الطويل ، فلو أننا تركنا مسألة خلق آدم وأن آدم كان على علم ، ولو لم نعرف بأن إدريس الحفيد السابع لآدم قد نادى بالتوحيد ، وأنكرنا رسالة نوح مع المنكرين ، وسلمنا بأن إبراهيم الخليل لم يدع إلى الإسلام ولم يعرف الله الواحد القهار ولم يدع إلى عبادته وحده ، ولم نعرف مثلهم إلا بما نقش على الحجر أو وجد مكتوبا على ورق البردى ، وتوغلنا معا في جوف الزمن حتى نصل إلى فجر الضمير الذي تكون في مصر في زمن الفراعين ، فإنا نجد أن أختاتون قد عرف التوحيد ، فما إن تولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى ما يتبعه الكهنة من أساليب ، وأعلن في شجاعة أن ديانة المصريين وثنية وأنكر الآلهة جميعا إلا إلهها واحدا لا شريك له هو « آتون » ، وهو خالق حرارة الشمس ومغليها ، وأن كل ما في الشمس من مجد ملتهب إن هو إلا رمز للقدره الغائبه التي لا تراها العيون .

وحرم أختاتون رسم صور للاله « آتون » فهو يرى أن إلهه الحق لا صورة له . وراح يناجي ربه قائلا :

ما أجمل مطلعك في أفق السماء !

أى « آتون » الحى .. مبدأ الحياة .

فاذا ما أشرقت في الأفق الشرقى .

ملأت الأرض كلها بمجالك .

إنك جميل ، عظيم .. براق .. عال فوق كل الرعوس !

أشعثك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت !  
وإنك تربطها جميعا برباط حبك !  
ومهما بعدت فان نورك يغمر الأرض !  
ومهما علوت فان آثار قدميك هي النهار !  
ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق .

هذا هو أختاتون وهذا هو توحيدهم منذ فجر التاريخ ، فلو كانت نظرية ارتقاء الإنسان في العقائد كارتقائه في العلوم والصناعات صحيحة ، ولو كان قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب حتى وصلت إلى دور التوحيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لحق على البشرية ألا ترتد إلى عبادة أرباب متفرقين بعد أن اهتدت إلى الإله الواحد . ولكن الواقع التاريخي يكذب هذه المزاعم كلها ، فقد كانت البشرية تعرف التوحيد ثم تعود إلى الشرك . ثم التوحيد فالشرك . والقرآن الكريم يوضح هذا التذبذب بين التوحيد والشرك أبين توضيح : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون (١) » ، « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلمهم يتذكرون . وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكن أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل

مدین تتلو عليهم آياتنا ولکننا کنا مرسلین (١) ، « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربکم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن محل عليكم غضب من ربکم فأخلفتم موعدی (٢) ، « قل من یکلؤکم باللیل والنهار من الرحمن بل هم عن ذکر ربهم معرضون . أم لهم آلهة تمنعهم من دوتنا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا یصبحون . بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتی طال عليهم العمر أفلا یرون أنا نأتی الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون . قل إنما أنذركم بالوحي ولا یسمع الصم الدعاء إذا ما ینذرون (١) .

فالقرآن الکریم یکذب نظریة ترقی الإنسان فی العقائد ترقیه فی العلوم ، ویؤكد أن القائلین بمرور البشریة بأطوار ثلاثة هی التعدد والتمیز والترجیح والوحدانية قد جافاهم التوفیق ، فالأصل التوحید ثم طول الأمد ففسوة القلوب فارسال رسول یوحى إليه أنه لا إله إلا الله فیدعو قومه إلى التوحید ویقضى على الخرافات والأساطیر ، فیطول على الناس العهد فیتخذون آلهة فی الأرض ، وفى السماء ویشركون برب العالمین ، فیاتیهم ذکر من ربهم فیعودون إلى الإیمان بالله واحد فی السماء والأرض المستعان على ما یصفون .

إنها فی نظر الإسلام دورة : وحدانية فشرک بالله ، سواء أکان ذلك الشرک تعدد الأرباب أو ثنائية فی الاعتقاد یوجود إله

(٢) طه ٨٦ -

(١) القصص ٤٣ - ٤٥ .

(٢) الانبیاء ٤٢ - ٤٥ .

للخير وإله الشر ، فأرسل رسول إلى الذين طال عليهم الأمد  
فقسفت قلوبهم لينير صدورهم بنور التوحيد ، فطول العهد ،  
فردة إلى الشرك المقيت ، فأرسل رسول بلسان قومه ليبين لهم  
فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم .

وتاريخ البشرية سواء أكان التاريخ الديني الذي جاء في الكتب  
الساوية ، أو التاريخ الذي نقش على الحجارة أو كتب بالخط  
المساري على الطين ثم جفف ، أو دون على ورق البردي أو الرقاق  
أو سعف النخيل ، يؤيد الحقيقة القرآنية كل التأيد ويسخر من  
الزعم الذي وصل إليه من عرفوا بعلماء المقارنة بين الأديان من أن  
البشرية قد مرت بأطوار ثلاثة قبل أن تبلغ نضج التوحيد .

يقرر القرآن أن آدم كان على علم وأن الله اصطفاه ليبين لبنيه  
أن الله واحد لا شريك له ، فلما طال على بنيه العهد ألغوا المحسوس  
وركنوا إليه وظنوا أنه لا عالم سوى ما هم فيه من مطعم شهى ومنظر  
بهى ولا عالم وراء هذا المحسوس ، فقسفت قلوبهم فأرسل إليهم  
إدريس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وكانت رسالة إدريس  
أول خطوة على الطريق الطويل الذي ستقطعه الرسالات لتأكيد  
وحدانية الله على مر العصور .

وعرف الناس التوحيد والبعث والخلود ثم ارتدوا إلى الظلمات  
بعد النور ، فأرسل الله رسله ليزيل الغشاوات التي رانت على  
القلوب لتبليج في الصدور أنوار الحقيقة : « ألم يأتكم نبياً الذين  
من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله  
جاءهم رسلكم بالبينات فرددوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا

عما أرسلتم به وإنا لنبى شك بما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم  
أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من  
ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا  
تريدون أن تصدون عما كان يعبد آباؤنا فاتونا بسلطان مبین .  
قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء  
من عباده وما كان لنا أن نأتىكم بسلطان إلا باذن الله وعلى الله  
فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا  
ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون (١) .

وقد عرف الناس الإيمان والإحاد منذ بدء الخليقة ، عرفوا  
الكهال والحرام والحلال والعرش والملائكة واللوح والقلم والجنة  
والنار ، ثم لما طال عليهم الأمد قالوا إن أنهار الجنة وطورها  
وثمارها إن هى إلا ترغيبات للعوام بما يميل إليه طباعهم ، وإن  
سلاسل النار وأغلالها إن هى إلا خزي ونكال وترهيبات للعوام  
بما ينزخر عنه طباعهم .

وقد عرف الصابئة الأولى عاذيمون وهرمس وهما شيث  
وإدريس عليهما السلام ، فلما طال عليهم الأمد قالوا نجود  
وأحكام عقلية أخذوا أصولها وقوانينها من مويد بالوحى ، ثم  
أنكروا الوحى والرسالة فقالوا إن الأنبياء أمثالنا فى النوع وأشكالنا  
فى الصورة ويشاركوننا فى المادة ويأكلون مما نأكل ويشربون مما  
نشرب ، أناس بشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم ؟ وبأية مزية  
لهم لزمنا متابعتهم ؟ ولئن أطعمتم بشر أمثلكم إنكم إذا لخاسرون (٢) .

وقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع  
هو الإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات  
من مبدأ إلى كمال ، يستمدون القوة من الحضرة القدسية ، ويفيضون  
الفيض على الموجودات السفلية :

فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها وهي  
هياكلها ، فلكل روحاني هيكل ، ولكل هيكل فلك ، ونسبة  
الروحاني إلى ذلك الهيكل - الذي اختص به ، نسبة الروح إلى  
الجسد ، فهو ربه ومدبره ومدبره .

وسموا الهيكل أربابا ، وربما سموها آباء والعناصر أمهات .  
تفعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها  
انفعالات في الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات  
وامتزاجات في المركبات ، فيتبعها قوى جسمانية ، وتركب عليها  
نفوس روحانية مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان .

ثم قد تكون التأثيرات الكلية صادرة عن « روحاني كلي » ،  
وقد تكون جزئية صادرة عن « روحاني جزئي » ، فمع جنس  
المطر ملك ومع كل قطرة ملك .

ومنهم مدبرات « الآثار العلوية » الظاهرة في الجو : مما  
يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ،  
ومما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب ، ومما يحدث في الجو  
من الرعد والبرق والسحاب والضباب وقوس قزح وذوات الأذنان  
والهالة والمجرة ، ومما يحدث في الأرض مثل الزلازل والمياه  
والأنخرة .

ومنها « متوسطات القوى » السارية في جميع الموجودات .  
ومدبرات الهداية الشائعة في جميع الكائنات ، حتى لا نرى موجودا  
ما بخاليا من قوة وهداية إذا كان قابلا لهما .

تمثل هنا التفكير تحول الإنسان الأول من عبادة الله الواحد  
القهار إلى عبادة الملائكة والكواكب والأجرام السماوية وبعض  
ظواهر الطبيعة ، بعد أن خدع نفسه بقوله إن الواجب الإقرار  
بالعجز عن الوصول إلى جلال الله ، وإنما يقترب إليه بالمتوسطات  
المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرًا وفعلاً  
وحالة .

وقد انقسم أهل الأهواء والنحل منذ بدء التاريخ إلى طبيعيين  
دهريين قد ألفوا المحسوس وركنوا إليه وظنوا أنه لا عالم سوى  
ما هم فيه ، وإلى فلاسفة إلهيين ترقوا بالتحصيل عن المحسوس ،  
وأثبتوا المعقول ولكنهم لا يقولون بحدود وأحكام وشرائع  
ويؤمنون بأن الشرائع والحلال والحرام مسائل وضعية فيها  
مصلحة الناس ، وإلى صابئة يقولون بالمحسوس والمعقول والحدود  
والأحكام ولا يقولون بالشرعية التي أتى بها رسل الله وأنبيأوه .

كانت رسالة إدريس دعوة إلى عبادة الله ، إلى العودة إلى  
الصراط المستقيم ، إلى الوحدانية بعد الشرك بالله ؛ فلما طال على  
الناس العهد عبدوا الملائكة والكواكب واتخذوا لها أصناما ترمز  
إليهم ، فأرسل الله إليهم نوحا : « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن  
أنذر قومك من قبل أن يأتئهم عذاب أليم . قال يا قوم إنى لكم  
نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون : يغفر لكم من ذنوبكم

ويؤخركم إلى أجل مسمى .. (١) ، « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه  
فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ  
الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم  
ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولى . إن هو  
إلا رجل به جنة فربصوا به حتى حين : (٢) » ، « ولقد أرسلنا نوحا  
إلى قومه إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم  
عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا  
بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما  
نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم  
إن كنت على بينة من ربي وأتاني رحمة من عنده فعميت عليكم  
أنزلمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لا أسألكم عليه مالا  
إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم  
ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن  
طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم  
الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزددى أعينكم لن  
يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين (٣) .  
دعوة إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده قبل أن تقوم مملكة  
آشور ومملكة بابل فى بلاد ما بين النهرين ، وقبل أن يزعم الملوك  
أن الملكية قد نزلت من السماء ، وقبل أن يجلس الملوك على العرش  
تشبها بالله وعرش الله ! دعوة مبكرة إلى الوحدانية تلخص مزاعم

(٢) المؤمنون ٢٢ - ٢٥ .

(١) نوح ١ - ٤ .

(٣) هود ٢٥ - ٢٦ .

القائلين يترقى الإنسان في العبادة ترقيه في العلوم والصناعات، وتكذب زعم علماء المقابلة بين الأديان الذين حسبوا أن الحضارة البشرية مد مطرد لا تعتوره نكسات ، فقالوا إن البشرية قد مرت بأطوار النمو الديني حتى بلغت رشد الإيمان بالله واحد قهار .

وطال على الناس العهد فقست قلوبهم فعادوا إلى عبادة الملائكة والكواكب والنجوم واتخذوا من دون الله أربابا ، فأرسل الله إليهم أخاهم هودا ليعيدهم إلى الصراط المستقيم : « وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملائكة الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (١) » .

وعرفت البشرية التوحيد مرة أخرى ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم فارتدوا إلى الشرك وعبادة الأصنام التي اتخذوها رموزا للملائكة أو الكواكب السيارة أو الظواهر الطبيعية التي كانت تنزل الرعب في قلوبهم أو يأملون منها الخير العميم .

ولما كانت سنة الله سبحانه وتعالى أن يرسل الرسل إلى عباده، بعد أن تقسو قلوبهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فقد أرسل صالحا إلى قومه : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم :

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين (١) .

كانت الدعوات كلها تستهدف عودة البشرية إلى عبادة الله وحده ، وقد كادت أن تكون عبارات الدعوة واحدة ، فنوح عليه السلام يقول لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وهود يقول لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وكذلك كانت دعوة صالح . ولم يتخذ أحد منهم اسما للدين الذي يدعو إليه لأن البشرية لم تكن قد تفرقت في الدين إلى مذاهب ، ولم يتخذ المشركون لأديانهم أسماء يميزون دياناتهم بها فقد كانوا يؤمنون أنهم يتقربون إلى الله بالمتوسطات المقربين إليه . أما في زمن إبراهيم الخليل فقد أطلق على أديان الكفر أسماء فعرفت عبادة نانا وهي عبادة القمر ، وعبادة مردوخ وهي عبادة كوكب المشترى ، وعبادة شمش وهي عبادة الشمس ، ثم أطلقت أسماء على عبادات الشرك فكان لا بد من إطلاق اسم على دين الله ، فكان الإسلام ذلك الاسم منذ رسالة إبراهيم عليه السلام ، وقد أطلق بعد ذلك على كل عبادة تدعو إلى التوحيد : « وجاهلنوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا

ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (١) .

وكانت دعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يقيان القواعد من البيت أن يجعلهما الله مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك (٢) » .

وأكد القرآن الكريم أن من يرغب عن ملة إبراهيم إنما يفسده نفسه . وأن بنيه ويعقوب ( إسرائيل ) كانوا مسلمين : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون (٣) » . وعبدت الشمس قبل إبراهيم الخليل وعبدت من بعده في بلاد ما بين النهرين وفي مصر وفي اليمن وفي كل بقاع الأرض التي كانت مأهولة بالسكان في ذلك الزمان ، وهذه حقيقة لا تتفق مع ما يقول به علماء المقابلة بين الأديان من أن أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة في جميع الأمم ولا في جميع الأديان . وأن عقيدة الأرواح لم تفارق أطوارها

(٢) البقرة ١٢٨ .

(١) الحج ٧٨ .

(٣) البقرة ١٢٠ - ١٢٣ .

الأولى ، وأن عبادة الأسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان إلى دنياه حتى التمس لها علة في السماء فكانت الشمس هي أكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ، ثم أصبحت الشمس رمزا للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره إلى ما هو أعظم منها وأعلى ، فهي القنطرة الأخيرة بين العدوتين : عدوة التعديد وعدوة التوحيد . ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزا للقوة الكونية إلا قبول التوحيد الصحيح ، فتعلمه الإنسان من الديانات شيئا فشيئا حتى بلغ بالقوة الإلهية نهاية التنزية .

وكان الله باللغة الآرامية « الإيل » فسمى إبراهيم ابنه البكر إسمائيل أي من سمع الله لك فيه ، وسمى حفيده إسرائيل ، ونسبت مدينة بابل إليه باب إيل . ويقول الأستاذ العقاد في كتابه عن الله : « ويدل لنا هذا الترقى الديني من ترقى العقل في تفسير كلمة الإله ... فكلمة « إيل » بالآرامية مرادفة لمعنى القوى أو البطل ، ثم أصبحت كلمة الإيل بالتعريف مرادفة لبطل الأبطال أو للبطولة المطلقة ، كما نميز عالما بكلمة العالم مع التعريف ، لنقول إنه العالم دون سواه » .

أخذ الأستاذ العقاد بنظرية الترقى الديني عن علماء المقابلة بين الأديان ، وإن الدارس لتاريخ البشرية الديني ليجد في يسر أن هذه النظرية محض خيال ، فقد ارتدت البشرية عن الوحدانية بعد إبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم ونسوا الإسلام الذي دعا إليه كل الرسل والأنبياء من بعد خليل الرحمن عليه السلام ، فيوسف

الصديق يسأل ربه أن يتوفاه مسلما ويلحقه بالصالحين : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين (١) » .

وعادت البشرية إلى الشرك بالله ودور تعدد الآلهة والأرباب بعد التوحيد ، حتى بنو إسرائيل ورثة العلم والتوحيد عبدوا العجل وما كان يعبد المصريون ، فأرسل الله إليهم موسى عليه السلام ليعيد الإسلام ناصعا كما كان أيام إبراهيم الخليل أبي المسلمين : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملكه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد (٢) » .

ولم يطق بنو إسرائيل التوحيد طويلا ، فقد طلبوا أن يرتدوا إلى الشرك والتعدد وموسى كلم الله فيهم « قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » ، ولم يكتفوا بالتمنى بل عبدوا العجل لما ذهب موسى لميقات ربه : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار (٣) » ، « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بأسها خلفتموني من بعدى (٤) » .

وترك موسى عليه السلام التوراة فاذا بينى إسرائيل يختلفون فيها وينقسمون إلى شيع وأحزاب كل طائفة تكفر الأخرى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلاف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ولأنهم لفي شك منه مريب » .

(٢) هود ٩٦ - ٩٧ .

(١) يوسف ١٠١ .

(٤) الأعراف ١٥٠ .

(٣) الأعراف ١٤٨ .

(١) هود ١١٠ .

وبعث الله داود إلى بني إسرائيل وآتاه زبوراً ليعيد بني إسرائيل إلى الإسلام دين الله منذ بدء الخليقة الذي لم يعرف الترقى ولا التبديل والتغيير . دين الفطرة الذي كانت رسالته على الدوام أن لا إله إلا الله . وورث سليمان داود واستمر في الدعوة إلى التوحيد وإلى الإسلام : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علىّ وأتوني مسلمين (١) » .

« قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (٢) » .

وعرفت اليهودية كدين بعد داود وسليمان فلم يكن لها ذكر قبل ذلك . فداود وسليمان كانا من نسل يهوذا الابن الرابع ليعقوب ( إسرائيل ) . فلما آل إليهما ملك بني إسرائيل رأى رهط يهوذا أن ينتهزوا هذه الفرصة وأن يخلدوا حدث اعتلاء اليهوديين عرش بني إسرائيل لأول مرة . فنفوا عن داود وسليمان الرسالة وثبتوا لها الملك فقالوا داود الملك وسليمان الملك ثم أطلقوا اليهودية على ما ابتدعوا من دين .

وإن الواقع التاريخي يوبّد هذه الحقيقة . وقد جاء في القرآن الكريم : « يا أهل الكتاب لم تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاجبتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً

(١) النمل ٢٠ - ٢١ .

(٢) النمل ٢٤

مسلمًا وما كان من المشركين (١) .

وقد عقد كل من هنرى برستيد في كتابه فجر الضمير وأرثر ويجال في كتابه حياة إخناتون مقارنة بين صلوات إخناتون وأحد مزامير داود فانتشمت المعاني بينهما اتفاقًا لا ينسب إلى توارده الخواطر . وقد خلاصا من ذلك أن المزامير قد أخذت معانيها عن ابتهالات إخناتون .

وقد يكون ذلك الاستنتاج صحيحًا ولكنه لا يطعن في رسالة داود . فان اليهود في منغهم في بابل قد أعادوا كتابة التوراة متأثرين بالديانة البابلية والديانة المصرية . ولم يجعلوا داود نبيًا بل ملكًا له خطايا قد يرفع عنها سواد البشر . إن القرآن الكريم يقرر أن الله قد آتى داود زبورًا كما آتى موسى فرقانًا ولم يثبت أن المزامير الواردة في توراة بابل هي الزبور الذي ذكره الله في قرآنه .

وألف « فرويد » كتابًا سماه « موسى والوحدانية » عقد فيه مقارنة بين عقائد إخناتون والعقائد العبرية . وانتهى من مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لدي . وهو أن موسى عليه السلام تربى في مصر في كنف الوحدانية ونشأ في أعقاب المعركة بين آتون وآمون واستعد للنبوة في هذه البيئة الموحدة فعلم بني إسرائيل كيف يوحدون الله ويعظمون صفاته وآلاءه . وكان خروج بني إسرائيل — في رأيه — فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، أى في الجيل التالي لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية ...

جاسترسل فرويد في تقديراته - وهو من بنى إسرائيل - حتى  
ظن أن موسى عليه السلام من دم مصرى وليس من اللاويين  
كما جاء في التوراة .

وقد رأى المنكرون للرسالات من رجال هذا العصر في قول  
بيرستد وويجال وفرويد ما يؤيد إلحادهم ، واطمأنوا إلى هذه  
الاستنتاجات كأنما كانت حقيقة لا يأتيتها الباطل من أمامها  
ولا من خلفها ولا عن يمينها ولا عن يسارها . ولكن حفريات  
البحر الميت ألقت الضوء على رأى جديد يقول إن موسى كان  
في عهد تحتمس الثالث وأن حثشبوت هى التى التقطته من اليم .  
أى قبل عهد الصراع بين آمون وآتون وقبل أن يولد أخناتون .  
فزعزع ذلك الأكتشاف جبال الأوهام التى أقامها في الهواء  
بيرستد وويجال وفرويد .

وطال على بنى إسرائيل الأمد فقت قلوبهم ونسوا الإسلام  
الذى جاءهم به موسى . فوصفوا الله بالصفات البشرية ونسبوا  
القراية الإنسانية إليه . فأطلقوا على أبنائهم عمائيل ( من العمومة )  
أو إيل أب من الأبوة . وغير ذلك من أوامر الأسرة البشرية .  
ونسبوا إلى الإله أعمال الإنسان وحركاته . فذكروا أنه  
كان يتمشى في الجنة وأنه كان يصارع ويأكل ويشرب . وأنه  
دفن موسى حينما مات في مواب ! ثم اغفلوا التماثيل رمزا للإله  
وسرعان ما عبدها . وقد جاء في الإصحاح الثامن عشر من كتاب  
الملوك الثانى أن حزقيا ملك يهودا : . . أزال المرتفعات وكسر  
الصائيل وقطع المواردى وسحق حية النحاس التى عملها موسى

لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها .  
وغزا نبوخذ نصر ( مختصر ) إسرائيل وحمل بني إسرائيل  
أسرى إلى بابل . وفي أرض المنى تأثر بنو إسرائيل بعقائد البابليين .  
ونسوا الحنة والنار وما جاءهم به موسى بعد أن حرق مختصر كل  
نسخ التوراة . وفي أرض السبي أعاد أنبياء بني إسرائيل كتابة  
التوراة فندسوا فيها أساطير الشعوب ووصموا أنبياء الله بكل  
تقيصة . ولما كان البابليون لا يؤمنون بالبعث ويقولون إن الموت  
يذهبون إلى الأرض التي لا رجعة منها فقد خلت التوراة التي كتبت  
في بابل من ذكر البعث واليوم الآخر . فالأرض السفلى أو الحب  
أو شيول هي الهاوية التي تأوى إليها الأيتام بعد الموت ولا نجاة  
منها ليت . . . . وإن الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد .

كان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث والحساب قبل أن تكتب  
التوراة في بابل بألاف السنين . فما رأى السادة علماء المقابلة  
بين الأديان الثماتين بالترقي في الديانات على مر العصور ؟ ألم  
يكن الفراعين الأولون أكثر رقياً في العقيدة من بني إسرائيل  
في المنى ؟

وفي ذلك الوقت قام في فارس زرادشت يدعو إلى عبادة  
أهورامزدا إله النور . وعرفت فارس التوحيد واعتق الناس  
ديانة زرادشت . وسرعان ما عادوا إلى عبادة النار ومزجوا  
الأساطير بالدين اتقم فاذا بأهورامزدا يصبح على رأس سبعة  
من أرباب الحكمة وأحق وقوى الطبيعة .

وعرف المجوس الثنائية في العبادة فقالوا إن أهورامزدا إله

النور والخير وأهرمان إله الظلام والشر . وقد عرف الثنائية قبلهم قداماء المصريين فقالوا إن أزوريس إله الخير وست-إله الشر . وقد كانت الثنائية معروفة منذ فجر التاريخ وهذا يلجس زعم علماء المقابلة بين الأديان بأن الثنائية تأتي غالبا بعد التوحيد وأنها ليست نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدا من الأدنى إلى الأعلى ، لتزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان في أطوار العبادة .

وعاد بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وقد تأثرت ديانتهم بديانة البابليين وأساطيرهم . وضافت آفاقهم الدينية فقالوا إن الإله هو رب إسرائيل وحدهم وزعموا أنهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، وقالوا إن الذي يعيش في بيت المقدس فهو يعيش مع الله ، ومن نام خارجها فهو لا يعيش مع الله ، ووصفوا « يهوه » إلههم بأنه غيور شديد البطش متعطر إلى الدماء سريع الغضب يتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه ، وزعموا أن الرسالة فيهم وحدهم فهم شعب الله المختار .

يزعم بنو إسرائيل أن الله اصطفاهم وأن الرسالة والنبوة فيهم ، ويزعم بعض علماء الأديان أن الرسالة والنبوة انحصرت في الشرق الأوسط ويسوقون لذلك تفسيرات يحاولون أن يلبسوها ثوب العلم واليقين . ولكن الباحث في ديانات الهند وفارس والممالك التي كانت معروفة في زمن الرسالات يجد فيها آثار ديانات سماوية طمسها الأساطير لما طال على الناس العهد . وإن القرآن الكريم يقرر : « إن من أمة إلا خلا فيها

تذير (١) . « ولكل أمة رسول (٢) » :

ويذكر الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » أن اليونان عرفت النبوة وأن حكماءهم تأثروا بها ، وأن تاليس الملطي الذي كان أول من تفلسف في ملطية وقال : إن للعالم مبدعا لا تترك صفته العقول من جهة هويته إنما يدرك من جهة آثاره . وهو الذي لا يعرف اسمه فضلا عن هويته إلا من نحو أفاعيله وإبداعه وتكوينه الأشياء . فلما ندرك له اسما من نحو ذاته إنما من نحو ذاتنا . إنما تلتى مذهبه من مشكاة النبوة ، فتاليس يقول إن المبدع الأول هو الماء . وفي السفر الأول من التوراة : « إن مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى . ثم نظر إليه نظرة إلهية فنابت أجزاؤه فصارت ماء ، ثم نار من الماء بخار مثل اللدخان فخلق منه السماوات . وظهر على وجه الماء زبد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجبال » .

ويقول أنكيمانس الملطي : « إن البارئ تعالى أزل لا أول له ولا آخر . هو مبدأ الأشياء ولا يبدئه له ، هو المدرك من خلقه أنه هو فقط وأنه لاهوتية تشبهه وكل هوية فمبدعة منه . هو الواحد ليس كواحد الأعداد ، لأن واحد الأعداد يتكرر وهو لا يتكرر ... أبداع يوحدانية صورة العنصر ، ثم صورة العقل انبعثت عنها ببدعة البارئ تعالى .

ويقرر الشهرستاني في نهاية حديثه عن فلسفة أنكيمانس : هو أيضا من مشكاة النبوة اقتبس . وبعبارات انقسام التيس .

أما عن رأى أنباده فليس فيقول الشهرستاني : « وهو من الكبار عند الجماعة . دقيق النظر في العلوم رقيق الحال في الأعمال . وكان في زمن داود النبي - عليه السلام - مضى إليه وتلقى منه العلم واختلف إلى لقمان الحكيم واقتبس منه الحكمة ، ثم عاد إلى يونان وأفاد .

قال : إن الباري تعالى لم تزل هويته فقط وهو هو العلم المحض ، وهو الإرادة المحضة ، وهو الجود والعزة والقدر والعدل والخير والحق ... لا أن هناك قوى مسماة بهذه الأسماء ، بل هي هو وهو هذه كلها .

ويستمر الشهرستاني في سرد مذاهب الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة . ويبدءون بتاليس الملطي ويتهون بأفلاطون ، مؤكدا أنهم قد أخلوا بالحكمة من معدن النبوة . فيقول إن فيثاغورس الذي ادعى أنه شاهد العوالم العلوية تحسه وحده وبلغ في الرياضة إلى أن سمع خفيف الفلك ووصل إلى مقام الملك وقال : ما سمعت شيئا قط ألد من حركاتها . ولا رأيت شيئا أسمى من صورها وهياتها . وقال إن الباري تعالى واحد لا كالأجساد . ولا يدخل في العدد . ولا يدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس ، فلا الفكر العقلي يدركه ولا المنطق النفسي يصفه . فهو فوق الصفات الروحانية غير مدرك من نحو ذاته ، وإنما يدرك بآثاره وصنائه وأعماله . فيثاغورس هذا كان في زمان سليمان النبي ابن داود عليهما السلام .

وسقراط اقتبس الحكمة من فيثاغورس واقتصر من أصنافها على الإلانات والأخلاقيات ، واشتهر بالزهد ورياضة النفس .

وتنهيب الأخلاق وأعرض عن ملاذ الدنيا واعتزل إلى الجبل وأقام في أعلاه . ونهى الرؤساء الذين كانوا في زمانه عن الشرك وعبادة الأوثان فتوروا عليه الغاغة وألجئوا ملكهم إلى قتله ، فحجبه الملك ثم سقاه السم ؟

قال سقراط : إن البارئ تعالى لم يزل هوية فقط وهو جوهر فقط . وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه وحقيقته وتسميته وإدراكه ، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره ، فهو المدرك حقا والواصف لكل شيء وصفا والمسمى لكل موجود اسما ، فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما ، وكيف يقدر المحسوس أن يحيط به وصفا ؟ ! . فترجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله ، وهى أسماء وصفات إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المخبر عن حقيقته . وذلك مثل قولنا : إله أى واضح كل شيء ، وخالق أى مبدئ كل شيء ، وعزيز أى ممتنع أن يضام ، وحكيم أى محكم أفعاله على النظام . وكذلك سائر الصفات .

ثم إن مذهب سقراط ، أن أنخص ما يوصف به البارئ تعالى هو كونه حيا قيوما ، لأن العلم والتقدير والجسود والحكمة ... تتدرج تحت كونه حيا . والحياة صفة جامعة لكل ، والبقاء والسرمد والنوام وحفظ النظام في العالم تتدرج تحت كونه قيوما . والقيومية صفة جامعة لكل .

وزيما يقول : هو حي ناطق من جوهر أى من ذاته ، وحياتنا ونطقنا لا من جوهرنا ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدثور

والفساد ، ولا يتطرق إلى حياته ونطقه — تعالى وتقدس .  
ومن مذهب سقراط أن النفوس الإنسانية كانت موجودة  
قبل وجود الأبدان على نحو من أنحاء الوجود إما متصلة بكلها  
وإما متميزة بذواتها وخواصها ، فاتصلت بالأبدان استكمالاً  
واستدامة ، والأبدان قوا اليها وآلاتها فتبطل الأبدان وترجع  
النفوس إلى كليتها .

وقال الشهرستاني عند الحديث عن رأى أفلاطون الإلهي  
إنه آخر المسلمين الأوائل الأساطين معروف بالتوحيد ،  
والحكمة ، ولد في زمن أردشير بن دارا في سنة ست عشرة من  
ملكه ، ولما اغتيل سقراط بالسّم ومات قام مقامه وجلس على  
كرسيه ، وقد أخذ العلم من سقراط وطيمائوس وضم إليه العلوم  
الطبيعية والرياضة .

وحكى عنه قومه ممن شاهده وتلمذ له مثل : أرسطاطاليس .  
أنه قال : إن للعالم محدثاً مبدعاً أزلياً واجباً بذاته ، عالماً بجميع  
معلوماته على نعت الأسباب الكلية ، كان في الأزل ولم يكن في  
الوجود رسم ولا كليل إلا مثلاً عند الباري تعالى ، ربما يعبر  
عنه بالحيولي وربما يعبر عنه بالعنصر ولعله يشير إلى صور  
المعلومات في علمه تعالى .

قال : فأبدع العقل الأول ويتوسطه النفس الكلية . وقد  
انبعثت عن العقل انبعاث الصورة في المرآة ويتوسطها العنصر .  
وقال : والعالم عالمان : عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور  
الروحانية ، وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور

الجسمانية ، كالمرآة المجلوة التي تنطبع فيها صور المحسوسات .  
فإن الصور فيها مثل الأشخاص ، وكذلك العنصر - في ذلك  
العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها ،  
غير أن الفرق أن المنطبع في المرآة الحسية صور خيالية يرى أنها  
موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس في الحقيقة كذلك، وأن  
التمثل في المرآة العقلية صور حقيقية روحانية هي موجودة بالفعل  
تتحرك الأشخاص ولا تتحرك ، فنسبة الأشخاص إليها كنسبة  
الصور في المرآة إلى الأشخاص فلها الوجود الدائم ولها الثبات  
القائم ، وهي تميز في حقائقها تمايز الأشخاص في ذواتها .

وقال : وإنما كانت هذه الصور موجودة كلية دائمة باقية .  
لأن كل مبدع ظهرت صورته في حد الإبداع فقد كانت صورته  
في علم الأول الحق والصور عنده بلا نهاية ، ولو لم تكن الصور  
معه - في أزليته - في علمه لم تكن لتبقى ، ولو لم تكن دائمة  
بدوامها لكانت تدثر بدثور « الهوى » ، ولو كانت تدثر مع  
دثور الهوى لما كانت على رجاء ولا خوف ولكن لما صارت  
الصور الحسية على رجاء وخوف استدك به على بقائها ، وإنما  
تبقى إذا كانت لها صور عقلية في ذلك العالم ترجو اللحاق بها  
وتخاف التخلف عنها .

قال : وإذا اتفقت العقلاء على أن هناك حسا ومحسوسا  
وعقلا ومعقولا . وشاهدنا بالحس جميع المحسوسات وهي  
محدودة ومحصورة بالزمان والمكان . فيجب أن نشاهد بالعقل  
جميع المعقولات وهي غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ،

فتكون مثلاً عقلية .

أخذ الحكماء السبعة حكمتهم من مشكاة النبوة ، فلما طال على الناس العهد تشعبت آراء الفلاسفة وحكمهم . وقد تفلسف أهل الكتاب الأول والعلم الأول بعد أن أفسدوا التوراة في أرض المني ، وكان أقدم فلاسفة اليهود الذين أسسوا قنطرة الاتصال بين الدين والفلسفة فيلون السكندري الذي ولد في السنة العشرين قبل الميلاد وتوفي بعد ذلك بنحو سبعين سنة .

تقدم اليهود في الزمن وتعلموا في دراسة الفلسفة اليونانية ، وبلغ اختلاطهم بمذاهب الفلسفة أتمه في مدينة الإسكندرية قبل الميلاد لأنها أصبحت مركز الثقافة في العالم المتحضر بعد انتهاء عصر الفلسفة من أثينا وسائر بلاد الإغريق .

تعلم فيلون من دينه أن الله ذات ، وتعلم من الفلسفة اليونانية أن الله عقل مطلق مجرد من ملاسبات المادة . فلم يستطع أن يقبل الصفات والأنباء التي أسبندت إلى الله في كتب اليهود يدلالتها الخرفية ونصوصها الظاهرة . ولم يستطع أن يجاري الفلاسفة في عزهم بين الله وخلقاته ورفعهم عناية الله عن الاشتغال بأحوال هذه المخلوقات .

إلا أنه كان على اقتناع مكين بتزيه الله عن صفات التشبيه والتجسيم . وكان يرى أن عقل الإنسان لن يستثبت من صفات الله شيئاً . غير أنه موجود ولكنه في وجوده الكامل المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول .

فكيف يتأتى الاتصال بين هذا الخالق وبين مخلوقاته في هذه

الصور المادية ؟ وكيف يفهم الصفات والأنباء التي أسندت إليه  
في كتب أنبياء اليهود ؟

أما كتب الأنبياء فهو لا يرفضها ولكنه يقبلها على الرمز  
والمجاز ، ويقول إنها تنطوي على حقيقة أعمق من الحروف  
والنصوص يفهمها المستعملون لها على درجات ، وأما الاتصال  
بين الخالق والمادة فإنما يكون بوسيلة العقل أو الكلمة ، فالعقل  
يصدر عن الله والمادة تنقاد للعقل فتتحرك وتنظم وتتعدد فيها  
طبقات المخلوقات .

وكان فيلون يرفض أقوال الرواقين التي تشبه القول بوحدة  
الوجود وتجعل الله من العالم والعالم من الله ، ولكنه كذلك كان  
يرفض مذهب أرسطو في تجريده الله عن العمل في المخلوقات  
وزعمه أن كمال الله يقتضى هذا التجريد . قال : إن بعضهم ممن  
فاق إعجابهم بالعالم إعجابهم بصانعه يقولون إن العالم أبدى بغير  
بداية ، وينسبون إلى الله نسبة نخلت من التقوى والحق إذ مجردونه  
من العمل وكان أحرى بهم أن يقفوا موقف الروعة أمام قدرته :  
قدره الصانع والأب ، ولا يتجاوزوا الحد في تعظيم العالم وتمجيده .  
وقد كان موسى الذي بلغ النبوة في الفلسفة واهتدى بوحي الله  
إلى أعمق أسرار الطبيعة يعلم أن الضرورة أوجبت أن يوجد في  
الكون سبب محرك ومادة لا حراك لها ، وأن السبب المحرك هو  
العقل أو هو عقل الكون الطهور الذي يعلو على الفضيلة والعلم .  
ويعلو على الخير نفسه وعلى الجسد نفسه .. أما المادة التي لا حراك  
بها فليست لها روح حياة ولا صفة لها بالحركة من عند ذاتها ،

ولكنها متى تحركت بالعقل واستمدت منه روح الحياة صارت إلى هذا الصنع المحكم العجيب المتجلى لنا في هذا العالم . وإن أولئك الذين يحسبون العالم بلا بداية لا يصرون أنهم يقطعون بذلك الحسبان ألزم عنصر من مقومات الدين وهو الإيمان بالعناية الإلهية ، لأن العقل يتبثنا أن الأب الخالق يعنى بما خلق ... » .

ورفض فيلون زعم الزاعمين أن الله محتوية مكان أو زمان لأنه محيط بكل مكان وزمان . ويرفض زعم الزاعمين أن الله لا يستجيب للصلاة لأن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين الإنسان والله . وعنده أن الله يستجيب دعاء « الكلمة » لهذه الموجودات الأرضية . وأن موسى عليه السلام هو « الكلمة » الذي استجاب الله دعاءه في سيناء : وهو الذي خلص من شوائب المادة فلحق بالطبيعة الإلهية « (١) » .

قال : إن الله أحد . ولكنه بقدرته خير حاكم . فبالخير صنع العالم وبالحكم يدبره . وثمة شيء ثالث يجمع بين القدرتين وهو الكلمة : لأن الله - بالكلمة - يجود ويحكم .. والكلمة كانت في عقل الله قبل جميع الأشياء .. وهي متجلية في جميع الأشياء . وكان مذهب فيلون مبدأ ثورة دينية في بني إسرائيل . فتابعه أناس في التأويل والتفسير . وأحجم الناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث القديم . وانتهى الخلاف إلى انشقاق حاسم بين القرائين وهم المترمون للنصوص وبين الربانيين الذين يجيزون تفسيرها والتوفيق بينها وبين مقررات العلم ومذاهب الحكمة .

(١) عن كتاب « الله » للأستاذ المعتاد .

أفسد اليهود التوراة في أرض بابل وكتبوها بأيديهم وأضافوا إليها سير من قاموا بخدمات لشعب بني إسرائيل . فأنحرفت من كتاب منزل من السماء إلى كتاب أدب وتاريخ يسجل أعمال البارزين في التاريخ اليهودي . واعتنق بعض مفكري اليهود المذاهب الفلسفية التي انتشرت في ذلك الوقت فإذا بالقلوب تقسو وإذا بشطحات الفكر تقود إلى الكفر والشرك بالله . وإذا بالزمان يصبح في حاجة إلى رسول من عند الله ليزيل الأساطير التي رانت على الضائر ويعيد إلى الأرض الإسلام دين الله . فأرسل الله إلى بني إسرائيل المسيح عليه السلام . ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون . ثم قمنا على آثارهم برسلانا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتيناهم آياتنا فمنهم آمنوا ومنهم أجرهم وكثير منهم فاسقون . (١)

ودعا المسيح عليه السلام إلى الإسلام وآمن له الحواريون :  
« وإذا أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » . (٢)

ولم يطل مكث الإسلام الذي جاء به المسيح في الأرض فقد قام بولس بمزج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ولا سيما فلسفة الحلول . وراح يقول إن المسيح جالس على يمين الله ويدعو لمن يظلب لهم الخبز . أن تسكن فيهم كلمته . ويسأل لهم الغفران منه .

ويبشرهم بأنهم سيبلغون المجد متى عاد إلى الأرض .  
وأشار إلى المسيح عليه السلام في صلواته : « باسم ربنا يسوع  
المسيح » . وسمى نفسه باسم « رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله  
مخلصنا وربنا يسوع المسيح » . وإن كان القرآن الكريم يؤكد أن  
الله قد تابى على آدم بعد خطيئته : « فقلقى آدم من ربه كلمات  
فتاب عليه (١) » إلا أن بولس استمر يؤكد أن أبناء آدم قد توارثوا  
خطيئته وسماها « الخطيئة الموروثة » ، وقال إن المسيح إنما صلب  
ليظهر البشرية من تلك الخطيئة .

وكان لنظرية بولس أعمق الأثر في إلحاد من ألدوا من  
منكرى المسيحية وفلاسفتها . فنظرية الخطيئة الموروثة لا تستقيم  
مع عدل الله الذي يقرره في كل دياناته السماوية : « ولا تزر وازرة  
وزر أخرى (٢) » . « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى (٣) » .

فاضت كتب رجال الدين وآباء الكنيسة وبسكال وبوسويه  
وماسيون وغيرهم من الناطقين باسم التقليد المسيحي بفكرة أن  
الإنسان في نظر هؤلاء جميعاً مخلوق وضع لا يملك أية طهارة  
ولا يتمتع بأية فضيلة ولا تنطوي نفسه على أية براءة ! إنه عند  
أصحاب نظرية الخطيئة الأولى « مخلوق ساقط يهيمه شهوته  
الدنيئة بحيث إنه لولا خوفه من نار جهنم أو لولا احترامه لسطة  
المجتمع لأقدم على ارتكاب أذى الموبقات . ولما تورع عن إتيان  
أحظ الجرائم ! (٤) .

(٢) النجدة ٢٥

(٣) قلندر ١٨

(١) البقرة ٢٧

(٤) مشكلة الإنسان : الدكتور زكريا إبراهيم .

احتدم الخلاف بين المجامع والكنائس لما اعتنق أباطرة الرومان الدين المسيحي كما جاءهم به بولس ، واشتد الجدل حول تفسير كلمات الأب والابن والروح القدس والكلمة ، واختلفوا في أقانيم الثالوث : هل الابن مساو للأب ؟ وهل هو ذو طبيعة واحدة أو ذو طبيعتين إلهية وإنسانية ؟ وهل هو إله أو إنسان مفضل على سائر البشر ؟ وهل يصدر الروح القدس من الأب وحده أو من الأب والابن معا ؟ وهل المسيح هو الكلمة أو هو الابن فقط أو أن الكلمة والابن مترادفان ؟ أو أن الكلمة هي الأب والإله ؟ ظل شيخ « الخطيئة الموروثة » يطارد أفكار المفكرين والفلاسفة حتى بعد القول بأن الصلب كان كفارة عنها ، وذلك يظهر بوضوح في فلسفة نيتشه فهو يقول :

« إن كان من شأن فكرة الله أن تسقط ضلال الخطيئة على براءة الأرض ، فانه لابد للمؤمنين بالحس الأرضي مع أن يهوا بمعالجهم على تلك الفكرة » .

وراح نيتشه ينادى : « طوبى لأتقياء القلب لأنهم لا يعاينون الله .. لقد صرنا بشرا ولهذا فإننا لا نريد إلا ملكوت الأرض .. إلى أين مضى الله ؟ سأقول لكم إلى أين مضى ! لقد قتلناه . أنتم وأنا ، أجل نحن الذين قتلناه . نحن جميعا قاتلوه ! ألا تشمون رائحة العفن الإلهي ؟ .. إن الآلهة أيضا تتعفن ! لقد مات الله وسيظل ميتا » .

وكتب نيتشه يقول : « إن فكرة الله قد بقيت حتى الآن أقوى اعتراض ضد الوجود ... ونحن جميعا ننكر الله وننكر

مستولية الله فأننا عن هذا الطريق إنما نتخذ العالم .  
ويردد سارتر عبارات نيثشه فيقول : « إن الله قد مات ولكن  
هذا لا يعنى أنه غير موجود أو أنه لم يعد موجودا ، بل إن الله  
قد مات بمعنى أنه كان يحدثنا في صمت فلم نعد نستطيع أن نلمس  
منه الآن إلا جثة هامدة ، إن الله قد مات ولكن هذا لا يعنى  
بطبيعة الحال أن الإنسان قد أصبح ملحدا ، فإن صمت المتعالى ،  
مضافا إليه استمرار قيام الحاجة الدينية لدى الإنسان الحديث ،  
إنما هو في صميمه مشكلة كبرى ، وهذه المشكلة التي ثارت بالأمس  
كما تثور اليوم إنما هي المشكلة التي لا زالت تورق نيثشه وهيدجر  
ويسرز . »

أرقت فكرة « الخطيئة الأولى » رجال الفكر مذ قال بها بولس .  
فهي فكرة إن دلت فأنما تدل على ظلم الإله الذي ينبغي أن ينزه  
عن كل نقيصة ، وقد دارت حولها مناقشات على مر العصور حتى  
دفعت بعض الفلاسفة في العصر الحديث إلى أن يقولوا إن الله قد  
مات .

ثارت المشكلات اللاهوتية وشغلت عقول الباحثين بين  
المسيحيين . وذهب الدين المسيحي شيئا مختلفة لكل شيعة قوانين  
تناقض نفسها . وصار بعض العقائد لا يتفق في شيء مع ما جاء به  
المسيح عليه السلام على الرغم من قرب العهد . فمن قائلين إن  
التثليث يشمل الأب والابن وروح القدس إله واحد . كما يتكون  
الإنسان من جسم وروح وعقل باطنى . ومن قائلين إن المسيح  
ابن الله ولكنه منفصل عنه وأقل منه . ومن قائلين إن للمسيح  
طبيعتين مختلفتين إلهية وإنسانية وأن مريم إن هي إلا أمه وإنه لمن

الكفر أن تدعى أم الإله . ومن قائلين إن عيسى هو الله قبل التجسد  
ويشر أثناء التجسد . ومن شيعة من النساء يعبدن مريم العذراء . ومن  
مريميين يقدسون التثليث ، فالله الأب والله الابن والله الأم مريم .  
وضاع الإسلام الذي جاء به السيد المسيح في ركाम الفلسفة  
والأساطير ، وظهر الفساد في البر والبحر وبدأ أن شجرة الحضارة  
قد دب فيها الفساد حتى اللباب . وفي ذلك الوقت أرسل الله محمد  
ابن عبد الله ليدعو الناس كافة إلى الإسلام .

إن النظرية الإسلامية تقرر أن الأصل التوحيد ثم الشرك كلما  
طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، ثم التوحيد فالشرك . وإن  
الواقع التاريخي يؤيد ما نجاء في القرآن الكريم وينكر كل الإنكار  
ما زعمه علماء المقابلة بين الأديان من أن الإنسان قد ترقى في العقائد  
كما ترقى في العلوم .

وكان الإسلام منذ بدء الخليقة هو دين الله ، دعا إليه كل  
الرسل والأنبياء لم يعرف الترقى . ويؤيد ذلك قول الله تعالى :  
« إن الدين عند الله الإسلام (١) » . « ومن يتبع غير الإسلام ديناً  
فلن يقبل منه (٢) » .

وقد أنزل الله على رسله كتباً لهداية البشر فاندثرت أو حرفت  
أو كتبت بأيدي الناس ثم قالوا : هذا من عند الله . ولما كان الله  
سبحانه وتعالى قد جعل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة  
الرسالات فقد كتب على نفسه حفظ كتابه الكريم .

فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٣) » .

وإن كل يوم يمر والقرآن بين الناس ليزيد هذه الحقيقة تأكيداً .  
ويقول الأستاذ العقاد في كتابه « الله » : فلما ظهر الإسلام في  
الجزيرة العربية كان عليه أن يصحح أفكار كثيرة لا فكرة واحدة  
عن الذات الإلهية . وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط  
شئ من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتأخرين على تأويل  
الديانات الكنايية .

فإذا كانت رسالة المسيحية أنها أول دين أقام العبادة على  
« الضمير الإنساني » وبشر الناس برحمة السماء — فرسالة الإسلام  
التي لا التباس فيها أنها أول دين تم الفكرة الإلهية وصححها مما  
عرض لها في أطوار الديانات الغابرة .

فالفكرة الإلهية في الإسلام « فكرة تامة » لا يتغلب فيها  
جانب على جانب ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة  
ولا تجعل لله مثيلاً في الحسن ولا في الضمير . بل له المثل الأعلى  
وليس كمثلته شيء .

فالله وحده لا شريك له « ولم يكن له شريك في الملك (١) » ..  
« فتعالى الله عما يشركون (٢) » .. « سبحانه وتعالى عما يشركون (٣) » ..  
والمسلمون هم الذين يقولون : « ما كان لنا أن نشرك بالله (٤) » ..  
« ولن نشرك بربنا أحداً (٥) » .. ويرفض الإسلام الأصنام على  
كل وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التشريب .  
ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء وله الأسماء الحسنى .

---

(١) الفرقان ٢ . (٢) الامران ١٩ . (٣) يونس ١٨ .  
(٤) يوسف ٢٨ . (٥) الجن ٢ .

فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة .  
ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة .  
فهو قادر على كل شيء وهو عزيز ذو انتقام ، وهو كذلك رحمان  
رحيم غفور كريم .. قد وسعت رحمته كل شيء ، و « يختص برحمته  
من يشاء (١) » .

وهو الخلاق دون غيره و « هل من خالق غير الله (٢) ؟ » .  
فليس الإله في الإسلام مصدر النظام وكفى ، ولا مصدر  
الحركة الأول وكفى ، ولكن « الله خالق كل شيء (٣) » .. و « خلق  
كل شيء فقدره (٤) » .. و « إنه يبدأ الخلق ثم يعيده (٥) » .. وهو  
بكل شيء عليم (٦) » .

ومن صفات الله في الإسلام ما يعتبر ردا على « فكرة الله »  
في الفلسفة الأرسطية ، كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل في  
الاديان الكتابية وغير الكتابية ، فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا  
يعقل ما دونها . ويتزهد عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه  
والله كمال لا يطلب شيئا غير ذاته ويخل عن علم الكلليات والجزئيات  
لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة  
ولا قسوة لأن الخلق أحرى أن يطلب الكمال بالسعى إليه .

ولكن الله في الإسلام « عالم الغيب والشهادة (٧) » و « لا يعزب  
عنه مثقال ذرة (٨) » ... « وهو بكل خلق عليم (٩) » .. « وما كنا عن

- 
- |                  |                   |
|------------------|-------------------|
| (١) البقرة ١٠٥ . | (٢) الطه ٢ .      |
| (٣) الزمر ٦٢ .   | (٤) الفرقان ٢ .   |
| (٥) يونس ٤ .     | (٦) الانعام ١٠١ . |
| (٧) الانعام ٧٢ . | (٨) سبأ ٣ .       |
|                  | (٩) يس ٧٦ .       |

الخلق غافلين (١) « ... وسع كل شيء علماً (٢) » ... « ألا له الخلق والأمر (٣) » ... « علم بما في الصدور (٤) » .  
هذا هو رأى الأستاذ العقاد وهو فى كل ما يقرر متأثر بفكرة ترقى الإنسان فى العقائد ترقية فى العلوم والصناعات ، وإنى أرى أن الأستاذ العقاد قد قارن بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية بعد أن اعتورها التبديل والتحويل لما طال على الناس الأمد فقتت قلوبهم ، ولكن الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أن الإسلام الذى دعا إليه جميع الرسل والأنبياء لا يختلف عن الإسلام الذى دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، فالفكرة الإلهية فى كل من دعوة موسى عليه السلام ودعوة عيسى عليه السلام لا تختلف عن الفكرة الإلهية التى دعا إليها رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، فهى فكرة تامة فى كل الديانات السماوية . فإن كانت عوارض قد عرضت للديانات الغائبة فما ذلك من عند الله ولكنه من عند الناس . وإن كان الإسلام الذى دعا إليه محمد عليه السلام أكد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فجميع الديانات السماوية قد أكدت نفس الدعوة وأكدت علمه وأنه عالم الغيب والشهادة وأنه الخلاق دون سواه .

إن دين الله لم يعرف الترقى منذ آدم ، إنه ثابت لا يتغير وكل ما كان يعتوره من تبديل إنما يفعل البشر كلما طال عليهم العهد .  
« أفضال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم (٥) » ..

(٢) طه ٦٨

(٤) الشعورى ٢٤ (٥) طه ٨٦ .

(١) المؤمنون ١٧

(٣) الامراف ٥٥ .

«بل متعنا هولاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر (١)» ... «فطال عليهم  
الأمم فقت قلوبهم (٢)». «ولكننا أنشأنا قر ونافتطاول عليهم العمر (٣)» -  
واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية  
أو أصل الباعث عليها ، وقد جاء في القرآن الكريم : «وإذا أخذ  
ربك من نبي آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم  
ألمست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا  
غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم  
أفنتهلكنا بما فعل المبتلون (٤)» . قاله قد فطر البشر على أنه لا إله  
إلا هو : «فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها  
لا تبديل لخلق الله (٥)» . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :  
«كل مولود على الفطرة» فالله سبحانه وتعالى مخلق عباده حنفاء  
والآباء يفسلون الفطرة عما يلتقون الأبناء من خرافات وأساطير .  
ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتي بعد  
دور التعدد ودور التمييز والترجيح ودور الوجدانية ودور  
الثباتية ، توفيقا بين الثنائيات والضرورات وإثباتا لوجود الله من  
طريق ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان . ووحدة الوجود  
ياختصار هي القول بأن الله سبحانه وتعالى هو جميع هذه  
الموجودات ، وأنها ليست فيه على سبيل التجزئة والتفرقة ولكنها  
تكنم فيه كما يكنم الربع والنصف في الواحد . فليس هو كله  
وليس هو متصلا عنه وليس هو موجودا على التحقيق ولكنه

(١) الأنبياء (٤) (٢) الحديد ١٦ - (٣) القصص ٤٥ -

(٤) الأعراف ١٧٢ - ١٧٣ - (٥) الروم ٢٠ -

موجود بالإضافة إلى وجود الله ، أو أن وجوده كوجود الفرد بالنسبة إلى حقيقة النوع ، فهو ليس بمعلوم ولكنه لا يزيد تلك الحقيقة ولا ينفصل عنها .

أرادت الفلسفة أن تجد تفسيراً للوجود فقالت إن هذا الوجود إنما هو تعبير عن الموجود وتعريف به حين أراد أن يعبر عن نفسه ليعرف . والإسلام في هذه القضية واضح كل الوضوح ، فهو يقرر إذعان الإنسان لخالقه والإقرار بالعبودية لله وحده دون سواه . وقدرة الموجد وحكمته وجلاله وعظمته . فكل موجود قد أوجدته القدرة الإلهية وهو مقهور لهذه القدرة مسير بأمرها ويؤدي ما يجب للعبود على العباد من طاعة وشكر : « سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) » .

وقد عرّف بعض متصوفة الإسلام وحدة الوجود . ويقول لسان الدين بن الخطيب في مفهوم هذه الوحدة عند الصوفيين الموغليين في التصوف : « إن الزمان والمكان والغيب والظهور والآه واللذة والوجود إنما هي عندهم أوهام راجعة إلى إخبار الضمير . وليس في الخارج شيء .. فإذا سقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما .. واحدا .. ذلك أن الواحد هو الحق وإنما الحق مؤلف من طرفي حق وباطل ، فإذا سقط الباطل - وهو اللازم - بالأوهام . لم يبق إلا الحق ! »

والتعبد عندهم عبارة عن التزام الأوهام الواقعة بها التعدد والتعدد باطل ! وقالوا : العالم لا يصح أن يقال فيه قديم ومحدث .

إذ ذلك مبني على الزمان .. والزمان وهم إذ هو مقدار الحركة ..  
والحركة وهم .. وما ثم إلا حيز مجرد .. لا شيء منه في الخارج ..  
وهذا التصوير يكاد يكون نقلا عن الفلسفة الرواقية التي تنكر  
معطيات الحواس وتذهب إلى دفع كل ما تجيء به من أنباء عن عالم  
الحس وعدها كل ذلك من عمل الوهم والخلع .

ويقول ابن خلدون في فلسفة الوحدة عن بعض المتصوفة  
الذين يؤمنون بأن وحدة الوجود لا تقوم على الشك في معطيات  
الحواس وإنما تستند إلى نشأة الوجود وإلى الصلة بين الخالق  
وما خلق : « وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه  
وهو يتضمن الكمال بإضافة الإيجاد والظهور لقوله سبحانه في  
الحديث القدسي الذي يتناقلونه : « كنت كزائفا غفيا ، فأردت أن  
أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني » .

وهذا الكمال المنزه في الوجود وتفصيل الحقائق هو عندهم  
عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية ، وفيها حقائق  
الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمال  
من أهل البلية المحمدية ، وهذا كله تفصيل للحقيقة المحمدية ..  
وتصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهائية وهي  
مرئية المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك ثم العناصر  
ثم عالم التركيب .. هذا في عالم الرق ، فإذا تجلت فهي في عالم  
الفتق .. ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر  
والحضرات .. وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه  
لعمومه وانغلاقه .

ويقول ديور في كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية : « غير أن الغلاة من أهل التصوف زادوا على هذا بأن قالوا : بأنه لا يوجد في كل شيء إلا الله ، ومن هذا المنزع الأخير نشأ مذهب في وحدة الوجود خالف مذهب جمهور المسلمين وكان من شأنه أن جعل العالم خيالاً لا حقيقة ، كما وجد بين الإنسان وذات الله . وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية — أي نفي الصفات عن الله وأنه عن صفاته — قال المتصوفة بوحدة شاملة لكل شيء . وبعد أن كان الأولون — أي الحبرية من المعتزلة — يقولون بفعل الله في كل شيء قال الآخرون — المتصوفة — بوجود الله في كل شيء . » .

وفي أقوال القائلين بوحدة الوجود من المتصوفة خروج على مقررات الشريعة ومفاهيمها خروجاً واضحاً ، بل عودة إلى الشرك وعبادة غير الله ، فالجيل أحد شيوخ المتصوفة يقول : « إن الحق من حيث ذاته يقتضي ألا يظهر في شيء وإلا وبعد ذلك الشيء . وقد ظهر — أي الحق — الله في ذات الوجود ، فحق أن تعبد هذه النوات وليس شيء منها أولى من شيء بتلك العبادة . » .

طال على الناس الأمد فقتت قلوبهم وما كان الله ليعثر رسولا بعد محمد عليه السلام ، فكتاب الله بين أيدي الناس يرجعون إليه وينهلون من مناهل الحق وقد كتب الله على نفسه أن يحفظه . ولقد عرفنا آراء بعض الفلاسفة والمفكرين على مر العصور في ذات الله . وإن خير ما نلحظ به هذا التذليل سرد خطبة للإمام علي بن أبي طالب ريب الشبهة يتحدث فيها عن الله :

« الحمد لله الذي لا يبلغ مدحه القائلون ، ولا يحصى نعماءه العادون . ولا يؤدي حقه المجتهلون ، الذي لا يدركه بعد الهمم . ولا يناله غوص القطن . الذي ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود : ولا أجل محدود . فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته : ووطد بالصخور ميدان أرضه . أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الإخلاص له ، وكمال الإخلاص له نبي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه . ومن قرنه فقد ثناه : ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله . ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حده : ومن حده فقد عدده ، ومن قال : « فيم » فقد ضمنه ، ومن قال : « علام » فقد أخلى به (١) .

كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزاولة . فاعل لا بمعنى الحركات والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه . متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاء ، وابتداء ابتداء ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها . ولا هامة نفس اضطرب فيها . أحال الأشياء لأوقاتها . ولاء بين مختلفاتها ، وغرز غرائرها . وألزمها أشباحها ، عالما بها قبل ابتدائها ، محيطا بحدودها وانتهائها . عارفا بقرائنها وأحنائها .

(١) من تصور أنه على الكرسي أو العرش فقد أخلى منه غير ذلك الموضع .

## المراجع

- |                         |                      |
|-------------------------|----------------------|
| للحافظ ابن كثير         | القرآن الكريم        |
|                         | الكتاب المقدس        |
|                         | صحيح البخارى         |
|                         | عمدة التفسير         |
|                         | تاريخ الطبرى         |
| لابن ابي الحديد         | شرح نهج البلاغة      |
| لابن هشام               | السيرة النبوية       |
| للدكتور زكريا ابراهيم   | مشكلة الانسان        |
| للدكتور زكريا ابراهيم   | مشكلة الحرية         |
| لأبى الفرج الأصفهائى    | الآغانى              |
| لشهرستانى               | الملل والنحل         |
| لمبد الكريم الخطيب      | الله .. ذاتا وموضوعا |
| لعباس محمود العقاد      | الله                 |
| لنيسابورى               | اسباب النزول         |
| لفرويد                  | Moses and Monotheism |
| للأوسى                  | بلوغ الأرب           |
| للتويرى                 | نهاية الأرب          |
| لعلى برهان الدين الحلبى | السيرة الحلبية       |

## للمؤلف

### الطبعة الأولى

١٩٤٢	مايو سنة	ثقة	اسم بطل الاستقلال
١٩٤٣	يوليو سنة		ابو ذر الغفاري
١٩٤٤	مايو سنة		بلال مؤذن الرسول
١٩٤٤	ديسمبر سنة	مجموعة افاصيص	في الوظيفة
١٩٤٥	يوليو سنة		سعد بن ابى وقاص
١٩٤٦	فبراير سنة	مجموعة افاصيص	همزات الشياطين
١٩٤٦	اكتوبر سنة		ابناء ابى بكر الصديق
١٩٤٧	يناير سنة		الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)
١٩٤٧	سنة	رواية	في قافلة الزمان
١٩٤٨	مايو سنة		اهل البيت
١٩٤٩	سنة	قصة	اميرة قرطبة
١٩٥٠	مايو سنة	قصة	النقاب الأزرق
١٩٥١	سنة		المسيح عيسى بن مريم
١٩٥٢	سنة		قصص من الكتب المقدسة
١٩٥٢	سنة	رواية	الشارع الجديد
١٩٥٢	سنة	مجموعة افاصيص	صدي السنين
١٩٥٤	سنة		حياة الحسين
١٩٥٥	سنة	قصة	قلعة الاطال
١٩٥٧	ديسمبر سنة	قصة	الستقم

الطبعة الاولى		
يناير سنة ١٩٥٨		ام العروسة
مارس سنة ١٩٥٨	قصة	وكان مساء
يوليو سنة ١٩٥٨	قصة	أذرع وسيقان
سنة ١٩٥٩	مجموعة اقصيص	لؤلؤة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	الحصاد
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجاربي الذاتية
اكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جبر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٣	مجموعة اقصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	التصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيض
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله واسرائيل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمرو بن عبد العزيز
اكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد
فبراير سنة ١٩٧٥		هذه حياتي
ابريل سنة ١٩٧٥		مذكرات سينمائية

## القَصَصُ الدِّينِي

(للأطفال)

١٨ جزء	قصص الانبياء
في ٢٤	قصص السيرة
في ٢٠	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزء	العرب في أوروبا

# مَحَدُ رَسُوْلِ اللهِ

وَالَّذِينَ مَعَهُ

فِي عَشْرِينَ جُرْءًا

تَالِيف

عَبْدُ مَعْنِيْدِ جُوْدَةَ السَّحَّارِ

مَلِيْمٌ جِنَه

— ٥٠٠

١٠ ...

نِسْنُ الْجِزْءِ الْوَاحِدِ

نِسْنُ الْمَجْمُوْعَةِ كَامِلَةً

## السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

في ٢٠ جزءاً

١٦٦٥ أكتوبر	١ - اراهه امر الانبياء
١٦٦٦ مارس	٢ - هاجر المصرية أم العرب
١٦٦٦ سبتمبر	٣ - بنو اسماعيل
١٦٦٧ فبراير	٤ - العدنانيون
١٦٦٧ مايو	٥ - قريش
١٦٦٧ يوليو	٦ - مولد الرسول
١٦٦٧ أكتوبر	٧ - الينيم
١٦٦٨ يناير	٨ - خديجة بنت خويلد
١٦٦٨ مارس	٩ - دعوه اراهيم
١٦٦٨ يونيه	١٠ - عام الحزن
١٦٦٨ سبتمبر	١١ - الهجرة
١٦٦٨ نوفمبر	١٢ - غزوة بدر
١٦٦٩ يناير	١٣ - غزوة احد
١٦٦٩ مايو	١٤ - غزوة الخندق
١٦٦٩ يونيه	١٥ - صلح الحديبية
١٦٦٩ نوفمبر	١٦ - فتح مكة
١٦٧٠ فبراير	١٧ - غزوة تبوك
١٦٧٠ مايو	١٨ - عام الوفود
١٦٧٠ نوفمبر	١٩ - حجة الوداع
١٦٧٠ ديسمبر	٢٠ - وفاة الرسول

**حار مضر للطباعة**  
**سعيد جودة السحار وشركاه**

رقم الابداع ١٥٢٩ / ٧٨  
التريقيم الدولى ١٧٧



مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)